

تجربة الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

بحوث علمية محكمة في التفسير الموضوعي

تقديم

د. محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي
الأستاذ المشارك بقسم التفسير كلية القرآن الكريم
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

١٤٣٠ هـ

ح دار طيبة الخضراء، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العواجي، محمد بن عبد العزيز بن محمد

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب. / محمد بن عبد العزيز

بن محمد العواجي. - مكة المكرمة، ١٤٢٩هـ

٣٢٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٩٨٧-٦٠٣-٩٠٠٢٧-٨-٩

١- القرآن - التفسير الحديث

٢- القرآن - سورة الأحزاب - تفسير أ- العنوان

١٤٢٩/٦٩٠٩

٢٢٧,٣ ديوي

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٦٩٠٩

ردمك : ٩٨٧-٦٠٣-٩٠٠٢٧-٨-٩

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الملحوظات ترسل على عنوان المؤلف

المدينة المنورة - ص ب : (٢٠٠٤٤)

aboayob@yahoo.com

aboayob@hotmail.com

دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع - مكة المكرمة
هاتف وفاكس: ٥٥٨٩٠٢٧ - جوال: ٥٠٤٥١٢٤٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، تركنا على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك فصلوات ربي وسلامه عليه. وبعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وما قل وكفى خير مما كثر وأهوى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الإنعام: ١٣٤].

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة الإيمان، الحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الهداية، والحمد لله على نعمه كلها.

القرآن الكريم منهج حياة للقلوب، ومنهج حياة في واقع الناس، منهج يتصف بالشمول والكمال، والعلاج لكل مشاكل الحياة، وهذا البحث عبارة عن وقفة أمام سورة من سور القرآن لإبراز هذا المعنى واقتباس بعض الأحكام التي فيها حياة للقلوب، واستقامة للحياة.

القرآن الكريم منهج حياة للقلوب والأبدان، ومنهج نجاة للقلوب

والأبدان، نجاة للقلب مما يصرفه عن الحق، ونجاة للأبدان وللنفوس أيضاً من العذاب يوم القيامة، منهج يتصف بالشمول والكمال، والعلاج لكل مشاكل الحياة، وهذا البحث عبارة عن وقفة أمام سورة من سور القرآن لإبراز هذا المعنى واقتباس بعض الأحكام التي فيها نجاة للناس في الدنيا والآخرة.

يركز البحث في موضوعات سورة الأحزاب والتي تتضمن بعض الوصايا التي يجب أن يبني عليها المسلم بيته وأسرته، لتستقيم حياته على نور من الله، وذلك بعرض بعض الأحكام التي هي عبارة عن حل لمشكلات اجتماعية وقعت وتقع في كثير من المجتمعات بسبب الجهل بأحكام الله ورسوله فيها مثل: (متابعة المشركين والمنافقين، والظهار، والتبني، والطلاق).

وفي سورة الأحزاب يعرض الحق ﷺ لنا حدثاً من الأحداث العظام في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الدعوة الإسلامية، ويصف هذا الحدث موقفاً من أعظم مواقف الابتلاء والتمحيص في صف الأمة الإسلامية، ويكشف عن القلوب المريضة ويحدثها بما في قلوبها من مرضها ونفاقها.

ثم يعرض لنا ﷺ نتائج ذلك الحدث العظيم والاختبار المبين، ليوقفنا على حقائق مهمة يجب أن تكون موجودة عند أصحاب الدعوات ليلتزموا المنهج القويم في حياتهم كلها، وخصوصاً في سيرهم في الدعوة وتبليغ دين الله.

هذا الحدث العظيم هو: (غزوة الأحزاب)^(١)، التي كانت فتحاً عظيماً للدعوة الإسلامية الناشئة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة إلى الله في

(١) الحزب: جماعة الناس، والجمع أحزاب، وحزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه، وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب، والأحزاب هنا: جنود الكفار تألبوا وتظاهروا على حزب النبي ﷺ، وهم قريش وخطفان وبنو قريظة.

العهد المدني.

ففي هذا البحث نقف عند أحداث تلك الغزوة من خلال العرض القرآني لها لنأخذ العظة والعبرة، ولتكون نبزاساً لنا في دعوتنا وفي نشر دين الله تعالى للعالمين. وهذا البحث عبارة عن وقفة أمام آيات من سورة من سور القرآن لإبراز هذا المعنى واقتباس بعض الأحكام التي فيها حياة للقلوب، واستقامة للحياة. إذ يركز البحث في سورة الأحزاب على بعض الوصايا التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ومسلمة، لتستقيم حياتهم على نور من الله، وذلك وفق منهجية علمية موضوعية في البحث والاستنباط.

ولأن النبي ﷺ قدوتنا، وحياته وسيرته نبزاسٌ ونور يقتدى به، والقرآن الكريم منهجنا وشرعتنا الذي يوجهنا إلى ما يجب ربنا ويرضاه، فهو يعرض لنا حياة رسولنا ﷺ كالكتاب المفتوح ولا يخفي عنا شيئاً من أحواله ﷺ. وحيث أننا أتباعه ﷺ فقد بين الله لنا في سور القرآن عموماً وفي سورة الأحزاب خصوصاً علاقة النبي ﷺ بأمتة وما واجبه تجاه أمتة وما هي وظائفه، وماذا علينا تجاه تلك النعمة التي أنعم الله بها علينا بهذا النبي ﷺ. وحيث أن زوجاته عليه الصلاة والسلام من الصق من يكون حوله فقد بين لنا القرآن علاقته مع زوجاته ﷺ.

فمن واجب التعرف على حياة رسولنا ﷺ وعلاقته بنا ودوره في تقويم حياتنا، فهو إمام الغر المحجلين، نبينا محمد، نبي الأمة، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، تركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

ولذا كان لرسول الله ﷺ منزلة عظيمة في قلوب المسلمين، جعلها الله تعالى في القلوب، وجعل لها أثراً على الجوارح، فعظم الله تعالى شأن رسوله ﷺ، وجعل له حقوقاً وضوابط في التعامل معه تكفل الحفاظ على ذلك التقدير وتلك المكانة، وحفظ أيضاً زوجاته وجعل لهن حق الاحترام والتقدير لأنهن زوجاته ﷺ.

وقد جاء هذا البحث ليبرز هذا المعنى من خلال عرض بعض الآيات من سورة الأحزاب التي تتحدث عن هذا الموضوع، وذلك لأن سورة الأحزاب تميزت بأنها عرضت واقع رسول الله ﷺ وواقع أزواجه معه، وواقع تعامل الصحابة معه هو وزوجاته وما يجب أن يكونوا عليه تجاه رسولهم ﷺ.

ويرتكز ختام البحث في سورة الأحزاب على أسباب النجاة التي يجب أن يلتزم بها كل مسلم، لتستقيم حياته على نور من الله، وينجوا برحمة الله.

لذا جاء هذا البحث والدراسة لبعض الآيات التي جاءت في سورة الأحزاب وفق منهجية موضوعية علمية في البحث والاستنباط.

منهجية البحث:

حاولت أن يكون البحث قائماً على المنهجية الموضوعية وقد اتبعت في هذا

البحث الخطوات التالية:

- ✓ الرجوع إلى التفسير في مظانه من كتب التفسير وغيرها.
- ✓ رجعت قد جهدي المتواضع إلى مراجع تخدم الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات.
- ✓ الحرص على إيراد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وفي أسباب النزول.
- ✓ حرصت قدر الجهد على التزام الموضوعية في هذا البحث حسب ما ذكره العلماء في هذا الشأن وما قسّموه من أقسام.

- ✓ اتبعت الطريقة الموضوعية في الموضوع، ولم ألتزم ترتيب آيات السورة وتتابعها، بل الطريقة الموضوعية، فأجمع الحديث عن الموضوع الواحد في السورة.
- ✓ حاولت عرض المعنى الإجمالي للآيات، والتركيز في المعنى على الفوائد العملية، مع عدم إيراد أي معلومة لا ينبنى عليها فائدة عملية.
- ✓ التزمت بدراسة الموضوع من خلال آيات سورة الأحزاب - محل البحث فقط - وتركت المقارنة - بينها وبين غيرها لأنه يطوّل البحث، ولعل الله أن ييسره في بحوث لاحقة إن شاء الله.
- ✓ حاولت تبيين بعض الكلمات الغريبة .
- ✓ التزمت الاستشهاد من السنة بالأحاديث الصحيحة فقط، ولم أستشهد بحديث اتفق على ضعفه.
- ✓ اعتمدت على تصحيح وتضعيف الشيخ الألباني عليه رحمة الله، وعلماء الحديث، وسكت عما لم أصل إلى الحكم عليها وهو قليل.
- ✓ سلكت مسلك الإيجاز والإجمال، لأن التفصيل في جوانب الأخلاق والصفات يطوّل البحث، ويحتاج إلى عمل موسوعي وليس هذا هدفي في هذا البحث الموجز.
- ✓ حاولت ربط الواقع الدعوى الأول بالواقع الدعوي الحاضر.
- ✓ قدمت بمقدمة عن الوحدة الموضوعية للسورة، وحاولت أن أبين فيها ملامح السورة الرئيسة، وربطها ببعضها بحيث تكون موضوعاً واحداً.

خطة البحث العامة:

تمهيد: الوحدة الموضوعية للسورة.

الباب الأول: تصحيح أسس بناء الأسرة المسلمة:

الفصل الأول: وصايا تأسيسية.

الفصل الثاني: أحكام الظهار والتبني.

الفصل الثالث: أحكام الطلاق والمطلقات.

الباب الثاني: غزوة الأحزاب وقوة الامتحان:

الفصل الأول: أحداث الغزوة.

الفصل الثاني: قوة الابتلاء والامتحان.

الفصل الثالث: نتيجة الامتحان.

الباب الثالث: وصايا للمؤمنين والمؤمنات:

الفصل الأول: وصايا لأمهات المؤمنين.

الفصل الثاني: الصفات التي يجب على كل مسلم ومسلمة

المحافظة عليها.

الباب الرابع: علاقة النبي ﷺ بأمتة:

الفصل الأول: الولاية وأحكامها.

الفصل الثاني: علاقة النبي ﷺ بأمتة وأصناف المدعوين.

الفصل الثالث: الحياة الزوجية في بيت النبوة.

الباب الخامس: حقوق النبي ﷺ وأهل بيته:

الفصل الأول: الاستئذان والطعام في البيوت.

الفصل الثاني: حال أزواج النبي ﷺ معه واختيارهن الصبر.

الفصل الثالث: آداب خاصة مع زوجات رسول الله ﷺ.

الفصل الرابع: تمجيد المسلم لرسول الله ﷺ.

الفصل الخامس: تواعد الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين.

الباب السادس: أسباب النجاة والوقاية للمجتمع:

الفصل الأول: أحكام الحجاب.

الفصل الثاني: أسباب الهلاك وطرق النجاة.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

قائمة المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

والله سبحانه أسأل أن يكون هذا العمل لوجهه الكريم، كما أسأله سبحانه أن
يجبر تقصيري وزلي، وأن يبارك في صوابه وأن ينفعني به وجميع من قرأه. وصلى
الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وآل بيته الطيبين الطاهرين، ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين برحمتك يا أرحم الراحمين.

الباحث/ د. محمد بن عبدالعزيز العواجي

تم تبييضه في ٢٠/١٠/١٤٢٧ هـ طيبة الطيبة

الوحدة الموضوعية للسورة

إن المتأمل في سورة الأحزاب يجد أن النبي ﷺ هو الموضوع الأساسي في سورة الأحزاب، فإذا قرأنا الآية الأولى من سورة الأحزاب نصل إلى أن شخصية النبي ﷺ والجانب الاجتماعي من حياته عليه الصلاة والسلام، هو الموضوع الأساسي في سورة الأحزاب، فقد خطب النبي ﷺ بقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ﴾ في خمس مواضع من السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُ إِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعْكُنَّ وَأَسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَاتِيَتِ أَجُورَهُنَّ...﴾، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُ وَبَنَاتِكُ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلَسِيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

فقد ركزت السورة على الجانب الاجتماعي من حياته ﷺ، هذا من جانب. ومن جانب آخر فقد تناولت هذه السورة قطعة حقيقية من حياة الأمة المسلمة في فترة من فترات نشأتها، وتُصوِّر السورة هذه الفترة من حياة المسلمين تصويراً واقعياً مباشراً، ولأن هذه السورة مدنية كما ذكر ذلك ابن عباس (١)، فإنها غنيّة بالأحداث التي وقعت في تلك الفترة، ومزدانة بالتنظييات التي شرعها الله أو أقرها في المجتمع الإسلامي الجديد من خلال آياتها المعدودة.

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٧/١٤٤). وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١/٧١٤)، والإتقان (١/١٠). والنحاس في النسخ والنسخ (٢/٥٨٢).

ولهذه الفترة التي تناولها السورة من حياة الأمة المسلمة سمة خاصة، فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في جميع شؤون الحياة. فالسورة تتولى جانباً من توضيح وتبيين المبادئ الإسلامية، وإبراز تلك المبادئ وتثبيتها في حياة الأسرة والأمة، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع، كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها، وإخضاعها في هذا كله للمنهج الإسلامي.

فتبدأ السورة ببعض الوصايا والتوجيهات التأسيسية، المتمثلة في تقوى الله والتحذير من إتيان الأعداء والأمر باتباع أوامر الله والتوكل على الله قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَأَتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾. وهذه التوجيهات كانت عبارة عن مقدمة لعرض نظام الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة والذي يخاطب كافة المجتمع.

ثم بعد ذلك ينبه الله ﷻ على تصحيح بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية مبتدأ بقاعدة حاسمة يقرر فيها حقيقة واقعية وهي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد، ولا يتبع أكثر من منهج واحد، وإلا نافق واضطربت خطاه، وما دام كذلك فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع منهجاً واحداً.

ثم بعد ذلك يبطل عادة الظهار ويشني بإبطال عادة التبني قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ أَلْفَىٰ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ وَلَا يُكَتَفَىٰ بِذَلِكَ بَلْ يَعْرُضُ فِي ثَنَائِهَا السُّورَةُ ۚ نَمُودَجًا تَطْبِيقِيًّا لِإِبْطَالِ التَّبْنِي، ويكون أول مطبق لذلك الحكم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

الذي تحمل الكثير من أجل البلاغ والتبيين. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

ولكن مع ذلك يستبقي ولاية النبي ﷺ للمؤمنين جميعاً وتقديمها على ولايتهم لأنفسهم قال تعالى: ﴿الِنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، كما ينشئ صلة الأمومة من حيث الاحترام والشعور بين أزواج النبي ﷺ وجميع المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

ثم يبطل آثار المؤاخاة التي تمت في أول الهجرة، ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ وبذلك يعيد تنظيم الصف المسلم على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداه من العادات الجاهلية أو التنظيمات الوقتية.

ثم بعد ذلك يبين الله تعالى نعمته على المؤمنين إذ رد عنهم كيد الأعداء والمهاجمين، ويتخذ في ذلك التصوير الحي لمشاهد المعركة، والمشاعر والباطنة والحركات الظاهرة والحوارات المختلفة قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾.

وبعد ذلك ينبه المؤمنين على حكمة ما وقع، ونقده لما فيه من خطأ وانحراف، وثناء على ما فيه من صواب واستقامة، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف وتنمية الصواب والاستقامة، وكشف المنافقين وأهل الغدر، وبيان ما وقع لهم نتيجة غدرهم.

وبعد استقرار الوضع يأتي الحديث عن حال النبي القائد ﷺ المنتصر في ميدان آخر من ميادين الجهاد، وهو ميدان الأسرة، فكما أن النبي ﷺ انتصر في ميدان

القتال فقد أعانه الله على أن ينتصر على رغبات زوجاته في التوسع في أمور الدنيا، فقد طلب منه زوجاته أن يوسع عليهن في ذلك ولكن ما كان للنبي الرسول ﷺ وهو القدوة أن يركن للدنيا، أو أن يكون من أزواجه وأهله من يتطلعون إلى الدنيا، فأمر الله نبيه بتخيير زوجاته، فما كان منهن إلا أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ولكن هذا الشرف له أعبائه، فجاءت عدة وصايا لأمهات المؤمنين لكي يرتقين بيت النبوة ويحافظن على ذلك الشرف وتلك المكانة. قال تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾... الآيات.

وليست زوجات الرسول ﷺ هي المأمورات بهذا فقط؛ بل كل النساء والرجال أيضا عليهم الالتزام بالصفات والمثل العليا التي تضمن لهم السعادة في الدنيا والآخرة، فجاءت الآيات تبين الصفات التي يجب على كل مسلم ومسلمة المحافظة عليها والاتصاف بها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾.

ثم يأتي الحديث عن قصة إبطال التبني والدور الكبير والصعب الذي قام به رسول الله ﷺ فيه، وبما أن هذا العمل أمر من الله تعالى لكي يقتدي الناس بالنبي ﷺ، يوضح الله تعالى حقيقة العلاقة بين رسول الله ﷺ وأصناف المدعوين، ومهام النبي ﷺ في أمته، فهو القدوة في جميع شؤون الحياة قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾... الآيات.

ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية في بيت النبوة فيبين بعض أحكام الطلاق، والنساء اللاتي أحلهن الله لنيه ﷺ، ويبين علاقة النبي ﷺ بزوجاته رضي الله عنهن.

ثم يشير إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي ﷺ وزوجاته في حياته وبعد وفاته، وذلك عن طريق تقرير مبدأ الاستئذان في الدخول على بيوت النبي ﷺ والآداب في ذلك، ثم أدب سؤال زوجات رسول الله ﷺ، ثم النهي عن زواج زوجات النبي ﷺ.

وبعد عرض الأدب مع رسول الله في بيته ومع أهل بيته يختص الله تعالى نبيه ﷺ بأدب وهو أمر المؤمنين بتمجيد رسول الله ﷺ والصلاة والسلام عليه، وتوعد الذين يؤذون الله ويؤذون رسول الله ﷺ، وأيضاً توعد الذين يؤذون من يطيع الله ورسله ﷺ.

ثم يأتي التعقيب على هذه التنبيهات بأمر أزواج النبي رضي الله عنهن ونساء المؤمنين بالحجاب لإبعاد الإيذاء عنهن وحرصاً على عدم إيذاء المؤمنين والمؤمنات. وفي ختام السورة يبين الله تعالى أسباب النجاة والهلاك يوم القيامة فيعرض أسباب الهلاك بتهديد الذين يرتكبون تلك الأسباب، وهم: المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة؛ بإغراء النبي ﷺ بهم وإخراجهم من المدينة كما حصل لبني قينقاع وبني النضير، أو القضاء عليهم كما حصل لبني قريظة، وهذا كله يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع المسلم بوسائل شريرة خبيثة.

ثم يعرض علاجاً لأسباب الهلاك؛ وهو التذكير والإنذار بالساعة، ودعوة الله عباده للنجاة، والبعد عن أذية الرسول ﷺ وأذية المؤمنين. ثم يذكر الله تعالى جزاء

الناجين الملتزمين شرع الله تعالى.

وينبه الله تعالى في نهاية السورة على أمر الأمانة وأن النجاة والهلاك مردهما إلى الأمانة والمسؤولية، تنبيهاً لنا أن كل الأوامر والنواهي التي جاءت في السورة وغيرها من سور القرآن قد حملناها نحن البشر وعلينا القيام بحق حملها وإلا حصل لنا الخزي في الدنيا والآخرة، وإذا قمنا بها يحصل لنا الفلاح في الدنيا والآخرة.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن لهذه السورة هدفٌ واحدٌ؛ عنوانه في أول آية من تلك السورة: وهو تقوي الله والتحذير من الأعداء والأمر بالإتباع أوامر الله ورسوله والتوكل على الله والتأسي بقدوة الأمة وإمام المرسلين ﷺ.

فالله نسأل أن يلهمنا العلم والعمل، وأن يوفقنا إلى ما يرضيه عنا، وأن يلهمنا الرشد والصواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وعنا ووالدينا ومشايخنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

الموضوع الأول

تصحيح

بناء أسس الأسرة المسلمة

الباب الأول

تصحيح أسس بناء الأسرة المسلمة

يركز البحث في هذا الباب على موضوع من موضوعات سورة الأحزاب والذي يتضمن بعض الوصايا التي يجب أن يبنى عليها المسلم بيته وأسرته، لتستقيم حياته على نور من الله، وذلك بعرض بعض الأحكام التي هي عبارة عن حل لمشكلات اجتماعية وقعت وتقع في كثير من المجتمعات بسبب الجهل بأحكام الله ورسوله فيها مثل: (متابعة المشركين والمنافقين، والظهار، والتبني، والطلاق)، وذلك وفق منهجية موضوعية علمية في البحث والاستنباط.

وقد قمت بتقسيم الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وصايا تأسيسية:

المبحث الأول: الأمر بتقوى الله ﷻ.

المبحث الثاني: التحذير من إتباع الأعداء.

المبحث الثالث: الأمر بإتباع دين الله تعالى.

المبحث الرابع: الأمر بالتوكل على الله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما هو التوكل على الله وكيف يكون؟

المطلب الثاني: فضل التوكل على الله والأمر به.

الفصل الثاني: أحكام الظهار والتبني:

المبحث الأول: أحكام الظهار:

المطلب الأول: ما هو الظهار؟

المطلب الثاني: قصة المجادلة في الظهار.

المطلب الثالث: حكم الظهر.

المطلب الرابع: أحكام كفارة الظهر.

المطلب الخامس: الحكمة من تحريم الظهر والتشديد في الكفارة فيه.

المبحث الثاني: أحكام التبني في الإسلام.

المطلب الأول: ما هو التبني؟

المطلب الثاني: قصة تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة.

المطلب الثالث: موقف الإسلام من التبني.

المطلب الرابع: نموذج تطبيقي لإبطال التبني.

المطلب الخامس: التعقيبات على قصة إبطال التبني.

الفصل الثالث: أحكام الطلاق والمطلقات:

المبحث الأول: أحكام الزوجة التي تطلق قبل البناء.

المبحث الثاني: أحكام أخري للطلاق.

الفصل الأول

وصايا تأسيسية

تمهيد:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

في هذه الآيات ينبه الله تعالى المجتمع الجديد في المدينة - قبل أن يذكر لهم ما ينظم حياتهم - إلى عدة توجيهات ووصايا يبني عليها القاعدة التي سينطلق منها هذا التوجيه، والتي سينطلق منها الأمر بتطبيق المنهج الذي سيضعه الله لهم، لمصلحتهم في الدنيا والآخرة.

إن هذه التوجيهات الأربع: الأمر بتقوى الله تعالى، والتحذير من إتباع الأعداء، والأمر بإتباع دين الله، والأمر بالتوكل على الله، هذه التوجيهات تمثل القاعدة التي يركز عليها المسلم في حياته - عموماً - والداعية إلى الله في دعوته - خصوصاً - لكي تتم حياته على أكمل وجه، وتقوم على منهاجها الواضح الصافي، وتظهر الفائدة منها، ويتم تحقيقها على أرض الواقع.

ولذا فقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾: "والمعنى: أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار.."^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١١٧).

"إنه قلب واحد فلا بد له من منهج واحد يسير عليه وإلا تمزق وتفترق وناقق والتوى ولم يستقم على اتجاه. فلا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين، ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر، ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث، فهذا الخليط لا يكون إنسانا سويا له قلب. ومن ثم فهو منهج واحد، وطريق واحد، ووحى واحد، وهو استسلام لله وحده، فالقلب الواحد لا يعبد إلهين، ولا يخدم سيدين، ولا ينهج نهجين"^(١).

فهذا الجزء من الآية ملخص للوصايا الأربع السابقة بأنه يجب علينا أخذ منهجنا من جهة واحدة وأن نتجه إلى الله وحده في كل الأمور، وأنه لا يوجد انفصال بين عقيدة وعبادة وشريعة، والحياة والعمل. ويبان تلك التوصيات على النحو التالي :

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٢٤).

المبحث الأول

الأمر بتقوى الله ﷻ

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾.

"ناداه جل وعلا بوصفه ﷺ، دون اسمه تعظيماً له وتفخيماً"^(١)، وقد ورد هذا النداء بهذا الوصف كثيراً في هذه السورة وفي غيرها من السور. واقتران الأمر بوصف النبوة دليل على أن الأمر جزء من ذلك الوصف، وملازم له فالتقوى من النبوة التي أرسل بها ﷺ، وكلف ببلاغها للناس، وليست مجرد وصف شخصي له ﷺ، ولا شك أنه هو أول المؤمنين المخاطبين بذلك، ولذا كان رسول الله ﷺ خير قدوة في هذا الباب، كما قال ﷺ: (أما إني أتقاكم الله وأخشاكم له)^(٢).

وعلى هذا فمن زعم أمراً يوصل إلى التقوى بزعمه ولم يكن عليه المصطفى ﷺ فقد زعم زوراً، وافترى بهتاناً، وأحدث في دين الله ما ليس منه، فضلّ وأضلّ والعياذ بالله.

والأمر بالتقوى ليس خاصاً بالنبي ﷺ فقط، وإنما هو لجميع الناس لأن التوجيه أيضاً لكل الناس وليس لرسول الله ﷺ فقط.

والنبي ﷺ أتقى الخلق وأخشاهم الله، كما جاء في الحديث، قال ابن كثير تعليقاً على هذا التوجيه بالتقوى: "فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله ﷺ بهذا - وهو

(١) روح المعاني (٧/١٤٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، صحيح مسلم كتاب الصيام باب

بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من تحرك شهوته (١١٠٨)

أتقى الناس - فلأن يأمر من دونه بذلك أولى وأحرى" (١).

والتقوى هي كما يعرفها طلق بن حبيب: "أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله مخافة عذاب الله" (٢).

إذا فالتقوى متعلقة بالقلب أي أعمال الباطن من الإخلاص والورع والخشية والتوكل... وعلامات تلك الأعمال القلبية تظهر في الواقع، فمثلاً: الإنسان الذي يتقي الله لا يقول إلا حقاً، ولا يظلم، ولا يخش إلا الله، ولا يتعلق بالأسباب أكثر من تعلقه بالله، ولا يركن للكافرين والمنافقين، ولا يتعدى حدود الله سواء مع نفسه أو داخل نطاق أسرته، أو في محيط مجتمعه... فإذا كان المسلم كذلك فهو قد حقق معنى التقوى في قلبه؛ بأن أقام دين الله في نفسه وأهل بيته وفي مجتمعه.

ولذا "كان أول توجيه في هذه السورة التي تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمجتمع المسلم هو التوجيه إلى تقوى الله، فتقوى الله والشعور برقابته واستشعار جلاله هي القاعدة الأولى، وهي الحارس القائم على التشريع والتنظيم" (٣).

فهذه علاقة التقوى ببناء الأسرة والمجتمع المسلم، فالتقوى هي الحارس الذاتي القائم على تطبيق التشريع والتنظيم الإلهي، فالإنسان الذي يرغب أن يتبنى من ليس له بولد، ويعلم أن الله تعالى أبطل التبني، فلا يمنعه من ذلك إلا تقواه لله تعالى وخوفه منه واستشعار مراقبة الله له.

فالتقوى هي الرقابة الداخلية لتنفيذ الأمر، وتجنب الحظر، وهي أبلغ رقابة عرفها التاريخ، فليس في النظم والمناهج البشرية بديل لها، والرقابة أساس من

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٧٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١٤٩).

(٣) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٢٢).

أسس الإدارة الناجحة.

وقس على ذلك في جميع التوجيهات والأحكام وخصوصاً التي تهتم بالأسرة والمجتمع تجد دائماً أن الله ﷻ يقرن التوجيه في تلك الأمور بالتقوى، كما في آيات الطلاق وعلاقة الرجل بزوجه وأولاده، فالذي يريد أن يظلم زوجته بأن يطلقها ويهضمها حقها، أو أن لا يهتم بتربية أولاده وأداء حقوقهم، يجد التقوى لله حارساً يمنع عن ذلك العمل، وذلك الحارس يحدوه إلى تمثل أمره والانتهاء عن نهيه.

المبحث الثاني

التحذير من إتباع الأعداء

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

ينهى الله ﷻ عبده ورسوله محمداً ﷺ عن طاعة أهل الهوى والشك من الكافرين والمنافقين، ومعنى الآية: "لا تسمع منهم ولا تستشرهم، فالله ﷻ أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله" (١).

وعلى غرار هذا التوجيه يأتي التحذير الدائم من الله تعالى في كتابه العزيز من أعداء الله في مواضع كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وهذا هو السبب في تحذير الله لعباده من طاعة الكفار والمنافقين، فإنهم يبعدون الناس عن دين الله ويوقعونهم في الظلال والخسران والكفر بالله تعالى.

دين الله ﷻ كامل لا نقص فيه، وشامل لكل زمان ومكان، وعالمي لكل الناس، فلماذا نبتغي غير منهج الله ونأخذ دين حياتنا ومماتنا من غيره؟! في الوقت الذي أثبت الله ﷻ أن دينه وصراطه هو الأصلح والأقوم لكل الناس في كل وقت وفي كل شيء.

"ويبقى ذلك النهي قائماً في كل بيئة وفي كل زمان، يحذر المؤمن أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقاً، في أمر العقيدة وأمر التشريع بصفه خاصة، ليبقى منهجهم خالصاً لله، غير مشوب بتوجيه من سواه. ثم لا ينخدع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة، - كما يسوغ بعض

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٧٥).

المسلمين لأنفسهم في فترات الضعف والانحراف - فإن الله هو العليم الحكيم وهو الذي اختار للمؤمنين منهجهم، وفق علمه وحكمته، وما عند البشر إلا قشور وقليل" (١) كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٢٢).

المبحث الثالث

الأمر بإتباع دين الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

بعد أن نبه الله تعالى على عدم إتباع الكافرين والمنافقين والحذر منهم، بين الله المصدر الذي يأخذ عباده منه التشريع والتنظيم والحكم، وهو الوحي المنزل على نبينا محمد ﷺ. وهو كتاب الله، الذي وصفه رسول الله ﷺ بصفات عظيمة: فعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: (كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغي الهدى من غيره أضله الله، هو جبل الله المتين، ونوره المين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، من قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم^(١).

(١) سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن (٥/١٧٢) (ت إبراهيم عطوه). قال الألباني في شرح الطحاوية ص ٧١: "هذا حديث جميل المعنى، ولكن إسناده ضعيف ولعل أصله موقوف، وقد ضعفه الترمذي نفسه". انظر الطحاوية (ص ٧١) السلسلة الضعيفة (١٧٧٦)، ضعيف الجامع (٢٠٨١) وقد أورده الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن في مقدمة تفسيره في ذكر فضائل القرآن (١/٥)، وكذلك احتج به شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع منها: مجموع الفتاوى (٣/٣١٤، ٦/٢١٢، ١٣/٢٨)، درء التعارض (١/٣٢)، الاستقامة (١/٢٠)، مقدمة في التفسير (١/٤٣)، وغيرها من المواضع.

"وفي أفراد الخطاب للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ وجمعه بما يشمله وأمته في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إيهاء إلى أن فيما سينزل من الوحي ما يشمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبي عليه الصلاة والسلام مشاركاً لبعض الأمة في التلبس بها، وهو حكم التبني إذ كان النبي متبنياً زيد بن حارثة من قبل البعثة" (١).

وفي قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: "بيان من أين يأتي التوجيه، وأن الوحي من عند الله هو المصدر الحقيقي بالإتباع، فالوحي: ﴿إِلَيْكَ﴾ بهذا التخصيص، والمصدر: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بهذه الإضافة، فالإتباع هنا متعين بحكم هذه الموحيات الحساسة، فوق ما هو متعين بالأمر الصادر من صاحب الأمر المطاع" (٢).

فيا ترى هل يربح ويفوز من نظر إلى غير هذا الوحي من الله تعالى!!؟
فهذا هو سبيل النجاة، وهو إتباع منهج الله تعالى المنزل على عبده سيدنا ونبينا محمد ﷺ، وهذا الإتباع يكون في كل أمور الحياة دينية ودينية، ولا يؤخذ منه شيء ويترك شيء آخر!! قال تعالى: ﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْمَةِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُم مِّنْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالله ﷻ عليم وخبير بأعمالكم هل هي على هدي رسول الله مما أوحى الله به،

أم لا؟!

(١) التحرير والتنوير (٢١/٢٥٢).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٨٢٢-٢٨٢٣) بتصرف.

المبحث الرابع

الأمر بالتوكل على الله تعالى

قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ﴿٣﴾.

أي: "اعتمد عليه في كل أحوالك، فهو الذي يمنعك، فلا يضرك من خذلك، وهو كاف لك ما تخافه من المشركين والمنافقين" (١).

وبيان ذلك في المطلبين التاليين:

المطلب الأول:

ما هو التوكل على الله وكيف يكون؟

"التوكل هو: اعتماد القلب على الله تعالى، وثقته به وأنه كافيه" (٢).

كيف ذلك؟

قال ابن عطاء: "التوكل ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدة فافتك

إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها" (٣).

إن "التوكل مركب من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب

بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا

أعطى، وصبره إذا منع" (٤).

فلا ينافي التوكل العمل بالأسباب قال عليه الصلاة والسلام: (اعملوا فكل

ميسر لما خلق له) (٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١١٦).

(٢) مختصر معارج القبول (ص ١٢).

(٣) مدارج السالكين (٢ / ١١٥).

(٤) مدارج السالكين (٢ / ١١٦).

(٥) صحيح البخاري كتاب القدر باب جف القلم على علم الله (٦٥٩٦). صحيح مسلم كتاب القدر باب

كيفية خلق الأدمي وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (ح ٢٦٤٨). مع اختلاف في لفظ

الحديث.

وسيرة النبي ﷺ تنبهنا على هذا الأمر، فعمل النبي ﷺ في الهجرة وأخذه بالأسباب، وعمله في معاركه وخطته فيها، وغير ذلك من المواقف يدلنا على أهمية الأخذ بالأسباب^(١).

يقول ابن القيم: "اعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به"^(٢).

ولكن على العبد أن لا يعلق قلبه بالأسباب ولكن يُعَلِّق قلبه بمسبب الأسباب، ويحسن الظن بالله تعالى، مع استسلام القلب لله تعالى، والرضا بقضاء الله تعالى وقدره، والقناعة بما يسره الله له.

المطلب الثاني:

فضل التوكل على الله والأمر به

إن كل إنسان يحتاج إلى التوكل على الله في جميع أموره، وخصوصا الداعية إلى الله تعالى، فهو في حاجة للتوكل على الله في رزقه، وفي دعوته، وفي المشكلات التي تواجهه، وفي الاستكبار والعناد الذي يواجهه، وفي تطبيق منهج الله في نفسه أو لا ثم في واقعه.

(١) انظر أحداث الهجرة: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٨٠-٤٨٦)، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٧٠)

وما بعدها. وما من غزوة من غزوات النبي ﷺ إلا وفيها بيان للتوكل على الله والعمل بالأسباب،

فلتراجع في كتب السنة والسيرة.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٩).

ولأهمية التوكل فقد جاء الأمر به والحث عليه كثيراً في كتاب الله وسنة

رسول الله:

فيقول الله تعالى أمراً بالتوكل: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدْءُ نُوْبٍ عِبَادِهِ حَبِيراً ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وفي بيان أن التوكل على الله هو من دلائل الإيمان به قال سبحانه: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

ويخبر الله تعالى أن التوكل عليه هو الطريق للنصر وسبب من أسبابه، قال تعالى: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وإن الله تعالى يخبر أن من يتوكل على الله فإنه يحفظه ويعينه وينصره، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [البقرة: ٢٥٠] فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وكان النبي ﷺ حريصاً على تعليم أمته أمر التوكل، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل، لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خصاصاً وتروح بطاناً)^(١).

(١) سنن الترمذي كتاب الزهد باب التوكل على الله (٢٣٤٤). سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب التوكل واليقين (٤١٦٤). مسند أحمد (٣٠ / ١)، صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣١٠ / ١) ح ٦٢٠.

وكان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت..)^(١).

وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: قول النبي ﷺ في وصفهم: (هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون)^(٢).

فهذه الآيات والأحاديث وغيرها من نصوص الشرع، كلها تنبهنا على أمر التوكل وربط الأمر كله بالله، ولا يتعلق الإنسان بنفسه، ولا بعمله، ولا بأحد من الخلق^(٣).

(١) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧١٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب الطب باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتوي (٥٧٠٥). صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة من غير حساب ولا عذاب (٢٢٠).

(٣) للاستزادة من هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ١٢٢ - ١٣٧).

الفصل الثاني

أحكام الظهار والتبني في الإسلام

تمهيد:

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِثْنًا أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۗ﴾.

بعد أن وضع الله ﷻ قواعد لتأسيس حياتهم على منهج سويٍّ من خلال الأوامر الثلاثة، ورابعها النهي، يبين سبحانه أن ذلك مقتضى حكمة الله في خلق الإنسان، وأنه لا يصلح له إلا ما شرعه الله له، كما أن الجسد لا يستقيم حاله إلا بقلب واحد هو ملك لتلك الجوارح، تتحرك بأمره وإليه ترجع كل أمورها، حيث هو مدار العقل ومؤثر على الفكر، ومن خلاله يتم إرسال الإشارات الإيجابية والسلبية، فكذلك لا محيد لكم عن شرع الله، ومن ظن أنه يسعه الخروج عن شرع الله وحكمه فقد أخطأ وجنى على نفسه وغيره الضرر العاجل في الدنيا قبل الآخرة، وما عند الله أشد وأنكى.

ولذا أعقب ذلك بمظهرين من مظاهر حياة المشركين وكيف ضلوا السبيل فيها وأتعبوا أنفسهم وتكلفوا ما لم يأذن الله به لهم، وهما: الظهار من الزوجات، وتبني ما ليس من ظهورهم بغير حق.

وإليك بيانها من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

أحكام الظهر

وهو من قضايا الأمة الاجتماعية، والتي لازالت حتى عصرنا الحاضر تشكل قضية مهمة في العلاقات الزوجية، وتتنوع صورها، وإليك بيانها من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول

ما هو الظهر؟

إن أول قضية عاجلتها هذه السورة العظيمة من قضايا فقه الشريعة الإسلامية، هي قضية الظهر^(١). قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تُمْشُونَ مِنْهَا أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

الظهر لغة: مشتق من الظهر، يقال: ظاهر الرجل من امرأته ظهاراً، وتظهر وتظاهر إذا قال لها: أنت علي كظهر أمي^(٢).

الظهار اصطلاحاً: "يعني قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، فهو يجرمها على نفسه كحرمة أمه عليه"^(٣).

قال ابن حجر رحمته الله في الفتح: "وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء، لأنه محل الركوب غالباً، ولذلك سمي الركوب ظهراً، فشبها المرأة بذلك لأنها مركوب الرجل"^(٤). وكان أهل الجاهلية يعتبرون هذه الكلمة طلاقاً أبدياً، وجاء الإسلام واعتبره يمينا له كفارة خاصة.

(١) انظر تفاصيل ألفاظ الظهر في المغني (١١/٥٤-١١٩)، المقنع والشرح الكبير والإنصاف (٢٣/٢٢٨-٢٤٠) وغيرها من كتب الفقهاء.

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/٣٦٤).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/١١٨)، انظر اللسان: (٤/٥٢٨).

(٤) فتح الباري كتاب الطلاق باب الظهر (٩/٤٣٢).

المطلب الثاني

قصة المجادلة في الظهر

وقد وردت حادثة على عهد رسول الله ﷺ تبين قضية الظهر وأنزل الله فيها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة وجعل السورة التي وردت فيها هذه الحادثة وأحكامها باسم القضية فسمى السورة: سورة المجادلة.

فنزلت الآيات في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت، قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١-٤].

وتأتي الرواية عن خولة ؓ تبين لنا سبب نزول هذه الأحكام، فعن خولة بنت ثعلبة ؓ قالت: "في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي.

قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا، والذي نفس خولة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم. قالت: فواثني وامتنعت منه، فغلبته بما

تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكوا إليه ما ألقى من سوء خلق. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: (يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه)، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه، فقال لي: (يا خولة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: (مريه فليعتق رقبة). قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق. فقال: (فليصم شهرين متتابعين) قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: (فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر) قالت: فقلت: يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: (إنا سنعيه بوسقٍ من تمر) قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعيه بوسقٍ آخر، قال: (فقد أصبت وأحسن، فاذهبي وتصدقني به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً) قالت: ففعلت" (١).

(١) مسند أحمد (٦/٤١٠ ح ٢٧٣٦٠). سنن أبي داود كتاب الطلاق باب الظهار (٢٢١٤، ٢٢١٥) ورواية

أبي داود مختصرة وقد حسنها الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢١٤).

المطلب الثالث

حكم الظهار^(١)

- ١- "أجمع العلماء على تحريم الظهار، فلا يجوز الإقدام عليه لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾.
- ٢- "فمتى شبه زوجته بمن تحرم عليه أو ببعضها إذا أراد الامتناع عن الاستمتاع بها فقد ظاهر من زوجته".
- ٣- "من قال لامرأته يا أختي ويا أُمي على سبيل التدليل والكرامة والتوقير فإنه لا يكون ظهاراً".
- ٤- "الظهار تحريم مؤقت للوطء إلى أن يُكفَّرَ، لا مؤبداً ولا طلاقاً، كما كان في الجاهلية".
- ٥- "الظهار يكون من الزوج فقط وليس من الزوجة لأن العصمة بيد الرجل، ويشترط أن يكون الرجل بالغاً عاقلاً مسلماً"^(٢).

(١) انظر أحكام الظهار بالتفصيل في: المنع، والشرح الكبير، والإنصاف (٢٣/ ٢٢٥-٢٥٠).

(٢) الملخص الفقهي (٢/ ٣٢٢) وفقه السنة (٢/ ٤٥٣-٤٥٥) وفتاوى اللجنة الدائمة ١٧٢/٢٠

المطلب الرابع

أحكام كفارة الظهر

١. "إذا ظاهر الرجل من امرأته ترتب على ظهره حرمة إتيان الزوجة حتى

يكفر كفارة الظهر، لقوله سبحانه: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾

٢. كفارة الظهر ليست على التخيير: وهي على الترتيب الوارد في الآية

والحديث:

أ- عتق رقبة.

ب - فإن لم يجد ما يعتق فيصوم شهرين متتابعين لا يفرق بين الأيام إلا لعذر

شرعي.

ج - فإن لم يكن يقدر على الصيام فيطعم ستين مسكيناً.

٣. إذا مس الرجل زوجته قبل التكفير فإن ذلك يحرم، والكفارة لا تسقط

ولا تتضاعف، وتبقى كما هي كفارة واحدة^(١).

المطلب الخامس

الحكمة من تحرم الظهر والتشديد في الكفارة فيه

يأتي شرع الله ﷻ المتمثل في أحكام الظهر- يعيد للمرأة كرامتها، ومكانتها، في ظل أسرة تنعم بمنهج ينظم ويُقوِّم حياتها، ويحفظ لها حقها، ويضمن لها سعادتها في دنياها وآخرها.

فهذه القضية الاجتماعية فيها قسوة على المرأة، وإهدار حقها الشرعي، وسوء عشرتها، وعدم الاعتراف بحقها الآدمي، وتنقص لقيمتها في المجتمع.

أراد الشارع ﷻ أن يرتقي بالمجتمع وأن يرتقي بالأسرة بالحفاظ عليها من الضياع في ظل منهج ينظم ويُقوِّم حياتها، ويحفظ لها حقها، ويضمن لها سعادتها في دنياها وآخرها.

فمن باب الحفاظ على كيان الأسرة والعلاقة الزوجية وحفظ البيت المسلم والأسرة والمجتمع من الضياع والتشتت فقد حرم الله سبحانه الظهر لأن فيه تحريم ما أحل الله، وفيه أذية للمرأة، وزور من القول والفعل لم يكلفهم الله إياه، بل مضرته غلبت مصلحته، ولذا لم يجعل الله فيه خيراً وبركة بل وصفه بالمنكر والزور نسأل الله العافية.

ومن الملاحظ أنه: "قد روعي في كفارة الظهر التشديد، محافظة على العلاقة الزوجية، ومنعا من ظلم المرأة، فإن الرجل إذا رأى أن الكفارة يثقل عليه الوفاء بها، احترم العلاقة الزوجية، وامتنع عن ظلم زوجته"^(١).

المبحث الثاني

أحكام التبني في الإسلام

قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ١٠١ ﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٢ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخِيفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ١٠٣ ﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ١٠٤ ﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَخَشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ١٠٥ ﴾ .

وسيكون الحديث عن موضوع التبني من خلال دلالة آيات السورة في

المطالب التالية:

المطلب الأول

ما هو التبني؟

التبني لغةً: من بنو الشيء يتولد من الشيء، اتخذه ابناً وهو ليس له با بن في الأصل^(١). ويقال: تبنيته أي ادعيت بنوته، وتبناه: اتخذته ابناً^(٢).

اصطلاحاً: كان الرجل منهم يتبنى ابن غيره فينسب إليه دون أبيه من النسب ويرثه، وهذا التبني نوع من أنواع المعاهدة^(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: "إن الله تعالى لم يجعل الموالى الذين تبنيتموهم أبنائكم، لأنهم لهم آبائهم، فلا يمكن أن يكون للمرء أبوان. ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ: هذا القول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر قلبان"^(٤).

"فقد كان من عادة الجاهلية أن الرجل إذا أعجبه غلام جعله ابناً له ويصبح من أولاده وينسب الولد إليه، ويرث الولد من المتبني، ويكون له حقوق البنوة ودخوله في العائلة والتكافل في الديات، وعلى هذا كانت العرب تحرم أن يتزوج الرجل مطلقة متبنيه"^(٥).

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾: أي: "والله يقول اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه، على قوله وشرعه، فقوله حق وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته، لأن الله ﷻ لا يهدي إلا إلى الطريق الحق المستقيم"^(٦).

(١) تفسير الرازي (٥/١١).

(٢) لسان العرب (٩١/١٤).

(٣) معجم لغة الفقهاء (١٠٠) بتصرف.

(٤) تفسير ابن كثير (٦/٣٧٦).

(٥) في ظلال القرآن (٥/٢٨٢٥).

(٦) تفسير السعدي (٦٠٦).

المطلب الثاني

قصة تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة

قال القرطبي في تفسير هذه الآية ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾: "أجمع أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في زيد بن حارثة"^(١).

هذا الصحابي الجليل من قبيلة كلب، وفي بعض السنين أغارت عليها قبيلة تهامة، فنهبت وسبت، وكان من السبي صبي صغير هو زيد بن حارثة بن شرحبيل ؓ، وكان من فضل الله عليه أن بيع لحكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه حكيم لعمته خديجة ؓ ثم وهبته هي لرسول الله فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه، وأصبح في الناس يدعى زيد بن محمد، وفي بعض المواسم ذهب أبو زيد يبحث عنه في الحج في مكة مصطحبا معه أحد إخوته، وهناك في الموسم ظل يسأل حتى دله بعض الناس على ابنه زيد، فذهب هو وأخوه إلى بيت النبي ﷺ، وذلك قبل بعثته وطلبا منه أن يرد عليهما زيدا، فقال لهما رسول الله ﷺ: (خيراه فإن اختار والده فخذوه وإن اختارني فاتركوه لي) فلما خيرا زيدا اختار محمدا ﷺ، فلما أبوه لكنه تشبث بذلك الإنسان الكريم.

وظل زيد عند رسول الله يدعو الناس زيد ابن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ فدعى زيد بن حارثة باسم والده فحزن لفقدان ذلك الشرف، شرف الانتماء إلى محمد ﷺ^(٢).

فعن عبدالله بن عمر ؓ عن أبيه أنه كان يقول: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل في القرآن: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١١٢).

(٢) موطأ مالك (٢ / ٥٧٩ رقم ٦٢٦)، المستدرک علی الصحیحین (٢ / ٢٣٥ رقم ٤٩٤٧)، وانظر: القصة وسيرة الصحابي في سير أعلام النبلاء (١ / ٢٢٠)، وقد أخرجها ابن حجر في الإصابة (٢ / ٥٩٩) ولم يعلق على القصة غير أنه قال أخرجها ابن إسحاق في السيرة، وابن الأثير في أسد الغابة (١ / ٣٩٥).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ح (٤٧٨٢). صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد (ح ٢٤٢٥).

المطلب الثالث

موقف الإسلام من التبني

يتلخص موقف الإسلام من التبني في النقاط التالية:

١- كان التبني معمولاً به في الجاهلية وفي بادئ الإسلام، يتوارثون به، ويتناصرون، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ما كنا ندعوه إلا زيد ابن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ...﴾". فهذا دليل أنه كان معمولاً به في بادئ الإسلام.

٢- ثم أبطل الله أمر التبني بقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي "انسبواهم إلى آبائهم الحقيقيين هو أعدل عند الله وفي دينه وفي شرعه"^(١). فقد أمر الله تعالى ببرد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط"^(٢).

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس من رجل ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى قوماً ليس له فيهم نسب فليتبوا مقعده من النار)^(٣).

٣- يقول ابن كثير: "فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نهى عنه في الآية"^(٤). بدليل ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على حمرات لنا من جمع، فجعل يلطخ

(١) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٧٩).

(٣) صحيح البخاري كتاب المناقب باب (٥) (ح ٣٥٠٨). صحيح مسلم كتاب الأيمان باب بيان حال من

رغب عن أبيه وهو يعلم (٦١) وفيه زيادة.

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٧).

أفخاذنا ويقول: (أُبَيِّنِي لَا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ) ^(١)، فسماهم ﷺ أبناءه مع أنهم أبناء عمومته ﷺ.

وقد بوب الإمام مسلم في كتاب الأدب من صحيحه باباً بعنوان: [جواز قوله لغير ابنه: يا بني واستجابته للملاطفة] وذكر فيه حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا بني..). ^(٢).

٤ - فَإِنْ جُهِلَ أَبُوَاهُ فَمَا الْحَكْمُ؟

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ "فأمر تعالى برد أنساب الأعدياء إلى آبائهم فإن لم يعرفوا آبائهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي عوضا عما فاتهم من النسب" ^(٣).

"فإن لم يكن له أب معروف نسبه إلى ولائه، فمن لم يكن له ولاء معروف، قيل له يا أخي: يعني في الدين قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ^(٤)، فقد قال النبي ﷺ لزيد: (أنت أخونا ومولانا) ^(٥).

ويلفت الانتباه في هذه الآية قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ﴾ هذا المقطع من الآية: "يصور الله لنا فيه حقيقة الخلخلة في المجتمع الجاهلي، وحقيقة

(١) مسند أحمد (٣١١/١)، سنن أبي داود كتاب المناسك باب التعجل من جمع (١٩٤٠)، وابن ماجه كتاب المناسك باب من تقدم من جمع إلى منى لرمي الجمار (٣٠٢٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٧١٠)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢٤٥١).

(٢) صحيح مسلم كتاب الأدب باب جواز قوله لغير ابنه: يا بني واستجابته للملاطفة (٢١٥١).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٧٨ / ٦).

(٤) النحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٨٣/٢)، القرطبي في تفسيره (١١٩/١٤).

(٥) صحيح البخاري كتاب الصلح باب: كيف يكتب هذا ما صلح فلان بن فلان (٢٦٩٩).

الفوضى في العلاقات الجنسية، هذه الفوضى التي عاجلها الإسلام بإقامة نظام الأسرة على أساس الأبوة، وإقامة نظام المجتمع على أساس الأسرة السليمة^(١).
 فإن في المجتمع الذي يكثر فيه الزنا، والبيع والشراء للإنسان، وغارات النهب والسلب والحروب، ليس بغريب أن لا يعرف الرجل أباه فيه. بل ليس بغريب ألا يعرف وطنه وأهله، فنحمد الله على نعمة الإسلام، التي أنعم الله بها علينا فأصبحنا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].
 فهذه هي كرامة الإنسان التي كرمه الله بها عن سائر المخلوقات. والله المستعان.

٥- لو نسب إنسان إلى غير أبيه خطأ فهل عليه شيء؟

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: "إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ - بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله قد وضع الحرج ورفع الإثم"^(٢).

٦- لما نسخ الله حكم التبني أباح تعالى زوجة الدَّعي: فتزوج النبي ﷺ زينب

بنت جحش ﷺ؛ مطلقة زيد بن حارثة ﷺ.

والمقصود هو أن من كان نسبه على غير الحقيقة فإن ذلك النسب يَبْطُلُ وَيَحْزُمُ، ويحرم كل ما ترتب عليه سواء من جهة المحرمية أو النكاح، أو وجوب النفقة والرعاية، وغير ذلك.

ولأن أشهر المسائل وأعظمها في نفوس أهل الجاهلية هي الزواج من مطلقة

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٩).

المتبني، ضرب الله لنا مثلاً عملياً ليجتث تلك المسائل غير العادلة من جذورها ويربي نفوس عباده من المؤمنين والمؤمنات على الامتثال لأمره وشرعه مهما خالف العادات السائدة في المجتمع مهما كانت، ما لم يؤدي ذلك إلى مفسدة أكبر منها، أو ترك ما هو أوجب والعياذ بالله تعالى، على تفاصيل يذكرها أهل العلم في قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودرجات ذلك، وليس هذا موضع بسطها.

المطلب الرابع

نموذج تطبيقي لإبطال التني

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٧٩﴾﴾

ولما كانت عادة التني مسلمة عند العرب وغيرهم وأراد الله إبطالها؛ اختار الله لذلك الأمر وهياً الأسباب ليكون المعلم الأول ﷺ هو قدوتهم بنفسه في ذلك الأمر، فكانت قصة زيد ﷺ المذكورة في هذه الآيات.

فأراد الله ﷻ أن يبطل حكماً من أحكام الجاهلية، وهو حرمة زواج الولي من مطلقة متبنيه، أوحى الله تعالى إلى نبيه بذلك، وقد حصلت مشاكل بين زيد وزوجته زينب ﷺ فطلقها زيد، فتزوجها رسول الله ﷺ بأمر من الله، بعد انقضاء عدتها، وكان هذا الزواج تشريعاً للأمة الإسلامية: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ "يقول تعالى مخبراً عن نبيه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال لمولاه زيد بن حارثة ﷺ؛ وهو الذي أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، فكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى النبي ﷺ، يقال له: الحب، ويقال لابنه أسامة ﷺ: الحب ابن الحب.

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، قال مقاتل: فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ^(١).

وقد وردت في هذه الآية روايات منها:

عن علي بن الحسين رحمهما الله: "أن النبي ﷺ قد أوحى الله تعالى إليه، أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، وهو يعلم أنه سيفارقها، ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفاه النبي ﷺ في نفسه قال تعالى: ﴿وَنُخِّفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فلم يرد النبي ﷺ أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد - وهو مولاه - وقد أمره الله بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له فقال تعالى: ﴿وَنُخِّفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ نُخِّشَهُ﴾.

قال القرطبي بعد إيراده لهذه الرواية: "وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين في العلم" ^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٩٠)، وتفسير الثعلبي (٨/ ٤٨). وهذه الرواية ذكرها ابن جرير

(١٩/ ١١٦)، وابن كثير (٦/ ٤٢٠) والحكيم الترمذي (٢/ ١٨٦) بنحوه.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ "الوتر: هو الحاجة. أي: لما فرغ منها وفارقها، وزوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ من غير ولي ولا عقد ولا شهود^(١)^(٢)."

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها علي). فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما استطعت أنظر إليها لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونقصت على عقبي^(٣)، فقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن...^(٤)).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: "زوجكن أهليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات"^(٥).

(١) زواج النبي ﷺ زينب من غير ولي ولا شهود من خصائصه ﷺ وهذا ما عليه جمهور العلماء، ذكره النووي في شرح صحيح مسلم (٢٢٩/٩-٢٣٠). وأيضا زواجه من غير عقد من خصائصه صلى الله عليه وسلم وهذا عليه جمهور العلماء، كما حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٩٣). ويمكن مراجعة المسألة والأقوال فيها في كتاب: خصائص الرسول في الزواج لعيسى بن عواض العضياني (٧٠-٨٤). وكتاب غاية السؤل في خصائص الرسول (٢٠١). وقد زاد ابن كثير أن النبي لم يتزوجها بمهر ولم أجد ما يشهد لقول ابن كثير في هذه المسألة والله تعالى أعلم.

(٢) تفسير ابن كثير (٤٢٥/٦).

(٣) نقصت على عقبي: إذا أخذ في وجه ثم انثنى. والتعقيب: أن ينصرف من أمر أرادته، انظر: لسان العرب (٦١١/١).

(٤) صحيح مسلم كتاب النكاح باب زواج زينب بنت جحش (١٤٢٨).

(٥) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء (٧٤٢٠).

المطلب الخامس

التعقيبات على قصة إبطال التبني

التعقيب الأول: السبب في تزويج النبي ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ "أي: إنما أبحننا لك تزوجها وفعلنا ذلك، لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزوج مطلقات الأعداء، ولهذا قال الله تعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. ليحترز من الابن الدعي فإن ذلك كان كثيرا فيهم" (١).

التعقيب الثاني: أمر الله وحكم الله فوق أي اعتبار وهو حاصل ونافذ لا محالة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ "أي: كان قضاء الله نافذا وكائنا لا محالة" (٢).

التعقيب الثالث: رد على هؤلاء الكافرين والمنافقين الذين يريدون أن يشككوا ويعكروا صفو الماء ليلبسوا الحق بالباطل فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ "أي: ما كان على النبي من إثم وذنوب فيما قدر الله عليه من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله له كما أباحه للأنبياء قبله" (٣).

ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ "هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٢٦).

(٢) من موضوعات سور القرآن الأحزاب (١١٦).

(٣) تفسير السعدي (٦١٤).

توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه، الذي كان قد تبناه" (١).
 التعقيب الرابع: كل شيء بقضاء الله وقدره، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: أن أمر الله مقدر وواقع لا محالة.

التعقيب الخامس: يصف الله سبحانه أنبياءه الذين جرت عليهم هذه السنن بالقوة في الحق والأمانة وتحقيق العبودية له وحده دون سواه بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ "فلا يحسبون للخلق حساباً فيما يكلفهم الله من أمور الرسالة، ولا يخشون أحداً إلا الله الذي أرسلهم بالرسالة للعمل والتنفيذ" (٢).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما منعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق أن يخشى) (٣).

التعقيب السادس: الأمر لله من قبل ومن بعد، فهو الذي يحاسب، وهو الذي يجازي على الإحسان أو الإساءة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: "أي: محاسباً عباده مراقباً أعمالهم" (٤).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٢٧).

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٠).

(٣) مسند أحمد (٣ / ٣٠)، إسناد الحديث ضعيف من هذه الرواية، لوجود انقطاع في السند، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه ح (٤٠٠٨)، وقد أورد الإمام أحمد رواية أخرى إسنادها صحيح على شرط مسلم، ولكن باختلاف في اللفظ وهي (لا يمنعن أحدكم هيبة الناس أن يقول في حق إذا رآه، أو شهده أو سمعه) (٣ / ٥) برقم (١١٠١٧). انظر الموسوعة الحديثية - مسند أحمد - ت. شعيب الأرنؤوط

-(١٧ / ٣٥٧، ٦١).

(٤) تفسير السعدي (٦١٤).

فأسند الله تعالى الحساب لنفسه دون سواه من الخلق والمعبودات من دونه، فإن هؤلاء - وإن حاسبوا وقالوا - لا يمكن أن تكون محاسبتهم وقولهم وحكمهم عن علم وإحاطة كما في محاسبة ربنا ﷻ، ولذا فإن الرد عليه: أن يخشى الله وهو كافيه لأنه العالم المطلع المحيط بكل أحوال الناس وأمورهم، ولم يترك ذلك سبحانه لأحد من خلقه مهما كان فإن إطلاعهم محدود بحسب ما يأذن الله به لهم، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن آرَتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدَّ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

ومن هنا يجب على المسلم أن يراقب الله، ويخشى حسابه، ويعد للسؤال جواباً، وأما الخلق وكلامهم وتخويفهم فلا يضر المؤمن شيئاً، إذا علم أن حسابه عند الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

الفصل الثالث

أحكام الطلاق والمطلقات

تمهيد:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ۚ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١١﴾﴾.

ينبه الله ﷻ عباده امتداداً للتوجيهات والتنظيمات المتقدمة في هذه السورة الكريمة على أمر من الأمور التنظيمية للحياة الزوجية، فإذا انتهى هذا العقد على شرع الله كما بدأ على شرع الله، صلح بذلك المجتمع.

وبهذا يثبت الله قاعدة بناء المجتمع على أسس العدل والبناء، ذلك أن الأسرة هي أصل صلاح المجتمع فإذا فسدت الأسرة فسد المجتمع، وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، حتى ولو كان الركنان في الأسرة منفصلين بالطلاق!!! وذلك لأن كلاً من المطلقين يعرف ما عليه وما له من حقوق، ويقوم بها على ما أراد الله تعالى امتثالاً لأمر الله فيحصل بذلك الخير للمنفصلين، وإن كان لهما أولاد فسيقل الضرر الواقع والخطر القادم عليهم بدون أسرة كاملة. قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

والطلاق هو: حلُّ رابطة الزواج، وإنهاء العلاقة الزوجية^(١).

والخطاب هنا موجه للنبي ﷺ، وهو أمر للمؤمنين عامة، فالنبي ﷺ قدوتهم وقائدهم إلى كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة.

ويمكن إجمال أحكام الطلاق من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول

أحكام الزوجة التي تطلق قبل البناء^(١)

١- المطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدة عليها، فإن دخل بها فعليها العدة إجماعاً، كما في الآية.

والعدة هي: الفترة التي تبقى المرأة المطلقة فيها بدون زواج^(٢) قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

"فيخبر الله تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة تعتدها أزواجهن، وأمرهم بتمتعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً، من غير مخاصمة ولا مشامة، ولا مطالبة ولا غير ذلك"^(٣).

٢- الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح - وهو العقد الشرعي - لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، ولقوله ﷺ: (لا طلاق قبل نكاح)^(٤)، وعلى هذا فإن الرجل إذا قال لامرأة لم يعقد عليها: إذا نكحتك فأنت طالق. فلا يقع الطلاق.

(١) ملخص من تفسير الكريم الرحمن لآيات الطلاق، في كل من سورة البقرة، والنساء، والأحزاب، والطلاق. (بتصرف). وانظر كتاب الطلاق في: الملخص الفقهي (٢/ ٣٠١-٣١٨)، وفقه السنة (٢/ ٢٩٨-٢٣٠)، فتاوى معاصرة وزارة الأوقاف المصرية (١/ ٩٣). وسبل السلام (٨٨٣-٩٥٢).

(٢) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ١٢٦).

(٣) تفسير السعدي (٦٦٨).

(٤) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٢٢٢ ح ٢٨٢٠). وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه كتاب

الطلاق باب لا طلاق قبل النكاح (ح ٢٠٤٩).

٣- المطلقة التي لم يدخل بها، تعطى شيئاً من المال بحسب حال الزوج، وما تجود به نفسه، يسمى (المتعة) وذلك إذا لم يسم لها مهراً، قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ التَّوَسُّعِ قَدْرُهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

يقول الإمام السعدي رحمته الله: "وهذا المال الذي يعطى لهن هو عبارة عن جبر لخواطرهن، فكما تسبوا لتشويقهن واشتياقهن، وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهن في مقابل ذلك المتعة، فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارعه ورحمته" (١).

"ولهذا العمل قيمته النفسية بجانب كونه نوعاً من التعويض، فإن انفصام هذه قبل ابتدائها ينشئ جفوة ممضية في نفس المرأة، ويجعل الفراق طعنة عداة وخصومة، ولكن هذا التمتع يذهب هذا الجو المكفهر، وينسم فيه نسيات من الود والمعذرة ويخلع على الطلاق جو الأسف والأسى" (٢).

ويرجع في تحديد مقدار هذا المال بالعرف، ووضع المطلقة والمطلق الاجتماعي، كما في نص الآية: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ التَّوَسُّعِ قَدْرُهُ﴾ أي: على الغني بحسبه، ﴿وَعَلَىٰ الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ أي: وعلى الفقير المسكين بحسبه ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: حسب ما يقدر ويمكن كل منهما ولا يشق على معيشته في ذلك، ف(لا ضرر ولا ضرار) (٣)، كما أنه بالمعروف أي: بلا منٍّ ولا أذية لكل منهما وحسب ما يتعارف الناس عليه في كل مجتمع وزمان، ما لم يخالف وصف الشارع في الآية والحديث، وكلام أهل العلم في ذلك ليس هذا موضعه.

(١) تفسير السعدي (٨٧).

(٢) في ظلال القرآن (١/٢٥١) بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣١٣ ح ٢٨٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٢/٨٢ ح ١٣٨٧)، والبيهقي في السنن (٦/٦٩ ح ١١١٦٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠)، وانظر الإرواء (٧/٢٣٤).

٤- المطلقة إذا سمي لها مهرأ، ولم يدخل بها، فتستحق نصف ذلك المهر المسمى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧] سواء كتب في العقد أم لا.

"العافيات في هذه الآية كل امرأة تملك أمر نفسها وكن بالغات عاقلات راشدات، أما التي في حِجْر أب أو وصي فلا يجوز وضعها لنصف صداقها قولاً واحداً، والعافون هنا: اختلف فيهم هل هو الزوج؟ أو ولي المرأة؟ فالصحيح من كلام الشافعي وغيره أنهم الأزواج.... والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ خطاب للرجال والنساء كما قال ابن عباس" (١).

وعلى هذا فالتوجيه بالعفو والتنازل للرجال والنساء وهذا "التنازل هو تنازل الإنسان الراضي العفو والسمح، الذي يعفو عن مال إنسان قد انفصمت منه عروته، ومع هذا فإن القرآن يلاحق هذه القلوب كي تصفو وترف وتخلوا من كل شائبة: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيلاحقها باستجاشة شعور التقوى، ويلاحقها باستجاشة شعور السباحة والتفضيل، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله... ليسود التجميل والتفضل جو هذه العلاقة ناجحة كانت أو منقطعة، ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية موصولة بالله في كل حال" (٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٠٥-٢٠٨) مختصراً، وراجع بسط المسألة في كتب التفسير والفقهِ للاستزادة.

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٢٥١) مختصراً.

المبحث الثاني أحكام أخري للطلاق

للنساء اللاتي طلقهن أزواجهن بعد الدخول بهن أحكام كثيرة ذكرها الله ﷻ في غير هذه السورة، ونذكرها لإكمال الصورة، ونجملها في عدة نقاط:

- ١- إذا كانت المطلقة من ذوات الحيض فعدتها ثلاث حيض، قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ [البقرة: ٢٢٨].
- ٢- في هذا الوقت - أي في فترة العدة - يجوز للزوج أن يراجع زوجته: ﴿وَيُعَوِّظُهُنَّ أَحَقُّ بِرِدَّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]. هذا في الطلاق الرجعي أي بعد الطلقة الأولى والثانية فقط.
- ٣- المطلقة الحامل عدتها أن تضع حملها، قال تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

- ٤- المطلقة التي لا تحيض لكبر السن أو لصغر السن فعدتها ثلاثة أشهر، قال تعالى: ﴿وَأَلَّتِي يَيْسَّرْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، ويلحق بهن من انقطع حيضها لمرض أو غير ذلك.
- ٥- العلة والحكمة في فرض تلك العدة: "إنما هي استبراء للرحم من الحمل، وتأكد أنها خالية من آثار الزواج السابق، كي لا تختلط الأنساب، ولا ينسب إلى رجل ما ليس منه، ويسلب رجل ما هو منه في رحم المطلقة، فأما في حالة عدم الدخول فالرحم بريئة، ولا عدة إذا ولا انتظار"^(١).

- ٦- الطلاق الذي تحصل به الرجعة "مرتان"، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإذا اقترنت العدة على الانتهاء فإما أن يراجع الزوج زوجته بمعروف، أو يفارقها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] أي: قاربن بلوغ

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٥) بتصرف، وانظر كلام العلماء في ذلك في كتب الفقه مثل فقه

الأجل، وهو قيد يفيد انتهاء الوقت المأذون فيه للرجعة بلا عقد جديد ومهر جديد.
 ٧- فإن انقضت العدة ولم يراجع زوجته، ثم أراد أن ينكحها مرة أخرى، ورضيت هي بذلك فيجوز أن ينكحها بعقد جديد ومهر جديد، ولا ينبغي للأولياء أن يمنعوها من ذلك: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٨- إذا طلقها الطلقة الثالثة: فإنها لا تحل له، بل تحرم عليه سواء كانت في عدتها أو انقضت، قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. فإذا تزوجها رجل آخر عن رغبة، من غير قصد التحليل، ثم طلقها، فإن الزوج الأول يجوز له أن يتزوجها بعقد جديد وصادق جديد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

٩- المرأة إذا طلقت طلاق رجعة وجب لها على زوجها المطلق: حق السكنى والنفقة، لأنها لا تزال زوجته وعلى ذمته، ولا يزال العقد سارياً ما لم تنقض عدتها قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

١٠- أما المطلقة طلاقاً بائناً فليس لها السكنى ولا النفقة^(١) لأنها بانة من زوجها بمجرد الطلقة الثالثة وبقي عليها العدة، فإن كانت حاملاً فلها النفقة حتى تضع الحمل، ولها الأجرة على الرضاعة: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولِي حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُدٍ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

(١) وهذا على خلاف بين أهل العلم، انظر: فقه السنة (٢/ ٣٢١)، والمختص الفقهي (٢/ ٣٥٧).

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

الموضوع الثاني

غزوة الأحزاب

وقوة الامتحان

الباب الثاني

غزوة الأحزاب وقوة الامتحان

في سورة الأحزاب يعرض الحق ﷺ لنا حدثاً من الأحداث العظام في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الدعوة الإسلامية، ويصف هذا الحدث موقفاً من أعظم مواقف الابتلاء والتمحيص في صف الأمة الإسلامية، ويكشف عن القلوب المريضة ويحدثها بما في قلوبها من مرضها ونفاقها.

ثم يعرض لنا ﷺ نتائج ذلك الحدث العظيم والاختبار المبين، ليوقفنا على حقائق مهمة يجب أن تكون موجودة عند أصحاب الدعوات ليلتزموا المنهج القويم في حياتهم كلها، وخصوصاً في سيرهم في الدعوة وتبليغ دين الله. هذا الحدث العظيم هو: (غزوة الأحزاب)^(١)، التي كانت فتحاً عظيماً للدعوة الإسلامية الناشئة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة إلى الله في العهد المدني.

ففي هذا الباب نقف عند أحداث تلك الغزوة من خلال العرض القرآني لها لنأخذ العظة والعبرة، ولتكون نبزاً لنا في دعوتنا وفي نشر دين الله تعالى للعالمين.

وقد قسمت الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أحداث الغزوة وقد تضمن تمهيدا ومبحثين:

تمهيد: حديث القرآن عن غزوة الأحزاب.

(١) الحزب: جماعة الناس، والجمع أحزاب، وحزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه، وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب، والأحزاب هنا: جنود الكفار تألبوا وتظاهروا على حرب النبي ﷺ، وهم قريش وخطفان وبنو قريظة. انظر: لسان العرب (١/٣٠٨).

المبحث الأول: تأملات في آيات سورة الأحزاب.

المبحث الثاني: أحداث الغزوة.

الفصل الثاني: قوة الابتلاء والامتحان: وقد تضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: يصف الله تعالى شدة المعركة بعدة صور.

المبحث الثاني: الابتلاء كان بعدة أمور.

المبحث الثالث: دور المنافقين في الإرجاف بين المؤمنين في المعركة.

المبحث الرابع: ذكر صفات المنافقين في الآيات.

الفصل الثالث: نتيجة الامتحان وقد تضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: الاقتداء بالنبي ﷺ وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بماذا نقتدي برسول الله من خلال الغزوة؟

المطلب الثاني: الرسول ﷺ القائد.

المطلب الثالث: صفات الذين يقتدون برسول الله ﷺ.

المبحث الثاني: تميُّز الصف.

المبحث الثالث: نتيجة الصبر والبلاء.

المبحث الرابع: نتيجة الغدر.

الفصل الأول

أحداث الغزوة

تمهيد في: حديث القرآن عن غزوة الأحزاب

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٣﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مَبْنِيَّةٌ يَأْتِيهِمُ الْيَهُودُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مَبْنِيَّةٌ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿٦﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ ۗ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿٧﴾ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَسْجُدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۗ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١﴾ مَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ

كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
 كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا
 هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا
 ﴿١٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ
 مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
 الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا
 ﴿١٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
 الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾

المبحث الأول

تأملات في آيات غزوة الأحزاب

يبدأ ربنا في وصف الغزوة لنا في القرآن بعرض شدة الامتحان الذي واجهه المسلمون ورسول الله في تلك الغزوة، فيقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

فقد تكالب عليهم أهل الكفر من كل مكان، وحاصروهم حصاراً شديداً قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٢﴾﴾ ولكن بسبب ثبات المؤمنين وصبرهم، ويقينهم بوعد الله، جعل الله سبحانه وتعالى لهم بعده نصراً وفتحاً كبيراً.

ولأن الشيطان تعهد لرب العالمين بإضلال بني آدم وإغوائهم، فقد ظهر هذا الأثر في غزوة الأحزاب، فذكر الله صورة وحال وفعل وقول الضالين في هذا السبيل، بأقبح صورة ليستحضرها العبد المؤمن وينفر منها ومن حالهم وأفعالهم بل وأقوالهم ولا يستجيب لإغراء الشيطان وتزيينه للعبد عند الامتحان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴿٤﴾ وَدَسْتَدِينُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿٦﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿٧﴾﴾ قُلْ

لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾
 قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ
 لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ
 لِإِحْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
 رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ
 الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ
 أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ تَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ
 الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ
 كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

وفي مقابل هؤلاء الذين أغواهم الشيطان، فئة قد تجنبت الغواية وسلكت
 سبيل ربها، فوصف الله بصورة مهيبية حال المؤمنين وما بلغ بهم من شدة البأس
 والضر والخوف والحزن والجوع، لكن ذلك لم يخرجهم عن أمر الله وطاعته بل
 زادهم إيماناً، حتى لا تكل نفوس المؤمنين بعد ذلك من الصبر والدعاء والثبات،
 فأصبحوا كالجبال الراسيات لا يضرها الهواء والعواصف ولا الرعود والأمطار،
 بل تحولها إلى جمال باهر وكذلك المؤمنون الصادقون لا يزيدهم البلاء إلا صبراً
 وثباتاً بما هم عليه من الحق، ولذا يحول الله لهم الحق فتحاً ويزيدهم من فضله،
 وهو الغني عنهم ﷺ إنما يبتليهم ليكرمهم ويرفع قدرهم في الدنيا ودرجاتهم في
 الآخرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
 وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا
 وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٧﴾ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن

يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٢﴾

ثم يذكر الله تعالى مصير هؤلاء ومصير هؤلاء، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿١٣﴾﴾

وأيضاً ذكر الله تعالى ما حصل للغادرين والخائنين من يهود بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٤﴾ وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٥﴾﴾

فبعد الشدة والامتحان يأتي النصر، والاستخلاف في الأرض، ولكن لا بد من الابتلاء قبل التمكين، وذلك ليغتر المؤمن بالله ويسلك سبيل الناجين بالافتداء بهم في أوصافهم وأفعالهم وأقوالهم، وليكونوا نموذجاً يقتدي به من أراد النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة، ولتكون صورتهم حاضرة في الذهن فتكون تلك الصورة خير معين له على اتخاذ الموقف الصائب والقرار السليم وشرب الدواء الناجح بإذن الله تعالى وحوله.

ولتأمل هذا المعنى أكثر؛ تأمل الآيات وقرأها مرة بعد أخرى.

فسبحان من أودع هذه المعاني العظيمة التي يعجز القلم عن التعبير عنها، والنفس تعجز عن وصفها في هذه الكلمات والجمل المعدودات، إنها نقش في جدار الزمن تشهد لمحمد ﷺ وأصحابه الكرام الأطهار بالصدق والإيمان والثبات، نسأل الله أن لا يجرمنا من الحشر في زمريتهم.

المبحث الثاني

سرد أحداث الغزوة

زمن الغزوة:

وقعت غزوة الأحزاب في شوال من السنة (الخامسة من الهجرة) وهو قول جمهور العلماء^(١).

سبب الغزوة:

"تعتبر غزوة الأحزاب حلقة من حلقات الصراع العسكري بين المسلمين وقريش، فالحرب معلنة بين الطرفين، وجاءت غزوة الأحزاب على أثر إخفاق قريش في تحرير طرق تجارتها إلى الشام في غزوة أحد، فقد أوقع المشركون خسائر بالمسلمين في أحد، لكنهم عجزوا عن القضاء عليهم أو دخول بلدتهم، وظلت طرق التجارة القرشية مهددة، ونشطت سرايا المسلمين وغزواتهم بعد أحد حتى محت آثار أحد في المدينة والبوادي معاً، فكانت قريش تفكر بالقيام بعمل عسكري يحسم الموقف لصالحها بالقضاء على المسلمين في المدينة قضاءً مبرماً، ونظراً إلى أن قوة قريش وحدها لا تكفي لإنجاز المهمة فقد سعت قريش للتحالف مع الآخرين لحرب المسلمين، وجاءت الفرصة المواتية عندما أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير من المدينة"^(٢).

"فذهب نفرٌ من يهودٍ منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وهم من الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٤)، البداية والنهاية (٤/ ٩٣)، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤١٨)، مرويات غزوة الخندق (٦٣-٦٧).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤١٨-٤١٩).

عليه حتى نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

فهؤلاء اليهود هم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحِجَابِ وَالطَّنْعَاتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُؤَلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥٠].

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، وتواعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا قبيلة غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم^(١).

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف من بني مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع.

موقف المسلمين من تحركات الأحزاب:

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، أمر بضرب الخندق على المدينة بعد أن أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بذلك؛ فعمل فيه رسول الله ﷺ، وعمل معه المسلمون فيه. وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من

(١) انظر: جامع البيان (٢١/١٢٩)، تفسير ابن كثير (٣/٤٠٧) البداية والنهاية (٤/٩٤)، سيرة ابن هشام (٣/٢١٤-٢١٥)، تاريخ الطبري (٢/٥٦٥)، فتح الباري في المغازي (٧/٣٩٣).

المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ، ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابه النابتة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له، فأنزل الله في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] (١).

وصول الأحزاب المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة (٢)، في عشرة آلاف من أحايشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقي (٣) إلى

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣/٢١٦).

(٢) مجمع الأسيال من رومة: أرض بالمدينة بين الجرف والغابة نزلها المشركون عام الخندق، انظر معجم البلدان لياقوت (٣/١٠٤).

(٣) ذنب نقي: موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب قريب من أحد، انظر معجم البلدان لياقوت (٥/٣٠٠).

جانب أحد^(١).

وخرج رسول الله ﷺ، والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع^(٢) في ثلاثة آلاف من المسلمين؛ فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الحصون^(٣).

غدرٌ وخيانةٌ يهوديةٌ:

وخرج عدو الله حبي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم. وكان قد وادع رسول الله ﷺ عن قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلم يزل حبي بكعب حتى سمع له - على أن أعطاه عهداً وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ^(٤).

ابتلاء وتمحيص للصف المسلم:

وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف؛ وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، حتى قال أحد المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط! وحتى قال أحد المنافقين أيضاً: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو - وذلك عن ملأ من رجال قومه - فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج

(١) السيرة النبوية (٢/٢١٥)، جامع البيان (٢١/١٢٩-١٣٠).

(٢) سلع: موضع بقرب المدينة وقيل جبل بالمدينة، انظر: لسان العرب (٨/١٦٠) وهو الجبل بين المسجد النبوي والمساجد السبعة حالياً شمال غربي المسجد النبوي.

(٣) السيرة النبوية (٢/٢١٥).

(٤) السيرة النبوية (٢/٢١٥)، جامع البيان (٢١/١٢٩-١٣٠).

من المدينة. فأقام رسول الله ﷺ، قريبا من شهر لم تكن بينه وبينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصار.

رحمة وثبات:

فلما اشتد على الناس البلاء أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف - وهما قائدا غطفان - لإعطائهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معها عنه وعن أصحابه، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمرأتجبه فنصنعه؟ أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: (بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما). فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو يبعأ. أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا!! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: (فأنت وذاك). فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب^(١).

فيلق أمل:

وأقام رسول الله ﷺ، وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم

يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ: (إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة). وقد فعل حتى أفقد الأحزاب الثقة بينهم وبين بني قريظة في تفصيل مطول تحدثت عنه روايات السيرة ولا نذكره خوف الإطالة.

وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد. فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم وخيامهم وما يتخذونه للطبخ من مواقد. طاعة أثمرت النصر:

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما حصل من أمرهم، وما فرق الله من جماعتهم، دعا حذيفة بن اليمان ؓ، فبعثه إليهم لينظر ما فعله القوم ليلاً.

قال حذيفة: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وفي أحد الليالي التفت إلينا فقال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ ثم يرجع، أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني. فقال: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا). قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، ولا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسه. قال حذيفة: فأخذت الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان! ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلكت الخيل والجمال وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون. ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار،

ولا يستمسك لنا بناء. فارتحلوا فإني مرتحل... ثم قام إلى جملة وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث. فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ، إلي (ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني)، ثم شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة ؓ: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بيا فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم. وهكذا نصر الله جنده وهزم الأحزاب وحده" (١).

بعد هذا العرض الموجز لأحداث الغزوة يتضح لنا أمر مهم جداً تبثه القصة من خلال الآيات والأخبار في قلوبنا، ألا وهو شدة ما لاقاه رسول الله ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم من البلاء والتعب والشدة في سبيل إيصال هذا الدين لكل العالمين، وشدة المكر الذي يمكر به أعداء الإسلام لينالوا من هذا الدين.

ومن الأمور المهمة جداً التي تغرسها الآيات في قلوبنا، هو أنه لا بد أن يكون هناك ابتلاء وتمحيص للصف المسلم قبل أن يكون هناك تمكين للمسلمين، لينالوا هذا النصر عن جدارة، ولا يناله كل مدع متذبذب.

ومن هنا جاء الخبر الإلهي عن وصف ما لاقاه الرسول وصحابته من شدة عظيمة وبلاء كبير في تلك الغزوة، ولكي نتعرف على شدة ما لاقاه النبي ﷺ وصحابته من شدة، نعرض ما عرضه القرآن من تلك الصور التي صور الله لنا فيها حال المعركة وما كان فيها من شدة.

(١) هذا الخبر نقلنا عن السيرة النبوية لابن هشام من رواية ابن إسحاق (بتصرف) وعنه نقلت كثير من المصادر كدلائل النبوة للبيهقي وابن حجر في الفتح وغيرهم.

الفصل الثاني

قوة الامتحان

تمهيد:

الذي يبين لنا شدة هذا الامتحان، العرض القرآني لبعض أحداث الغزوة وما حصل للمؤمنين من الابتلاء فيها، وهو كما يلي:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

يبدأ الحديث عن حادثة الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم، أن ردّ عنهم الجيش الذي أراد أن يقضي عليهم، لولا إعانة الله تعالى للمؤمنين وتثبيتهم، وإرسال جنوده على أعدائه.

"وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ لأن النبي ﷺ والمسلمون كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم بها، وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب"^(١).

ففي هذا البيان القرآني يصور الله تعالى بداية المعركة ونهايتها، بأسلوب يوحي بشدة الموقف الذي كان فيه المؤمنون، فنعمة النصر جاءت بعد شدة الابتلاء، وهذا النصر لم يكن منهم ولكن الله تعالى هو الذي أرسل جنوداً من عنده بعد أن وقع المؤمنون في الاختبار، لكي يخرج الله من صف المؤمنين من كان في قلبه مرض، وهذا هو الذي ظهر.

ويتجلى ذلك في المباحث التالية:

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤٤/١٤٤).

المبحث الأول

يصف الله تعالى شدة المعركة بعدة صور

- الصورة الأولى: قال تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾:

فإن الأحزاب المشركين ومن تحالف معهم من القبائل ومن اليهود - الذين خانوا العهد مع الرسول ﷺ ودخلوا في الحرب مع المشركين - كانوا يحاصرون المسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم، فكان الأحزاب يحاصرون المسلمين من أعلى المدينة من جهة الشام، وكان اليهود يحاصرون المسلمين من أسفل المدينة من جهة مكة.

كان الأحزاب من خارجها ويغلقون جميع منافذها في ذلك الوقت؛ واليهود من داخلها، والأحزاب واليهود وغير المسلمين ظاهراً؛ والمنافقون من داخل المسلمين وفيما بينهم.

كان عدد الأحزاب عشرة آلاف مقاتل، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف مجاهد. فالأحزاب ضعفي عدد المسلمين، فكان المسلمون يحسون بخوفٍ شديدٍ جداً، وحتى ندرك شدة ذلك الخوف وشدة الموقف الذي كان فيه المسلمون نستعرض الصورة الثانية من صور شدة المعركة:

- الصورة الثانية: ﴿ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾:

"فالأبصار مالت فلم تلتفت إلا إلى عدوها دهشاً من فرط الهول، وأما القلوب فمن شدة الهول يصفها بأنها زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر"^(١).

"فهذا تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب"^(١).

ثم يأتي وصف آخر للحالة التي كان عليها الناس في هذا الموقف:

- الصورة الثالثة: قال تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾:

"إن الله تعالى لم يُفَصِّل في تلك الظنون، ويدعها مجملة ترسم حالة الإضطراب في المشاعر والخواجج، وذهابها كل مذهب، واختلاف التصورات في شتى القلوب"^(٢).

وعبر عن الظنون بالفعل المضارع ليدل على تجددتها، فالشيطان يُحَيِّل إليهم في كل ساعة ما يؤدي بهم إلى سوء الظن بالله تعالى، ولما لم يستسلم المسلمون لذلك ولم يصرحوا به قولاً أو عملاً فكانت "هذه الظنون عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها، أما المنافقون فنطقوا بها"^(٣) ولذا لم يُؤاخذ بها من لم يُتبعها بعملٍ أو قولٍ.

ثم يزيد القرآن في إبراز الموقف وشدته:

- الصورة الرابعة: قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾:

"في هذا الوقت وهذه الشدة أُخْتَبِرَ المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق، وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال"^(٤).

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٣٧).

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٣٧).

(٣) المحرر الوجيز (١٢ / ٢٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١٤٦).

"إنها صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها الأعداء من كل جانب، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، ولذلك كان التمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردد فيه"^(١).

وكان من أسباب ذلك الرعب والخوف الشديد، أن يهود بني قريظة نقضوا العهد مع رسول الله ووقفوا مع الأحزاب كما ذكر ذلك من قبل، وكان بنو قريظة من خلف النبي ﷺ، فلم يأمن المسلمون من أن ينقض عليهم المشركون من حولهم ويقتحمون الخندق، وأن يأتي اليهود من خلفهم غدراً وخيانة.

- الصورة الخامسة: قال تعالى: في ختام الحديث عن الغزوة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا^٤ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ^٥ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا^٦﴾. فوصف الله شدة الغيظ الذي تتضمنه نفسيات العدو - جميعاً، ولا شك أن هذا الغيظ والحنق الذي وصفه الله يرهب المقابل لهم - وهم المؤمنون - لاسيما مع ضعفهم وقلة حيلتهم والناصر لهم من البشر، لكن من توكل على الله كفاه ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ^٥ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا^٦﴾.

المبحث الثاني

الابتلاء كان بعدة أمور

- ومن هنا يعلم أن الابتلاء الذي زلزل المؤمنين في تلك المعركة كان بعدة أمور:
- ١- كثرة عدد الأحزاب، وتنوع قبائلهم، ومناطقهم، وأغراضهم، وإتيانهم من كل مكان.
 - ٢- الجهد الكبير الذي قام به الصحابة في حفر الخندق في أقل وقت ممكن.
 - ٣- غدر وخيانة اليهود من بني قريظة وهم المخالطون والمساكنون للمسلمين في المدينة.
 - ٤- شدة البرد وشدة الخوف، كما يصور ذلك حذيفة رضي الله عنه كما سبق، وكان مما قال: قال رسول الله ﷺ: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة) فمع هذا الشرط بالرجعة ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة، فإنه لا أحد يلبي النداء، فلما أمر رسول الله حذيفة قال حذيفة: "فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!!" وهذا كما رأينا في السيرة لا يحصل من الصحابة إلا في أقصى درجات الزلزلة.
 - ٥- الجوع الشديد فقد كان الصحابة يربطون على بطونهم الحجر من شدة الجوع، وكان النبي ﷺ يربط على بطنه حجراً أو حجرتين.
- فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا هذه كدية^(١) عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل ثم قام

(١) القطعة الشديدة الصلبة من الأرض، الفتح (٧/٣٩٦).

وبطنه معصوب بحجر، ولبشنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقا، فأخذ النبي ﷺ المعول^(١) فضرب في الكدية، فعاد كثيباً^(٢) أهيل أو أهيم^(٣)، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ قالت عندي شعير وعناق^(٤) فذبحت العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة^(٥)، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر^(٦)، والبرمة بين الأثافي^(٧)، قد كادت تنضج، فقلت: طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له قال: كثير طيب. قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى. فقال: قوموا فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم!! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا^(٨)، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر^(٩) البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شعوا، وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة^(١٠).

(١) المعول: الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر، والجمع المعاول، مختار الصحاح (٤٦٣).

(٢) الكثيب: الرمل المستطيل المحدوب، النهاية في غريب الحديث (١٥٢/٤).

(٣) أي صار رملاً يسيل ولا يتماسك، الفتح (٣٩٧/٧).

(٤) العناق: الأثني من الماعز، النهاية (٣١١/٣).

(٥) البرمة: القدر مطلقاً، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن، النهاية (١٢١/١).

(٦) انكسر: أي لان ورطب وتمكن منه الخمير، انظر الفتح: (٤٣٤/١١).

(٧) الأثافي: هي حجار ثلاث يوضع عليه القدر، مختار الصحاح (٨٤).

(٨) فيه دليل على كثرتهم، ومعنى لا تضاغطوا: أي لا تتزاحموا.

(٩) يخمر: أي يغطي.

(١٠) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤١٠١) من حديث جابر بن عبد الله. ومسنند أحمد

(٤٤/٣). ومجمع الزوائد باب بيان صفة حفر الخندق والشدة التي أصابتهم يوم الأحزاب (١٣١/٦).

ومسنند أبي عوانة (٣٥٠/٤).

- ٦- الحراسة الشديدة على الخندق خوف الاقتحام من الأحزاب جعل الصحابة لا يستطيعون أن يرتاحوا، فأعصابهم مشدودة مترقين أي تخلخل.
- ٧- شدة حصار الأحزاب، فقد أغلقوا منافذ المدينة، وقطعوا حتى أهلها عن بساتينهم ومصالحهم فضلاً عن قطعهم عن العالم الخارجي.
- ٨- وقوعها بعد غزوة أحد، والتي لم يبق فيها بيت من بيوت الأنصار لم يُصب.
- ٩- وجود المنافقين في الصف الإسلامي وهم العدو الداخلي، وما كانوا يحدثونه من بلبلة وإرجاف بين المسلمين، ولذلك تحدث الله تعالى عن دور المنافقين وموقفهم من ذلك الابتلاء، ومحاولتهم إضعاف المؤمنين وزيادة خوفهم والإرجاف بين الفئة المؤمنة في هذه الصورة بأبلغ بيانٍ ووصفٍ.

المبحث الثالث

دور المنافقين في الإرجاف بين المؤمنين في المعركة

لقد صدرت من المنافقين أقوالٌ وأعمالٌ كانوا يريدون بها الإرجاف والاستسلام لهؤلاء الأحزاب، وجر المؤمنين إلى ذلك الاستسلام، وحاشا وكلا أن يصدر من المؤمنين ما صدر من المنافقين.

فمن الأمور التي وقعت من المنافقين محاولة لإضعاف المؤمنين:

١- توهين المسلمين والتشكيك في وعد الله لهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمَتَلَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

ورد أن أحد المنافقين قال: [تعالى الله عما يقولون وصدق رسوله ﷺ]: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط"^(١). لأنهم قد سمعوا رسول الله ﷺ في هذه الشدة يبشر بكنوز كسرى وقيصر عند حفر الخندق.

"لقد وجد هؤلاء المنافقون في الكرب المزلزل، فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم، وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتهوين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون.

فالحدث بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون في أنفسهم ومشاعرهم كما زعموا، فالهول والبلاء قد أزاح عنهم الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمان مهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون به غير مبقين لمعروف ولا متجميلين.

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٨٨). السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٢٢٢).

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وأمة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات والأمم على مدار الزمان^(١).

٢- الدعوة إلى الاستسلام والتخاذل:

لم يكتف المنافقون بتوهين المسلمين بل كانوا يدعون المؤمنين إلى الاستسلام والتخاذل وترك القتال: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾: فالمنافقون كانوا يحرصون أهل المدينة (الأنصار) ﷺ؛ على ترك النبي ﷺ وترك حماية الخندق من اقتحام المشركين.

٣- التسلل من المعركة:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ وقال تعالى في سورة النور: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣] وكان ذلك في هذه الغزوة.

وهذا التسلل والهروب بحجة أنهم يخافون على أهلهم في المدينة لأن بيوتهم معرضة للخطر من قبل اليهود الذين خلفهم، ولكن يكشف الله في القرآن خبثهم وجبنهم وأنهم ما أرادوا إلا الفرار قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

ولكن الذي حصل منهم هذا لم يحصل عفويًا أو خطأً غير مقصود في وقت واحد، ولكن هذه هي صفاتهم في كل زمان قال تعالى: ﴿مُذَبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]، ولذلك عرض الله في القصة بعض صفات المنافقين الثابتة فيهم والتي لن تتغير إلا أن يؤمنوا بالله إيماناً كاملاً حقيقياً.

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٣٨) بتصرف.

المبحث الرابع

ذكر صفات المنافقين في الآيات

١- الشك والريب والوهن:

يصف القرآن هؤلاء المنافقين وما في قلوبهم من الشك والريب والوهن، والاستعداد للهروب في أي لحظة، من غير نظر في عواقب خروجهم، سواء عليهم أو على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾: "فهؤلاء المنافقون لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعاً، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع وهذا ذم لهم غاية الذم"^(١).

٢- نقض العهد والمواثيق:

يصفهم الله تعالى بنقض العهد، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ "إن هؤلاء المنافقين عاهدوا الله على الثبات وعدم الفرار قبل مجيء الأحزاب، ولكنهم نقضوا العهد، فالله سبحانه يتوعدهم بأنه سيسألهم على الوفاء بهذا العهد ويجازيهم عليه"^(٢). بل إن عواقب خيانة العهد تظهر في الدنيا وتكون وخيمة وسيئة، وفي الآخرة لهم لواء خاص بمن خان العهد ونقض والعياذ بالله تعالى.

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩٠).

(٢) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ٦٠).

٣- الخوف من الموت والحرص على الحياة الدنيا:

يأتي السؤال: لماذا يفعل المنافقون كل هذا؟!

إنهم يفعلون هذا خوفاً من الموت وحرصاً على الدنيا، ولذا فإن الله تعالى يقرر لهم قاعدة هامة في هذه الحياة، وسنة جارية لا يمكن أن تمنحني، يقول تعالى:

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا تَحِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾.

أي: "أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطوّل أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرّة، فإنه لا يستطيع أحد أن يمنعهم من الله تعالى" (١).

وقد جاء ذلك بنوع آخر من البيان والتصوير لموقفهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

"فإن الموت أو القتل قدرٌ لا مفر من لقائه في مواعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر، ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فارٍ، فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب، في مواعده القريب، وكل موعد في الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل، ولا عاصم من أمر الله، سواء أراد بهم سوء أو أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير، من دون الله يحميهم ويمنعهم من قدره" (٢).

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٠).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٣٩) بتصرف.

٤- التخاذل والتنصل من المسئولية في موقف الشدة:

يصف الله المنافقين القاعدين عن الجهاد وحالهم في التخاذل والتنصل من المسئولية في موقف الشدة وتوهين المسلمين، فيقول تعالى:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

"ينخر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم أي: أصحابهم وعشائرتهم وخلطائهم تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك بخلاء بالمودة والشفقة عليكم" (١).

فالمنافقون إذا جاءهم البأس والشدة لا تجدهم!! لأنهم يؤثرون الراحة على الشدة - التي سيتبعها راحة أبدية في الآخرة، لكنهم نظروا للعاجل ونسوا العاقبة والنتيجة، فأعجبوا بلمس الحياة!! ونسوا أن فيها حتفهم وهلاكهم، نظروا لزخرف الدنيا فانشغلوا به عن واجبهم وهدفهم، فاستدرجهم الشيطان - والعياذ بالله منه - وسيترأ منهم في الآخرة، كما تبرأ منهم لما رأى الملائكة بيدر.

٥- البخل بكل شيء:

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾: فهم بخلاء على المؤمنين في كل شيء، بخلاء على المؤمنين بأوقاتهم وأموالهم وأنفسهم، بخلاء أن يحفروا مع المسلمين، أو أن يقاتلوا معهم؛ أو يحرسوا المدينة معهم، فهم لا يريدون أن يفدوا المسلمين بأي شيء حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً على أنفسهم.

٦- الجبن والخوف:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: "وصفهم بالجبن، لأن الجبان ينظر يمين وشمال حذراً أن يأتيه الموت من أي جهة"^(١).

فهم عند الخوف وعند الشدة يجبنون، ويظهر ذلك في تصرفاتهم وعلى ملامح وجوههم، ويصور الله منظرهم هذا بالذي ينظر في كل اتجاه خوفاً من الموت والأذى، فالحائف ترى عليه آثار التوتر والنظر في كل مكان، وعدم الاستقرار.

٧- الأذية بالكلام:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ﴾ "أي: بسطوا ألسنتهم الحادة القاسية فيكم، وأذوكم بكلامهم، وخاصة عند قسمة الغنائم، فهم أجبن الناس عند الحرب وأشجعهم عند الغنيمة"^(٢).

"فإذا كان الأمن، تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وأدعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك"^(٣).

٨- الشُّح في أمور الخير وما يعود نفعه على الآخرين:

قال تعالى ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾: أي: بخلاء في الإنفاق والعمل في أمور الخير، بل ويبخلون عليه بأن يقوم الناس به؛ فنفسهم المريضة قد ضاقت بالخير ذرعاً، فلا يفعلونه ولا يتركون غيرهم يفعلوه فضلاً عن أن يدعونهم إلى فعله، فهذه الآية على وجازتها وصفتهم بأشد الشح والبخل المتأصل في القبح.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١٥٣).

(٢) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ٦١).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩٠).

"وهذا النموذج من المنافقين لا ينقطع في جيل من الأجيال، فهو موجود دائما، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء، وهو جبان صامت متوتر حيثما كان هناك شدة وخوف، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منهم إلا سلاطة" (١).

٩ - عدم الإيمان بالله تعالى:

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: "إن قلوبهم لم تحالطها بشاشة الإيمان، ولم تهتد بنور الإيمان، ولم تسلك منهج الله تعالى، فهم لم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس موجوداً عندهم" (٢). ولأنهم قد يظنون لأنفسهم حظوة عند الله كما قال زعمائهم - في النفاق والحيل - اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْتَنُوا اللَّهَ وَأَحْبَبُوهُ﴾ [المائدة: ٤٨]. بين الله لهم أن ذلك يسير عليه سبحانه فهو لا تنفعه طاعة المطيعين؛ بل هي لأنفسهم نجاة، ولا تضره سبحانه معصية العاصي؛ بل هي وبال على صاحبها - نسأل الله العفو والمغفرة -.

١٠ - شدة الهلع والاعتراض على القدر:

﴿تَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبِيَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾. وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة الهلع الشديد حتى ليخيل لأحدهم أن عدوه أمامه من شدة فزعه وهلعه الذي تجاوز الحدود المعقولة والمتصورة؛ بل كما في الآية الأخرى ﴿تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخَذَرَهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٤٠).

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٤١).

إنهم ولسوء ظنهم بالله وشكهم - عياداً بالله - في قضائه وقدره، وإجلاباً من الشيطان عليهم قد "أغرقوا أنفسهم في الجبن والخوف والخور فهم يظنون أن الأحزاب لم يذهبوا - وذلك بعد ذهابهم - وهم يتمنون أن لو جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم، لأنهم لو كانوا معكم لم يقاتلوا إلا قليلاً، وذلك لجبنهم وذلتهم وضعف يقينهم"^(١).

هنا يكرر الله تعالى صفة الجبن التي في قلوب هذه الفئة، وسبب هذا التكرار بالذات؛ لأن فرارهم من المعركة وتذبذبهم وتوهين المسلمين كل هذا ناتج عن الخوف الذي ملأ قلوبهم، فهو خوف على أنفسهم من الموت، وخوف على مصالحهم الشخصية، وأن يضيع عنهم حظ من حظوظ الدنيا.

فهذه هي صفات أهل النفاق في كل زمان ومكان، وفي كل حدث وبلاء، قوم لا تهمهم إلا مصالحتهم وشهواتهم ورغباتهم وحرصهم على الدنيا وخوفهم من الموت، نعوذ بالله من النفاق ومن أهل النفاق.

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩١).

الفصل الثالث

غزوة الأحزاب ونتيجة الامتحان

تمهيد:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۗ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ۖ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ۝ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝

هذه الآيات تبين نتيجة الامتحان الذي وقع للأمة الإسلامية كمرحلة تنقية للفتة المؤمنة، لكي تكون على بصيرة بنفسها ومن معها من المنتسبين إلى هذا الدين.

ويقص الله لنا الحديث عن نتيجة الامتحان واضحاً، وسنجد الكلام عليه في

المباحث التالية:

المبحث الأول

الافتداء بالنبي ﷺ

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾^(١) وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿ إن هذه الآية نص صريح في أن اكتساب النصر، وكسب رضا الرب ﷻ مقترنٌ ولا بد بالتأسي، وهي "عتاب من الله تعالى للمتخلفين عن رسول الله ﷺ، وعن عسكره بالمدينة من المؤمنين به، يأمرهم أن يتأسوا به، ويكونوا معه حيث كان، ولا يتخلفوا عنه، فإن من يرجوا ثواب الله ورحمته في الآخرة لا يرغب بنفسه، ولكنه تكون له به أسوة في أن يكون معه حيث يكون هو"^(٢).

وهذه الآية: "أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وأحواله، ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل دائماً"^(٣).

فقد "كان رسول الله ﷺ على الرغم من هذا الهول المرعب والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين ومصدر زرع الثقة والرجاء والاطمئنان. وإن دراسة موقفه ﷺ في الغزوة، فيه أسوة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر"^(٣).

فهذه الآية أصل في وجوب الاقتداء بالنبي ﷺ في كل الأمور صغيرها وكبيرها، والآية في استهلالها بمسألة الاقتداء بعد الوصف الدقيق، تعاتب المؤمنين بأن

(١) تفسير الطبري (٥٩/١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٣٩١).

(٣) في ظلال القرآن (٥/٢٨٤١).

الأصل هو الاقتداء، وهذا الموقف من أعظم المواقف التي يتباين الناس فيها ويمتحنون بالاقتداء، لاسيما مع وصف الله عظم الموقف وهوله.

فأول ما يجب على المسلم النظر فيه وتذكره - عند المواقف العظيمة والأمر النازلة - هو ماذا كان موقف النبي ﷺ في مثل هذا الحدث الذي يعيشه؟

وأول ما يجب على الدعاة والمصلحين والعلماء بثه في الناس في حال الخوف أو المصيبة أو تهيئة الناس لسُنَّةٍ ليعملوا بها، أو واجب ليقوموا به هو التذكير بالإقتداء بالإمام الذي اصطفاه الله لهذه الأمة....

وهذا يتضمن النظر في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

بماذا تقتدي برسول الله عليه السلام من خلال الغزوة

- خرج رسول الله ﷺ يعمل في الخندق مع المسلمين، يضرب بالفأس، ويجرف التراب، ويحمل التراب، وهو يقول: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة)^(١). وعن البراء ؓ قال: (كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو غبر بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أينا
ورفع بها صوته أينا أينا)^(٢) فعل ذلك رسول الله ﷺ، لكي تقتدي به أمته في العمل لهذا الدين، مهما كان هذا العمل شاقاً، أو نظن أنه لا يناسب مستوى من يقوم به، فإن العمل شأن العامل ولا ينقص من قدر ذوي الأقدار والمهابة.

- عمل النبي ﷺ مع أصحابه جعلهم يجدون في العمل والإصرار على النصر وأصبحوا يرددون (نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً)^(٣) فسادت روح التعاون والأمل والتضحية من أجل الله وفي سبيل الله.

فهذا رسول الله ﷺ قائد الأمة، الذي لو لم يحفر مع أصحابه لما لامه أحد،

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤٠٩٨). صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب (١٨٠٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤١٠٦).

(٣) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤١٠٠). صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب (١٨٠٥).

لأن مهام القيادة والإمارة وتبليغ الرسالة؛ مهام جسيمة تحتاج لتفرغ، ومصالح كثيرة يقوم على تنظيمها وترتيبها، ولكن قدوتنا محمد ﷺ حريص على كل خير، ويمشي في كل خير، فهذه هي القيادة المزيّنة بالتواضع والرحمة وحب الخير.

- أن رسول الله ﷺ موقن بنصر الله، يرى نصر الله ونور الفجر من بعيد في شدة سواد الليل، لأنه موقن أن هناك فجرا، وبأن بعد العسر يسرا، وبأن وعد الله قائم لا محالة.

يري ﷺ هذا الفجر وهذا النور وهو يضرب الصخرة القوية، ويخرج منها مثل الشرار المضيء من شدته في ثلاث ضربات، ويبشر الصحابة بذلك النور، وهذا النصر.

فعن البراء ﷺ قال: (لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكيننا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: (بسم الله ثم ضربه ضربة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقال: الله أكبر أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: باسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني)^(١).

إنه اليقين الكبير والثقة العظيمة بالله، تخرج من رسول الله ﷺ يبشرها قائداً لجنوده، وحاكماً لرعيته، وداعيةً إلى مدعويه، هذه هي القدوة وهذه هي الأسوة الحسنة من رسول الله التي يجب على كل عامل لهذا الدين؛ بل على كل مسلم

(١) مسند أحمد (٤/٣٠٣). وأوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٧/

٤٥٨). وقال الحافظ ابن حجر إسنادها حسن وقد ورد الحديث بروايات أخرى في كتب السنة.

مستسلم لله أن تكون نصب عينيه، ولا يترك هذه القدوة إلى غيرها من القدوات التي إن كانت صالحة مؤمنة، فهي مأخوذة من رسول الله ﷺ.

- إن طاعة الرسول ﷺ، والالتزام بأمره وتوجيهاته، كان من أسباب النصر في هذه الغزوة، وبدل على ذلك طاعة حذيفة ؓ لرسول الله ﷺ حين بعثه يتحسس خبر القوم، قال حذيفة: "فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!!" ثم قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، ولا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسه... إلى أن قال: ثم قام إلى جملة وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث. فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ، إلى ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم...^(١)).

فهكذا يجب أن نكون، مقتدين برسول الله ﷺ، مؤتمرين بأمره، متتهيين عن نبيه، حذرين مما حذر منه، مستبشرين بما بشر به، مستنين بسنته، عاملين بمنهجه، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والأ نكون مثل أولئك المنافقين الذين فروا وتحلفوا عن هذا المنهج، وهذه القدوة والأسوة الحسنة، فلا خير لهم في الدنيا، ولا في الآخرة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

(١) المستدرک علی الصحیحین (٣/ ٣١) البداية والنهاية (٤/ ١١٣) وقال الشيخ الألباني في تعليقه على فقه السيرة (٣٣٣-٣٣٤) هذه قصة صحيحة.

المطلب الثاني

الرسول ﷺ القائد

إن مما يبرز في هذا المقطع من الآيات أن الرسول ﷺ بشر، لا يخرج عن صفات بني جنسه، فلا يعلم الغيب، ولا يدافع عن نفسه إلا كما يدافع البشر عن أنفسهم وأراضيهم، فيحتاج لأخذ الأسباب، ودراسة الأمور، وحسن تقديرها وتدبيرها، مع التآني والحنكة، وقوة الشخصية، وإن كان مؤيداً من الوحي معصوماً فيما أرسل به، إلا أن الله جعله نموذجاً بشرياً، ليقتدي به سائر الناس الذين يريدون العلو في الشأن، مع علو الأخلاق وحسن الإدارة، والنجاح في القيادة، ولذا اهتم بعض علماء الإدارة بدراسة شخصيته ﷺ الإدارية والقيادية وكفى بها من مثل أعلى.

ففي هذا الموقف "تحدثت السورة: أولاً: عن بعض جوانب شخصية النبي ﷺ العسكرية في ميدان الجهاد، فإذا نحن أمام قائد عسكري، أعطاه الله سبحانه كل الصفات العالية الرفيعة للقائد الذي يقود جنوده إلى النصر في أصعب المواقف وأشدّها حرجاً:

١. قائد لا يستبد برأيه، بل يستشير جنوده، ويأخذ برأي أحدهم عندما يراه حقاً أو رأياً مفيداً، - سلمان الفارسي ﷺ، واقتراحه حفر الخندق - وقصة رفض سعد ﷺ لمصالحة غطفان.

٢. قائد متواضع يعمل كل أعمال القتال، من تحصين وحراسة، ومواجهة العدو، ويتحمل معهم كل مشقات القتال، من برد وجوع ونصب.

٣. قائد يبث في نفوس جنوده الثقة بنصر الله فيملاً قلوبهم حماساً ويشد عزائمهم، ويثبت نفوسهم في مواقف تضطرب فيها القلوب وتزلزل النفوس،

حتى تبلغ القلوب الحناجر.

٤. قائد ذو نظرة بعيدة وتفكير سديد، لا يدع فرصة مهما كانت إلا ويستفيد منها ليهزم أعدائه، حتى إنه لما جاءه نعيم بن مسعود مسلماً، يعرض مساعدته على النبي ﷺ، قال له عليه الصلاة والسلام: (إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة)^(١).

٥. قائد قلبه موصول بالله، يأخذ أعلى أسباب الحيلة العسكرية، وفي الوقت نفسه يسأل الله النصر، متوكلاً عليه سبحانه.

٦. قائد جمع بين صفتي الرحمة والحزم، الرحمة لأصحابه والشفقة عليهم، كما في قصة مصالحة غطفان، والحزم في قتل جميع رجال بني قريظة الذين نقضوا العهد^(٢).

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب الحرب خدعة (٣٠٢٩)، انظر فتح الباري (٦/١٥٧-١٥٨) حيث قال الحافظ ابن حجر: ذكر الواقدي أن أول ما قال النبي ﷺ الحرب خدعة في غزوة الخندق.
(٢) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ٨٠) بتصرف.

المطلب الثالث

صفات الذين يقتدون برسول الله

ثم قال تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾:

ولأن القائد الناجح هو من تتوفر فيه تلك الصفات المذكورة، فإن الطالب لتلك الصفات لابد أن تتوفر فيه شروط القبول، ليحظى بحسن الرعاية والتأهيل، ليكون قائداً وتلميذاً نجيباً لذلك القائد البارع، فالمتميزون في الحياة هم من تتوفر فيهم تلك الشروط ليحظوا بذلك التعلم والتربية، ولذا أشاد الله تعالى لنا بتلك الصفات والشروط المطلوبة؛ لتكون تلاميذ نجباء نتعلم من ذلك القائد البارع ﷺ، ومن لم يحقق تلك الشروط فإنه لن يحظى بالنتيجة المرغوبة، ومن نقص منها ضعف من الجهة التي نقص فيها.

إن الذين يتأسون برسول الله حقيقة، ويستفيدون من أخلاقه وشئائله، يتصفون بصفات خاصة، وهي هذه الصفات المذكورة في الآية:

١- ﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾: أي: يرجو ثواب الله، فهم يتأسون به طلباً لثواب الله

سبحانه، ولا يطلبون منفعة دنيوية، وإنما أملهم ورجاؤهم في رحمة الله وفضله.

٢- ﴿يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: أي: يخافون يوم القيامة الذي فيه جزاء

الأعمال، فهم يخشون عذاب الله سبحانه يوم القيامة، "فمعنى هذا أنهم يجمعون في قلوبهم بين صفتي الرجاء والخوف، فلا يتأسون من رحمة الله، ولا يأمنون من عذابه ﷻ" (١).

٣- ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾: أي: أكثر من ذكره سبحانه في كل أحواله وأوقاته، فلا

يغفل عن الله سبحانه أبداً، ومن لم يغفل عن الله فإن الله لا يغفل عنه لحظةً، وقد جاء في نفس السورة في غير موضع منها التنبيه على ذكر الله كثيراً فقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

قد رأينا عبر التاريخ من أعجب بمحمد ﷺ منذ بعثته وحتى يومنا هذا، بل ودرسوا شخصيته، وأجادوا في عرض ما أعجبهم منها لكن لتخلف الشروط المذكورة في الآية أو بعضها، لم يؤمنوا فحرموا - والعياذ بالله - من الاقتداء، وهكذا من نقص من تلك الصفات والشروط ممن آمن لكنه وقع في فتنة عمياء أو ضعف في إيمانه، ولذا فإنه قد حُرِمَ أيضاً من حسن الاقتداء به ﷺ، فليكن من الفرقة الناجية التي وصفها رسول الله ﷺ، نسأل الله الثبات على الحق إلى الممات.

المبحث الثاني تَمِيْزُ الصَّفِّ

فيما مضى من الآيات بين الله لنا حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في الصف الإسلامي، والذي يعرض الصورة السيئة لما كان عليه هؤلاء المنافقون، ولكن هذه الشدة التي وقعت في غزوة الأحزاب لم تجعل كل الناس مثل هؤلاء المنافقين، بل كانت هناك صوراً وضيئةً وسط ذلك الظلام، هذه الصور كانت مطمئنة في وسط ذلك الزلزال، متمسكة بدينها في ذلك الابتلاء، وواثقة بنصر الله، في تلك الشدة، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١١٠﴾﴾:

وهذا الإيـان والتسليم في الوقت الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠٩﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١٠﴾﴾.

وهذا الإيـان والتسليم في الوقت الذي ظهر أصحاب النفاق يقولون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٠٩﴾﴾.

ولكن أصحاب الإيـان والتسليم "اتخذوا من شعورهم بالزلزلة سبباً في انتظار النصر، ذلك لأنهم صدقوا قول الله ﷻ من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وهامهم أولاء يزلزلون، فنصر الله إذن منهم قريب" (١).

فهؤلاء الصحابة بشر من البشر ليسوا ملائكة ولم يطلب منهم أن يكونوا ملائكة، فهم يخافون، ويفزعون ويزلزلون، ولكنهم مرتبطين بالله وبسنن الله في

الكون وبوعد الله تعالى، وهذا هو الفارق بينهم وبين المنافقين الذين خافوا وفرغوا وزلزلوا أيضا، ولكنهم ليس عندهم إيمان بالله ولا بوعد الله، فحصل منهم الهروب والتخاذل والتوهين والإرجاف.

وهكذا يتميز الخبيث من الطيب، ويتميز الدعاة من الأدعياء، وهكذا يتبين الصامدون من الكاذبون، وهكذا يتبين الذين بدلوا نعمة الله كفرا من الذين لم يبدلوا تبديلا، كل هذا يتبين ويتميز في مثل هذه الامتحانات والابتلاءات والشدائد. قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

ولذا يقول الله تعالى واصفا هؤلاء الصادقين: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢١﴾﴾ هذا الوصف أيضا مقابل ذلك النموذج من المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَسْتَغْنِدُنَّ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢٢﴾﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَرًّا ﴿٢٣﴾﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿٢٤﴾﴾.

"لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنون بأنهم استمروا على العهد والميثاق: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ أي: فمنهم من قضى أجله، ومنهم من ينتظر أجله" (١)، والنحب "في لغة العرب: النذر ويقال أيضا الموت" (٢).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩٢).

(٢) تفسير الطبري (١٩ / ٦١).

﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: "وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه"^(١). فالؤمنون صدقوا والمنافقون نقضوا، ولم يكن يُعلم حال المنافقين إلا من خلال هذه الامتحانات والابتلاءات.

وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه في سبب نزول هذه الآية قوله: كان عمي أنس بن النضر، سُمِّيَتْ به لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وغبت عنه؟! لئن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ليرين الله ما أصنع!! قال: فهاب أن يقول غيرها. فشهد مع رسول الله يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس بن النضر: يا أبا عمرو، واهأ لريح الجنة أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قُتل، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون، من ضربه وطعنة ورمية، فقالت أخته: فما عرَفَتْ أحيي إلا بينانه، قال: فنزلت الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه^(٢).

ثم يأتي السبب والجزاء من هذا التميز وهذا الاختبار:

قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيََ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: "إنما يختبر الله عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، ويظهر أمر هذا بالفعل كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]"^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ صحيح مسلم كتاب الإمامة باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩٥).

المبحث الثالث

نتيجة الصبر والبلاء

أرسل الله الرياح على أعدائهم الأحزاب:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

رجوع الأحزاب عن المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ "الرد: الإرجاع إلى المكان الذي صدر منه، فإن ردهم إلى ديارهم من تمام النعمة على المسلمين، بعد نعمة إرسال الرياح عليهم، لأن رجوعهم أعمل في اطمئنان المسلمين"^(١).

"يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الرياح والجنود الإلهية، فقد سلط الله عليهم هواء فرق شملهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم لم ينالوا خيراً إلا في الدنيا ولا في الآخرة: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ فلم يحتج المسلمون إلى مبارزتهم ومنازلتهم حتى يجلوهم عن بلادهم؛ بل كفاهم الله وحده، فنصر عبده وأعز جنده، ولهذا قال رسول الله ﷺ في دعائه على الصفا (لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده)^{(٢) (٣)}.

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣١٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤١١٤). صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٤) مع اختلاف في اللفظ.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٦).

قال تعالى: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ ولم يقل: "لم ينالوا شيئاً" والفرق بين التعبيرين هو أن المسلمين أصابهم شيء ولكنه لم يكن الذي يريده المشركون. "وقد بدأت المعركة وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها، وزمامها في يد الله تعالى، يصر فيها كيف يشاء، وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره، فأسند إلى الله تعالى إسناداً مباشراً كل ما تم من الأحداث والعواقب، تقريراً لهذه الحقيقة، وتثبيتاً لها في القلوب"^(١).

وبهذا تحقق وعد الله للمؤمنين، وجرت سنة الله في الأولين والآخرين، ونصر الله أوليائه المؤمنين، وهزم الأحزاب واليهود والمنافقين، من المعتدين المشركين، والمغضوب عليهم الغادرين، والمنافقين المشككين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، فلن يتوقف النصر في الدنيا فقط ولكنه في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: "لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل العزة والقوة قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم الله بقوته وعزته"^(٢).

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٤٥).

(٢) تفسير السعدي (٦١٠).

المبحث الرابع

نتيجة الغدر

قال تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

إن الهزيمة لم تكن للأحزاب من المشركين من مكة والقبائل التي تحزبت معهم فقط، بل كانت للغادرين من اليهود عليهم من الله ما يستحقون. ومعلوم أن رسول الله ﷺ أول ما وصل إلى المدينة مهاجراً من مكة عقد مهادنة مع يهود، أوجب لهم فيها النصر والحماية مشروطاً عليهم، ألا يغدروا ولا يفجروا، ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً، ولا يمدوا يداً بأذى^(١). ولكن اليهود أحسوا بخطر هذا الدين الجديد على مصالحهم - غير المشروعة، ومكانتهم - المزيفة، لمجرد أنهم أهل كتاب، كانت لهم كلمة بين أهل المدينة خاصة وبين العرب عامة.

ولذا تأمروا على المكر برسول الله ﷺ والمكيدة له، وابتدأت المعركة بين الإسلام واليهود من ذلك الوقت إلى وقتنا الحاضر، بأساليب وأدوات مختلفة، وهذه هي عادة اليهود مع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام قبل رسول الله ﷺ، قال تعالى عنهم: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

(١) يمكن أن تراجع وثيقة المعاهدة هذه في كتب السيرة. وانظر السيرة النبوية لابن هشام (مجلد ١ و٢ ص ٥٠١). وغيرها من كتب السيرة.

فالغدر من اليهود قديم وليس بجديد، ولا ينتظر منهم إلا الغدر والخيانة والمكر، أعادنا الله من شرورهم وكفانا إياهم.

وكانت أهم طوائفهم بالمدينة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وكل طائفة منهم لها دور في المكر برسول الله وبدينه، وكان لها من الله الجزاء المناسب لفعالها في الدنيا وما عند الله لهم في الآخرة أشد.

وهنا سنتعرض لبني قريظة إذ هم الذين نزلت هذه الآيات في غدرهم وخيانتهم خلال معركة الأحزاب.

كما في أحداث الغزوة أن الذي دعا لحرب رسول الله والقائم على الترويح لتلك الحرب هم اليهود، بزعامة سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري^(١).

ولما وصلت الأحزاب إلى المدينة وفوجؤا بالخندق، ذهب حيي بن أخطب إلى سيد بني قريظة كعب بن أسد، فما زال به حتى نقض العهد، ومما قال له: "ويحك قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحباشها وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، ويحك يا حيي إنك مشئوم فدعنا منك"^(٢) فلم يزل به حتى نقض العهد مع رسول الله ﷺ.

وقد شق ذلك كثيراً على الرسول ﷺ وعلى الصحابة معه، لأنهم أصبحوا محاصرين من فوقهم ومن أسفل منهم، فلم يأمنوا على أنفسهم وأهليهم من خلفهم بسبب يهود بني قريظة.

(١) تراجع القصة، في هذا البحث موضوع سرد أحداث الغزوة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٢٠).

وقد فرق الله بين قريش واليهود وجعل الله السبب في ذلك إسلام نعيم بن مسعود رضي الله عنه وتحذيله لهم^(١)، ونصر الله تعالى جنده وهزم الأحزاب وحده، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة مؤيداً منصوراً.

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم، يغتسل من وعشاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل، فقال: (أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: "نعم"، قال: ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها، إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة) فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة)^(٢)، ثم حاصر الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود خمسة عشر يوماً، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه - سيد الأوس - فعند ذلك دعاه النبي صلى الله عليه وسلم وكان في المدينة يُعَالَج من سهم أصيب به في الخندق، فجاءه اليهود وقالوا يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، وهم يرققونه ويستعطفونه، وهو ساكت، فلما أكثروا عليه قال: "لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم" فلما وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم: (قوموا إلى سيدكم) فلما جلس سعد رضي الله عنه، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن هؤلاء وأشار إليهم، قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت) قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قال: (نعم)، قال وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: (نعم)، فقال سعد رضي الله عنه: "إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم، وأموالهم"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات)^(٣)، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٢٩)، البداية والنهاية (٤/١١٣). ولم تذكرها لعدم الإطالة.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤١١٧).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٩). البداية والنهاية (٤/١٢٣) وأصله في صحيح البخاري كتاب

المغازي باب غزوة الخندق (٤١٢١) من غير لفظ (من فوق سبع سماوات). وصحيح مسلم كتاب

الجهاد والسير باب جواز قتل من نقض العهد (١٧٦٩) نحوه.

بالأخاديد^(١) فخذت في الأرض، وجيء بهم مكثفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى النساء والأموال^(٢).

وهذه نتيجة الغدر، الاستئصال من هذه الدنيا، ولهذا يقول الله تعالى:

١- ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِيهِمْ﴾ أي: أن الله تعالى

أنزل الذين عاونوا الأحزاب وساعدوهم من يهود بني قريظة من حصونهم.

٢- ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: "الرعب هو الخوف، لأنهم عاونوا المشركين

على حرب رسول الله ﷺ، فأخافوا المسلمين وأرادوا قتلهم، ليعزوا في

الدنيا، فانعكس عليهم الحال، فكما أرادوا العز ذلوا"^(٣).

٣- "وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة

الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفة الخاسرة، ولهذا قال الله تعالى

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾: فالذين قتلوا هم المقاتلة،

والأسراء هم الأصاغر والنساء"^(٤).

٤- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾: أي: جعلكم ترثون أرضهم

وأموالهم وديارهم.

٥- وأورثكم ووعدكم ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّؤُوهَا﴾، وهذه الأرض قيل هي خيبر،

وقيل مكة، وقيل فارس والروم، قال ابن جرير رحمته الله: "وذلك كله داخل في

قوله: ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّؤُوهَا﴾^(٥) لأنه تعالى ذكره ولم يخصص من ذلك بعضا

من بعض". ولأن كل هذه الأماكن ملكها المسلمون إما في عهد رسول

(١) الأخدود: بالضم الحفرة في الأرض وجمعه أخاديد، انظر: لسان العرب (٣/١٦٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/٣٩٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/٣٩٩).

(٥) تفسير الطبري (١٩/٨٣).

الله ﷺ أو في عهد الصحابة من بعده، وهذا فضل من الله ونعمة على عبادة الذين جاهدوا وصبروا وتحملوا من أجل أن ينتصر الحق على الباطل، وهذه سنة الله في هذا الكون فالله تعالى يورث هذه الأرض الأصلح فإذا فرط فيها أخذها منه إلى من هو أصلح منه. قال تعالى في الحديث عن قصة موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالُوا أَوْدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [الأعراف ١٢٨-١٢٩].

وفعلاً كانت هذه الغزوة آخر غزوة للنبي ﷺ وأصحابه بالمدينة، فكان بعدها يغزو ولا يغزى كما قال ﷺ: (اليوم نغزوهم ولا يغزونا)^(١).

وختم ربنا جل وعلا النتائج بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: "أي: لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر"^(٢).

وهذا ختام كل جولة مع الباطل، وأهل الباطل، علم منها أن الحق دائماً هو المنتصر، ولكن النصر لا يأتي ولا يكون إلا لأهله، فيجري الله سبحانه الامتحان والابتلاء لكي يخرج من أهل الحق من يتسبون إلى أهل الحق، وهم أبعد ما يكونون عن الحق، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨﴾ [الأنفال ٧-٨].

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/٢١١ ح ٦٣٦٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٦ ح ١٣٣٩)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٨٧٩).

(٢) تفسير السعدي (٦١٠).

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

الموضوع الثالث

وصايا

للمؤمنين والمؤمنات

الباب الثالث

وصايا للمؤمنين والمؤمنات

المقدمة:

يركز البحث في هذا الباب على موضوع من موضوعات سورة الأحزاب والذي يتضمن بعض الوصايا التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ومسلمة، لتستقيم حياتهم على نور من الله.

ينقسم الباب إلى فصلين كما يلي:

الفصل الأول: وصايا لأمهات المؤمنين:

المبحث الأول: التحذير من ارتكاب الفواحش والتشديد في ذلك.

المبحث الثاني: الوصية بالخشوع والعمل الصالح وزيادة الأجر لهن في ذلك.

المبحث الثالث: النهي عن الخضوع بالقول.

المبحث الرابع: الأمر بالقرار في البيت.

المبحث الخامس: النهي عن التبرج.

المبحث السادس: الوصية بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

المبحث السابع: الوصية بطاعة الله ورسوله ﷺ.

المبحث الثامن: الهدف الذي جاءت الأوامر السابقة من أجله.

المبحث التاسع: الأمر بالدعوة إلى الله والتعليم.

الفصل الثاني: الصفات التي يجب على كل مسلم ومسلمة المحافظة

عليها:

(الإسلام، الإيمان، القنوت، الصدق، الخشوع، الصبر، الصدقة،

الصيام، حفظ الفروج، ذكر الله، الالتزام بأمر الله على الفور).

الفصل الأول

وصايا لأمهات المؤمنين

تمهيد:

قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتُ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٢١﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٢٣﴾ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٢٤﴾ ۝

ينبه الله ﷻ نساء رسول الله ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله واخترن الصبر مع النبي ﷺ على هذه الحياة الشاقة، ينبهن الله ﷻ خاصة، وسائر المؤمنات عامة على عدة وصايا مهمة، للاستمرار الكامل على منهج الله ومنهج رسول الله.

وهذه الوصايا جزء مما يحقق التقوى المأمور بها نبي هذه الأمة، وأتمه معه في ذلك الأمر؛ رجالاً ونساءً، ولما كانت النساء لا يجب عليهن الخروج للجهاد في سبيل الله المذكور في قصة غزوة الأحزاب وما حصل فيها من ابتلاء وشدة للمؤمنين ابتداءً وللمؤمنات تبعاً كما في قصة صفية بنت عبد المطلب ﷺ عمة النبي ﷺ مع اليهود^(١)، أردف الله قصة الغزوة وذلك الابتلاء بما خص به من الأجر أمهات المؤمنين خاصة، ونساء المسلمين عامة.

(١) خبر اليهودي الذي قتلته صفية ﷺ في الإصابة (٢/ ٦٤ و ٧/ ٧٤٤) والطبقات الكبرى (٨/ ٤١)،

وتهذيب الكمال (٦/ ٢٤)، وفتح الباري (٦/ ٢٤٨).

وخصهن بالخطاب بأوامر يتجلى فيها إيمان المؤمنات وتقواهن، وأفعال
تربيهن على خصال الإيمان ومعالي القربات، وعزائم الأمور التي بها يتربى البيت
المسلم على التقوى والإيمان بالله تعالى وحسن طاعة الله ورسوله ﷺ.
وتفصيل الكلام على هذه الوصايا كما يأتي في المباحث التالية:

المبحث الأول

التحذير من ارتكاب الفواحش والتشديد في ذلك

قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣).

الفاحشة: "هي النشوز وسوء الخلق، وهو في الآية شرط والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولما كانت مكانتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجانبهن وحجابهن الرفيع" (١)، "وأيضاً لشرف منزلتهن وفضل درجاتهن، وتقدمهن على سائر النساء أجمع، وقيل: لما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قوي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب، وقيل: إنما ذلك لعظم الضرر في جرائمهن بإيذاء رسول الله ﷺ، فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة في إيذاء رسول الله ﷺ" (٢)، والآية عامة في ذلك كله وغيره مما يمكن أن يدخل فيه.

قال تعالى: ﴿يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ "في الدنيا والآخرة. أي: أن يجعل عذاب من يأتي من نساء النبي ﷺ بفاحشة مبينة في الدنيا والآخرة، مثلي عذاب سائر النساء غيرهن" (٣).

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: "سهلاً، لا يمنعه جل شأنه عنه كونهن نساء النبي ﷺ، بل هو سبب له" (٤).

"واختار الله ﷻ نساء رسول الله ﷺ في الخطاب تكريماً لهن وتعظيماً لحقهن،

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٨).

(٢) القرطبي (١٤/ ١٧٤).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٩١).

(٤) روح المعاني (٢١/ ١٨٤).

وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهنّ وطهرهنّ" (١).

ومن هذه الآية نعلم أن الذنب يعظم بحسب فاعل الذنب، والمكان والزمان الذي وقع فيه الذنب...، "فالعقوبة تجب على قدر النعمة، ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبي ﷺ: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد" (٢).

وكذلك في الوقت كما في تحريم القتال بين المسلمين في الأشهر الحرم، فالقتال بينهم محرم في غير الأشهر الحرم ويزاد حرمة في الأشهر الحرم... وكذلك يتعاطم الذنب في المكان كما في تعظيم الذنب في مكة (٣).. وأيضاً تعظيم الذنب على من يقتدي بهم الناس - وهو الذي تشير إليه هذه

(١) فتح الباري (٤/٢٦٨).

(٢) القرطبي (٥/١٤٦).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٥٦) في الأشهر الحرم، وقال: "اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً وعظم حرمتهم وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم" وقال القرطبي ٣١/١٢ "قال ابن عمر: كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله! وبلى والله! وكلا والله! ولذلك كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحرم وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحل صيانة للحرم عن قولهم كلا والله وبلى والله حين عظم الله الذنب فيه، وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم فقبل له في ذلك فقال: إن كنا نتحدث أن من الإلحاد في الحرم أن نقول كلا والله وبلى والله والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات فتكون المعصية معصيتين إحداهما بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام وهكذا الأشهر الحرم سواء وقد تقدم. وروى أبو داود عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: (احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه) وهو قول عمر بن الخطاب والعموم يأتي على هذا كله... "وقال" ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة وإن لم يعملها وقد روي نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا: لو هم رجل يقتل رجلاً بهذا البيت وهو بعدن أبين لعذبه الله. قلت: هذا صحيح وقد جاء هذا المعنى في سورة ﴿رَبِّ وَالْقَلَمِ﴾ مينا على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى" أ.هـ.

الآية - "فكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم"^(١)، ففساء النبي هن قدوة لنساء العالمين فيجب أن يتصفن بأحسن الصفات ويتعدن عن كل الصفات والأعمال غير اللائقة بهن لأن النساء هن تبع.
ومما يجدر التنبيه إليه أمران:

الأمر الأول: ورد في سبب نزول سورة التحريم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي صلى الله عليه وسلم منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالَن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغاير؟ فإنه سيقول لك لا. فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطُ. وسأقول ذلك، وقولي أنت له يا صفية ذلك، قالت: - تقول سودة -: والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أباديه بها أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغاير؟ قال: "لا".
قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: "سقتني حفصة شربة عسل". قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطُ. فلما دار إليّ قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: "لا حاجة لي فيه". قالت - تقول سودة -: والله لقد حَرَمْنَاها، قلت لها: اسكتي"^(٢).
فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) القرطبي (٣٠١/١٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب الطلاق باب تحريم ما أحل الله (٥٢٦٨)، ومسلم كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (١٤٧٤)، وهناك روايات أخرى تشير أن النبي شرب عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم العسل هي زينب بنت جحش وهي كذلك عند البخاري.

رَّحِيمٌ ﴿الآيات [التحريم: ١].

فهذه الحادثة تبين ما وقع لرسول الله من قبل بعض زوجاته.

ثم بين الله لهنّ الصفات التي يجب أن يلتزم بها عن طريق الإيجاء والتلميح بإبدال النبي ﷺ غيرهن إذا لم يلتزم بها، ويقع منهن مثل ذلك الأمر، ولا شك أن كل هذه الصفات موجودة في أمهات المؤمنين، وهذه الصفات هي كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُٓٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٓٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مِمَّا كُنَّتِ مُمِئِنَاتٍ مِّمَّنَّتِ مُمِئِنَاتٍ قَنَيْتِ تَنَيْتِ عَيْدَاتٍ سَتَيْحَتِ تَيْبَتِ وَأَبْكَرًا﴾ [التحريم: ٥].

"الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين، والإيمان الذي يعمر القلب، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل، والقنوت وهو الطاعة القلبية، والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة، والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له، والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكر في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته، وهن مع هذه الصفات من الثيبات ومن الأبقار، كما أن نساء الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر"^(١).

ففي سورة الأحزاب نهاهن الله عن الوقوع في كل ما هو فاحش بين مما هو من مساوئ الأخلاق، وفي سورة التحريم نبههن تلميحاً على الصفات التي يجب عليهن أن يتصفن بها، وكن رضي الله عنهن جميعاً متصفتات بها.

الإمر الثاني: "أن الله ﷻ صان زوجات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الفاحشة، التي هي الزنا، وأما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ

(١) في ظلال القرآن (٦/٢٥٣).

فَخَانَتْهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿التحریم: ١٠﴾، فليس المراد بقوله ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ في الفاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١).

أخرج الطبري "عن سليمان بن قتة قال: سمعت ابن عباس يُسأل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله تعالى: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ قال: أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تحبب الناس أنه مجنون وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، قال ابن عيينة: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط^(٢).

(١) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب) (٩٦).

(٢) وانظر الآثار في تفسير الطبري (٤٩/٧ و ١٢/١٦٠).

المبحث الثاني

الوصية بالخشوع والعمل الصالح وزيادة الأجر لهن في ذلك

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: "ومن تخشع وتخضع لله ورسوله، ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ كالصلاة والصوم والحج وإيتاء زكاة، وقيل: المراد بالعمل الصالح الخدمة الحسنة والقيام بمصالح البيت والصلاة والصيام"^(١)، وقيل: "يطع ويخضع بالعبودية لله، وبالموافقة لرسوله"^(٢).

وقيل: "القنوت عبارة عن الخشوع، وخفض الجناح وسكون الأطراف وترك الالتفات من هيئة الله تعالى، وكان أحدهم إذا قام إلى الصلاة يهاب ربه، فلا يلتفت ولا يقلب الحصى، ولا يعبت بشيء من جسده، ولا يحدث نفسه بشيء من الدنيا حتى ينصرف"^(٣).

وجملة هذه الأقوال تدل على أن: "القنوت: الطاعة والخضوع، والعمل الصالح هو: الترجمة العملية للطاعة والخضوع"^(٤)، فمن عدل الله ﷻ كما أنه يضاعف العذاب عند المخالفة من أمهات المؤمنين، فإنه يضاعف الأجر والثواب عند الالتزام بمنهج الله ورسوله ﷺ، مع الخضوع له والعمل الصالح على منهجه وشرعه.

(١) روح المعاني (١/١٤).

(٢) البحر المحيط (٧/٢٢٥-٢٢٦).

(٣) تفسير الرازي (٢٢/٢٠٩).

(٤) في ظلال القرآن (٦/٧٥).

وقوله تعالى: ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: "يعطها الله ثواب عملها، مثل ثواب عمل غيرهن من سائر نساء الناس ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وأعدنا لها في الآخرة عيشاً هنيئاً في الجنة"^(١).

وقيل: ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: "مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبي عليه الصلاة والسلام بالقناعة وحسن المعاشرة"^(٢).

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ "ووصف رزق الآخرة بكونه كريماً، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفاً للرزاق إشارة إلى معنى لطيف، وهو أن الرزق في الدنيا مقدر على أيدي الناس، التاجر يسترزق من السوق، والمعاملين والصناع من المستعملين، والملوك من الرعية والرعية منهم، فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله. وأما في الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه، فلاجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم إلا الرزاق، وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق"^(٣).

ومما يؤخذ من هذه الآية والتي قبلها أن الله بدأ بالنهاي عن الفواحش ثم أعقب ذلك الأمر بالأعمال الصالحة وهذا له دلالات كثيرة من أهمها أن التربية الإسلامية تحث على التخلية قبل التحلية، أي ترك المنكر قبل فعل المعروف وذلك لأن المنهيات معدودة، ومأمورون باجتنابها كلياً، والمأمورات والمباحات غير معدودة بل وصفها محذود (كلُّ بر، كل معروف....) ونحن مأمورون بفعل المستطاع منها، والله تعالى أعلم.

(١) الطبري (٩٢/١٩).

(٢) تفسير البيضاوي (١١/٥).

(٣) تفسير الرازي (٢٢/٢٠٩).

المبحث الثالث

النهي عن الخضوع بالقول

"يبين الله تعالى لأمهات المؤمنين اختصاصهن بما ليس لغيرهن من النساء، ويقرر واجباتهن في معاملة الناس، و في عبادة الله، و في بيوتهن، ويحدثهن عن رعاية الله الخاصة لهذا البيت الكريم، وحياطته و صيانه من الرجس، و يذكرهن بما يتلى في بيوتهن من آيات الله و السنة، مما يلقي عليهن تبعات خاصة، و يفردهن بين نساء العالمين"^(١).

قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

"فهذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ و نساء الأمة لهنّ تبع في ذلك"^(٢)، و هذه الآداب إلى كل مسلمة تحب الله و رسوله و تقتدي بأمهات المؤمنين، إنها مجموعة آداب إسلامية إذا أخذت بها المرأة المسلمة حفظ الله عليها كرامتها و صان لها شرفها، و نالت بإذن الله في هذه الدنيا سعادة و احتراماً، و في الآخرة ثواباً و إكراماً"^(٣).

فالله تعالى يقول: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ أي: "يا نساء رسول الله لستن كأحد من النساء، فأنتن في مكان لا يشارككن فيه أحد، و لا تشاركن فيه أحداً، و هذا إنما يكون بتقوى الله، فليست المسألة مجرد قرابة من النبي ﷺ، بل لا بد من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسكن"^(٤).

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٠٨).

(٣) من لطائف التفسير (٣ / ١٤٥).

(٤) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٥٨).

﴿إِنْ أَتَقَيْتِنَّ﴾: "أي: إن أردتن التقوى، ابتداء شرط، وجوابه ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾" (١).

وقيل أنه: "شرط لنفي المثلية وفضلهن على النساء" (٢).

"فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لمن إنما تكون بملازمتهم للتقوى، لا مجرد اتصاهاً بالنبي ﷺ، وقد وقعت منهنّ والله الحمد التقوى البينة، والإيمان الخالص، والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته" (٣).

فإن كنتن متقيات: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾: "الخضوع بالقول هو: ترقيق الكلام إذا خاطب الرجل" (٤)، فمن علامات التقوى عدم الخضوع بالقول، وليس هذا دليل على أن غير المتقية يجوز لها أن تخضع بالقول بل إن الخضوع بالقول دليل على عدم تقواها لله.

"ولكن: من هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟! إنهن أزواج النبي ﷺ، وأمهات المؤمنين، اللواتي لا يطمع فيهن طامع، ولا يخطر عليهن خاطر مريض. وفي أي عهد يكون هذا التحذير؟! إنه في عهد النبي ﷺ، في عهد الصفوة المختارة من البشرية.

فالله سبحانه خلق الرجال والنساء وهو بهم أعلم، فبینه عباده هنا أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول ما يثير الطمع في القلوب، ويثير الفتنة في القلوب، وأن القلوب المريضة التي تطمع وتثار موجودة في كل عهد وفي كل بيئة،

(١) البحر المحيط (٧/٢٢٦).

(٢) روح المعاني (٣/١٤).

(٣) فتح القدير (٤/٢٦٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/٤٠٩).

وتجاه كل امرأة، ولو كانت هي زوج النبي الكريم، وأنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلص من الرجس، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس.

فكيف حال المجتمع الذي نعيش فيه اليوم، عصر غلب عليه الدنس والكلام الهابط، تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات، وتطغى فيه الأطماع^(١).

فإنه لا مخرج لنا مما نحن فيه من الفتن والمصائب، ولا حقوق للرجل أو للمرأة أفضل مما كفله رب العالمين، وخالقهم الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بغرائز وخصائص كل جنس، وأعطى لكل من الجنسين ما يناسبه قال تعالى:

﴿أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة ٥٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: "قولا حسناً جميلاً معروفًا في الخير"^(٢) أي: "فلا تقلن قولاً غليظاً ولا جافاً كما أنه ليس بلينٍ خاضع"^(٣).

وهنا يأتي دور التربية من الصغر على الأخلاق الحميدة، فتُعلّم الفتاة الصغيرة على الحشمة والفضلية والمحافظة على جميع عوراتها ومنها صوتها لأنه يُطمع الرجال في المرأة، وتعلم وتربى على عدم التقليد وخصوصاً تقليد غير المسلمين، وتربيتها أمها على العفة والطهارة بأقوالها وأفعالها، فللأم دور كبير في هذه الناحية فالبنت تحب تقليد أمها، وأمها بالنسبة لها هي القدوة وكذلك الأخت الكبيرة أو من يقوم على تربية الطفلة وهي صغيرة.

ولا ننسى دور الأب في التربية، فهو يربى أهل بيته ويعودهم وينشئهم على

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٠٩).

(٣) تفسير السعدي (٦١١).

الحفاظ على عرضه وعدم السماح لهم بفعل أي شيء يسيء إليه، وخصوصاً إذا ربط ذلك بمراقبة الله تعالى، فليس الأمر غيراً رجولية فقط؛ ولكنه حفاظاً على أمر الله وشرع الله، ومراقبةً لحدود الله وفق شرع الله بعيداً عن التفريط والإفراط.

ثم يتدرج الأمر مع هذه الفتاة الصغيرة إلى أن تكبر وتعيش في بيت الزوجية، فينتقل التوجيه والإرشاد من الزوج غيراً منه على زوجته وحباً لها وحفاظاً عليها وعلى عفتها وطهارتها، وقبل ذلك كله هو طاعة الله تعالى.

المبحث الرابع

الأمر بالقرار في البيت

قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ " هذا تنبيه لطيف إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياة المرأة، وهو المقر، وما عداه استثناء طارئ، فالبيت هو مثابة المرأة التي تجد نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى، غير مشوهة في أفكارها، ولا منحرفة في عقيدتها ولا ملوثة في أخلاقها، ولا مكدررة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة".

أصناف خروج المرأة:

١- الخروج للعمل:

"إن الأم المكدودة بالعمل وللكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه؛ لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها، ولذا فإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت، قد تبيحها وتستدعيها الضرورة، ولكن تقدر الضرورة بقدرها مع وجوب القيام بما أمر الله به من الحشمة.

أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي المصيبة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصر قلَّ فيه الخير والأمان، وكثر فيه الانتكاس والشرور والضلال"^(١).

٢- الخروج للاختلاط والملاهي:

"أما خروج المرأة لغير العمل، إنما للاختلاط ومزاولة الملاهي، والتسكع في النوادي والمجتمعات الفاسدة، فهذا هو الارتكاس في الحمأة الذي يرُدُّ البشر إلى

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٦٠، الوسيط ٢١/ ٦٢.

مراتع الحيوان"^(١).

٣- الخروج للحاجة:

أما خروج المرأة للمشروع من الأفعال مثل زيارة أهلها، وعيادة المريض، وتعلم أمر دينها.... فهذا لا بأس به بل تؤجر عليه، ولكن عليها التقيد بالحشمة، وعدم إضاعة حق من له حق كالزوج والأولاد، وأن تقدر هذه الضرورة بقدرها.

٤- الخروج للصلاة:

أما خروج المرأة إلى المساجد للصلاة فهذا لا حرج فيه، لقول رسول الله ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)^(٢). والأفضل أن تصلى في بيتها لقوله ﷺ: (وبيوتهن خير لهن)^(٣) ولقوله ﷺ: (إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان)^(٤) وزاد ابن حبان (وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها)^(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قال: (لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من

المساجد، كما منعت نساء بني إسرائيل)^(٦)!

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٦٠) بتصرف.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجمعة باب (١٣) (٩٠٠)، صحيح مسلم كتاب الصلاة باب خروج النساء للصلاة (٤٤٢).

(٣) سنن أبي داود ١/ ٢١٠ ح ٥٧٦، وأحمد في المسند (٧٦/٢) وصححه شعيب الأرنؤوط، والبيهقي في السنن ٣/ ١٣١ ح ٥١٤٢. وصححه الألباني كما في إرواء الغليل ٢/ ٢٩٣-٢٩٤ وصحيح سنن أبي داود ١/ ١٣١ ح ٥٣١، ونسبه ابن حجر للإمام مسلم الفتح (٢/ ٢١٥)، ولن ذكرنا في (٢/ ٣٤٩) وصححه في الموضعين.

(٤) سنن الترمذي كتاب الرضاع باب (١٨) (١١٧٣) وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ١١٨٩).

(٥) صحيح ابن حبان (١٢/ ٤١٣).

(٦) صحيح البخاري كتاب الأذان باب انتظار الناس قيام الإمام العالم (٨٦٩). صحيح مسلم كتاب الصلاة باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة (٤٤٥).

فإذا أحدث النساء في زمان عائشة؟! وماذا كان يمكن أن يحدث حتى ترى أن رسول الله ﷺ كان مانعهن من الصلاة في المساجد؟! وماذا تقول السيدة عائشة ؓ عما نراه في هذه الأيام?!.

وعلى هذا فالآية دليل على أن الأصل هو القرار في البيت، لأنه المحضن الذي ينتج الرجال والنساء الصالحين، الذين يتقون الله وعليه يتوكلون ولأمره يطيعون ولنهيته يجتنبون، فهو خير وأتقى لها ولمجتمعها وللأجيال القادمة بإذن الله تعالى. وقرارها في بيتها ليس تعطيلاً لها، بل إشغالاً لها بما يخصها، ويمكنها خدمة أمتها من خلاله، بل تخصص محمود، كما نادى بذلك عقلاء من جربوا خروج المرأة من بيتها.

المبحث الخامس

النهي عن التبرج

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾

يخبر الله ﷻ النساء عما يجب عليهن إذا اضطررن إلى الخروج لحاجتهن، بل وحتى في بيوتهن، فينبههن على أن لا يتبرجن تبرج الجاهلة الأولى، وما هو تبرج الجاهلية الأولى؟

"كانت لهن مشية تكسر وتغنج"^(١)، أو "أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها، وقرطها وعنقها، ويبدوا ذلك كله منها، تخرج تمشي بين يدي الرجال، ذلك تبرج الجاهلية"^(٢).

إذا كان هذا هو التبرج في الجاهلية، الذي ينهى الله عنه أظهر نساء العالمين، إننا نعيش في مجتمع أشد من المجتمع الجاهلي في تبرجه، فالأزياء لم تترك على المرأة ما يستر جسدها حتى ولو بقي عليها قطع من القماش - لا تزيدها إلا فتنة، وجمالاً مُزوراً - وهذا مصداق لحديث رسول الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات رؤوسهن كأسنة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها؛ وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)^(٣).

فترى الملابس الضيقة، والروائح الجذابة، والألوان والأزياء الغربية الملفتة، والأحذية المرتفعة في الحجم والصوت، وترى كشف الوجوه أو كشف العيون

(١) تفسير الطبري (١٩ / ٩٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٠).

(٣) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨).

بطريقة تلهب المشاعر وتثير الغرائز، ناهيك عن الميوعة في الكلام والترنح في المشية، وغيرها من مظاهر التبرج في العصر الحديث.

وظهرت أيضاً أنواعٌ من التبرج في البيوت، فترى الفتاة أو المرأة المتزوجة تلبس الملابس الضيقة والشفافة أمام النساء، بل ربما تلبسها أمام محارمها من الرجال أو بعض الأقارب من غير المحارم، وتجاوزت النساء في اللباس أمام بعضهن حتى أن بعضهن - هداهن الله - يكشفن أجزاء من جسدن لا يجوز لهن كشفها بل أنه لا يجوز أن يرها بهذا اللباس إلا زوجها.

وساعدهم على هذا التبرج وهذا السفور وسائل الإعلام الفاسدة، من الشبكة العنكبوتية، والقنوات الفضائية وأفلام الإباحة والعري، وأغاني الفيديو كليب...، وغيرها من الوسائل المدمرة للأخلاق والفضيلة، بل والدين، وذلك في غيبة الرقيب وتساهله، وهو ولي أمر البيت، سواء كان أباً أو أخاً أو عمّاً.... والأهم من ذلك غياب مراقبة الله تعالى وعدم التزام أمره، وتناسي توجيهاته التي فيها الخير والصلاح لهم.

فعلى المرأة المسلمة أن تتقي الله تعالى بأن تلتزم بدينها وأن تدعو الله تعالى دائماً أن يسترها، وأن تسعى هي في ذلك، وتبتعد عن كل ما يجعلها تتطلع إلى مثل هذه الفتن، وأن تبتعد عن رفيقات السوء اللاتي يجنبنها ويسعين بحثها على التشبه بأعداء الإسلام وأعداء الفضيلة، وكذلك عليها أن تبتعد عن تتبع الأزياء في وسائل الإعلام المختلفة التي تحثها على الكشف عن عوراتها، وأن تجعل جسدها محل أنظار الجميع...، أما إذا أرادت أن تزين لزوجها فقط فلا بأس بذلك، بل هي مأجورة على ذلك، ولكن في حدود بيتها بعيداً عن رؤية أي أحد إلا زوجها فقط.

ولا يمنع الشرع من التزين أمام المحارم سواء من النساء أو الرجال، فالزينة من الأفعال المحمودة، بل هي من الأفعال التي حث عليها شرعنا الحنيف، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله جميل يحب الجمال)^(١)، ولكن بالالتزام بالضوابط الشرعية في ذلك^(٢).

فالإسلام لا يكبت الغرائز النفسية بل ينظمها بما يصلحها، فالزينة في جانب النساء خاصة جليّة وطبعٌ قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، ولذا خصت النساء بأحكام خاصة بهن دون الرجال في الزينة تنظيماً وضبطاً لها لا منعاً لها.
والله تعالى أعلم.

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٢) انظر: مبحث أحكام الزينة في بحث التفسير الموضوعي لسورة النور- للمؤلف، وأحكام زينة النساء للدكتور عبد الله الفوزان، ودليل المرأة المسلمة للدكتور علي بن سعيد الغامدي.

المبحث السادس

الوصية بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

قال تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

أي: "وأقمن الصلاة المفروضة، وآتين الزكاة الواجبة عليك في أموالكن وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيهَا أَمْرٌ وَنَهْيٌ" (١)، وقيل: "أقمن الصلاة فرضاً ونفلاً، لأنها صلة لما بينكن وبين الخالق لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وآتين الزكاة إحساناً إلى الخلائق" (٢). وهما متلازمان فمن لم يقيم بالفرض لن ينفعه نفل مع ترك أصله الواجب، ومن ضيع النوافل بالكلية فقد ضاع منه جزء من الفرض بلا شك، لأن النوافل متمات وجوابر نقص الفرائض، وهي أحب العمل لله كما صح به الحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) (٣).

فأمر بالصلاة والزكاة: "فالصلاة فيها ترك التشبه بالجبار المتكبر، والزكاة فيها

تشبه بالكريم الرحيم سبحانه" (٤).

(١) الطبري (١٩/١٠٠-١٠١).

(٢) نظم الدر للبقاعي: (١٥/٣٤٥).

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢).

(٤) تفسير الرازي (٢٢/٢١٠) بصرف.

وخصّ الصلاة والزكاة: "لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية"^(١).
وقيل: "خص الصلاة والزكاة بالأمر ثم عم بجميع الطاعات تفضيلاً لهما
لأنهما أصل سائر الطاعات فمن اعتنى بهما حق العناية جرتاه إلى ما وراءهما"^(٢).
وقد جعل الله الفاصل بين الإسلام وغيره من السبل المنحرفة عن أمر الله
"الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف
أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله ﷻ، وبعدها أداء الزكاة
التي هي نفع متعدد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة
بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة"^(٣).

"وخص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنها - طاعة الله ورسوله - تشرifa
وتنبيها على قدرهما إذ هما رأس الأعمال؛ الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال
المال"^(٤).

"وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثيرٌ جداً، فبالقيام بالصلاة
والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية، إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه
الأسماء الجامعة، يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى، ودعاؤه وتلاوة كتابه، وإخلاص
الدين له، والتوكل عليه، وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع، من نصر
المظلوم، وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج"^(٥).

(١) فتح القدير (٤/ ٢٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١١١).

(٤) القرطبي (٣/ ٣٦٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٦٢).

المبحث السابع

الوصية بطاعة الله ورسوله ﷺ

﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ "أمر بالطاعة لله ورسوله فليس التكليف منحصرًا في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه"^(١). "أريد بهذه الأوامر الدوام على الطاعة لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حق توجه التكليف عليهم، وفي هذا مقمع للزاعمين أن الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم التكاليف الشرعية"^(٢).

وطاعة الله تعالى التي أمر الله بها النساء ليست مقصورة على الأمور التي ذكرت في تلك الآيات، وإنما طاعة الله أشمل وأعم من ذلك، وما تلك الأمور إلا أصول العبادات، فكما أن الصلاة والزكاة طاعة لله، فكذلك الصيام، والحج، والحجاب، وطاعة الزوج، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وذكر الله، ونصرة دين الله بكل الوسائل المستطاعة، وخدمة أمتها ومجتمعها، والحفاظ على عفتها وطهارتها... والقيام بواجباتها اليومية سواء تجاه ربها أو أبنائها أو زوجها أو أقاربها أو مجتمعها.. كل هذه الأمور وغيرها مما أمر به الله هي من الطاعات الداخلة تحت قوله تعالى: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٣).

(١) تفسير الرازي (٢٢/٢١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/١٣).

(٣) للاستزادة أنظر كتاب دليل المرأة المسلمة كاملاً وخصوصاً مبحث: مسؤولية المرأة المسلمة (١٣١-١٤٨).

"إن طاعة الله وعبادته الزاد الذي يقطع به السالك الطريق، فلا بد من صلة بالله يأتي منها المدد والزيد، ولا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه، فالإسلام وحده هو الذي يجمع الشعائر والآداب والتشريعات كلها في نطاق العقيدة، ولكل منها دور تؤديه في تحقيق هذه العقيدة، وتتناسق كلها في اتجاه واحد، ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين، فالقيام بحقوق الخالق يستلزم القيام بحقوق المخلوقين، والصدق في التعامل مع المخلوقين يستلزم الصدق مع الخالق أيضاً، وبدون القيام بحق الله وحقوق المخلوقين لا تقوم الحياة المستقيمة الآمنة المطمئنة.

ولذا كان الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، هو ختام التوجيهات الأخلاقية السلوكية لأهل البيت الكريم، لأنه لا يقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة، وكل هذا لحكمة وقصد وهدف"^(١).

المبحث الثامن

الهدف الذي جاءت الأوامر السابقة من أجله

هذا سؤال مهم يتبادر إلى ذهن كل ذي عقل يقرأ هذه الآيات الكرييات، ولقد جاء الجواب في ختام الآيات: قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

إن وسائل التطهر التي أمر الله بها، أهل بيت رسول الله، وزوجات رسول الله وأطهر من عرفت البشرية من النساء، وعلى هذا فالأمر لغيرهن من النساء أوجب، وغيرهن أحوج إلى الالتزام بهذه التوجيهات لكي تتطهر نفوسهن من الرجس والمنكر.

"إن الذين يدعون المرأة إلى النعيق في المجتمعات والتسكع في الطرقات والتبرج والاختلاط في الاحتفالات، إنما ينصبون لها حبائل شيطانية ليصطادوا شرفها وعفتها ودينها باسم الحرية والحقوق ومساواة الجنسين، وتلك شعارات الشيطان. نعم هؤلاء يريدون لها الرجس والدنس والعار، أما ربنا جل وعلا فيريد لكل بيت من المؤمنين أن تصان حرمتهم وتطهر أعراضهم، وما أجمل وأنبل مقاصد الشرع الحكيم الذي نهى المرأة عن كل ما ينال من دينها وأخلاقها وعفافها، يريد الإسلام أن يصون المرأة المسلمة كما يصان اللؤلؤ وتصان الجواهر في الأحرار، أما المنافقون والهدامون فيريدون أن تبتذل المسلمات كما يبتذل سقط المتاع"^(١).

(١) من لطائف التفسير (٣/ ١٤٩).

المبحث التاسع

الأمر بالدعوة إلى الله والتعليم

ولسائل أن يسأل: منعتم المرأة من الخروج لغير حاجة، فماذا يمكنها فعله إذا تفرغت من واجباتها اليومية؟

إن الجواب عن هذا السؤال في الوصية التالية في الآية بعدها مباشرة، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(١) والمراد بآيات الله القرآن، والحكمة أسراره وسنته^(٢)، "اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، وهي أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة رضي الله عنها أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة. فإنه لم ينزل الوحي في فراش امرأة سواها"^(٣). "وهذا من حكمة الله ﷻ ولطفه ورحمته بهذه الأمة، أن جعل بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن مدارس لنشر العلم والسنة، بقي فيها من أزواج النبي ﷺ من يُعيد سيرته وتذكر الناس بسنته، على مدى خمسين عاما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كأن الوحي لم ينقطع، وكأن الناس من أنواره في شمس لا يللم بها أفول.

وهذا أيضا من حكم تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فقد كان لهن رضي الله عليهن دور كبير في حفظ السنة وتعليمها للناس"^(٣).

يأتي التوجيه الأخير في الآيات تذكيراً بمكانة بيت النبي ﷺ، ومكانة أهل

(١) تفسير السعدي (٦١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤١٦/٦).

(٣) من موضوعات سور القرآن (١١٠).

بيت النبي، وما يتنزل من الأحكام والتشريعات على النبي ﷺ، وهكذا كل مؤمن ومؤمنة يجب أن يقوم ببلاغ ما وصل من دين الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (بلغوا عني ولو آية)^(١)، (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها...)^(٢).

إن اشتغال المرأة بذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وقراءة سيرة النبي الكريم ﷺ، والتأمل في أفعاله وأقواله يغني المرأة المسلمة في روحها، ويعلي من شأنها، ويزيدها بهاءً في عين زوجها وأولادها وأخواتها، بل ويخرج نبتة طيباً بإذن الله تعالى، فيترتب المجتمع على ذكر الله والفقهاء في دينه، لا سيما الجيل الصاعد الذي يصبح يرضع الإيمان منذ ولادته، بدلاً من مجالات الأزياء، وقصص اللهو والعبث، والإعلام الفاسد، والتربية على أيدي آخرين ممن لا دين لهم، أو دينهم مخالف لديننا.

إن البناء من الأساس على التقوى والإيمان هو المخلص لنا من مشكلات الحياة التي ضجر منها الكافر والمسلم، وكل الهدى والرحمة والنور فيما شرعه الله وأمر به خير الخلق محمد ﷺ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: يدرك سرائر الأمور وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تَبِينُ أو تُسَرُّ، فلطفه وخبرته يقتضي حث خلقه على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال مهما خفت عن الخلق^(٣).

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

(٢) سنن ابن ماجة كتاب المقدمة باب من بلغ علماً (٢٣٠)، جامع الترمذي كتاب العلم باب الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٨٧)، والسلسلة الصحيحة (٤٠٣).

(٣) تفسير السعدي (٦١٢).

وخلاصة المعنى في الآية:

هذه هي أخلاق زوجات النبي ﷺ التي يجب على كل زوجة مسلمة أن تلتزم بها، وتعمل على تكميلها في نفسها وفي بيتها ومع أبنائها، وأيضا يجب على كل مسلمة المحافظة على تلك الصفات، لتفوز بالأجرين في الدنيا والآخرة.

وعلى هذا فإنه يجب على زوجات الدعاة، وعلى الداعيات أن تكون صفاتهن مثل صفات أمهات المؤمنين، فهي الصفات العليا. وأن يترفعن عن أي فاحشة ومنكر لأن التي تؤذي نفسها من الداعيات أو زوجات الدعاة بارتكاب أي منكر، فإنها تؤذي الدعوة كلها، وتؤذي جميع أخواتها من زوجات الدعاة.

وأیضا عليهن الالتزام بالأخلاق الفاضلة، لأن ذلك فيه رفعة لهن أولاً عند الله، ورفعة لأزواجهن أمام المدعوين، وقدوة لكل النساء، فإن الداعية إلى الله في كل شؤون حياته كتاب مفتوح أمام الناس، وأي غلط في هذا الكتاب فإن الأضواء تسلط عليه أكثر من غيره.

وكل مسلمة هي داعية إلى الله تعالى بقولها وفعلها لأن الله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۗ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]. وحذر سبحانه أشد التحذير من مخالفة أمره أو مخالفة أمر رسوله ﷺ فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وإن إضافة الخطاب لأمهات المؤمنين تشريف لهن وحث للمؤمنين والمؤمنات على الاقتداء بهن والالتزام بما أمرهن به والحذر مما نهاهن الله عنه.

ولذا فإن الله يسمو بعبادة المؤمنين والمؤمنات بأن يشرفهم في الخطاب، ويناديهم بأشرفها وأرفعها وأحبها لنفوسهم، اللهم إنا نسألك شكر نعمتك والقيام بطاعتك...

الفصل الثاني

الصفات التي يجب على كل مسلم ومسلمة المحافظة عليه

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالْمُكْرِمِينَ وَالْمُكْرِمَاتِ وَالَّذِينَ كَانُوا لِقَوْلِ اللَّهِ عَدْلًا اللَّهُ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٥٦﴾.

إن هذه الصفات تتعاون في تكوين النفس المسلمة، وبناء الشخصية المسلمة الكاملة، فلكل صفة منها دور في الرقي بالإنسان وبالشخصية المسلمة.

فالصفات التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتصفا بها ليرتقيا وليكونا نموذجاً مسلماً صحيحاً^(١):

المطلب الأول: الإسلام:

"أي الداخلين في الإسلام، المنقادين لحكم الله تعالى، المفوضين أمرهم لله ﷻ"^(٢). وهو وصفٌ يشمل الشهادتين، وسائر الأركان الخمسة، بل وأوصاف وأعمال لها أثرها الظاهر مثل قول النبي ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)^(٣).

(١) سلكت مسلك الإيجاز والإجمال في هذا الفصل للتنبيه على معنى تلك الصفات التي ذكرها الله ﷻ وحث عليها عباده اختصاراً، لمناسبة الحال، وإلا فلا شك أنها جديرة بأن تكون موسوعة شاملة لحاجة المسلمين اليوم إليها والله المستعان.

(٢) روح المعاني (٢٢ / ٢١).

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون (١٠). صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تفاضل الإسلام وأي الأمور أفضل (٤٢ - ٤١).

وإذا ذكر الإسلام والإيمان في موضع واحد فالمقصود بالإسلام أعمال الإسلام الظاهرة، والمقصود بالإيمان أعمال الإسلام القلبية، كما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله، إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه: وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، قال صدقت،....^(١)). ولقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

المطلب الثاني: الإيمان:

وهو التصديق بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح لكل ما أخبر الله به وكل ما أمر به، أو نهى عنه. ويشمل الإيمان بالأركان المذكورة في حديث جبريل المتقدم. بل وسائر شعب الإيمان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)^(٢). فهو وصف يشمل أعمالاً ظاهرة وباطنة، وهو درجة أعلى من الإسلام، فتدخل أعمال الإسلام فيه.

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان (٨). ويمكن مراجعة شرح هذا الحديث في جامع العلوم والحكم الحديث الثاني، وصحيح مسلم بشرح النووي، وشرح الأربعين النووية للشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب شعب الإيمان (٣٥).

المطلب الثالث: القنوت:

"في هذه الآية تدرج من الأدنى إلى الأعلى؛ حيث ذكر الإسلام، ثم ذكر المرتبة التي فوقه وهي الإيمان، ثم ذكر القنوت وهو ناشئ عنهما. والقنوت: هو الطاعة في سكون"^(١)، وتعتبر هذه الصفة ناتجة عن الاستسلام لله والإيمان بالله. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيْتُ ۚ أَنَا ۚ الْبَلِيْلُ سَاجِدًا وَقَائِمًا تَحَذِرُ ۚ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

فالقنوت هو دوام الطاعة، والقانت لله ﷻ هو الإنسان المطيع الدائم على الطاعة، فلا يطع ربه في الأمر الذي يروق له ويعصيه فيما يخالف هواه، أو يطع بعض الوقت ثم يُعرض بعد ذلك.

المطلب الرابع: الصدق:

الصدق علامة الإيمان، كما أن الكذب علامة النفاق. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. وعن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: حفظت من رسول الله ﷺ: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة)^(٢). وقال رسول الله ﷺ: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٨).

(٢) سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب (٦٠) (٢٥١٨) وقال الترمذي حسن صحيح. وصححه الألباني

في صحيح سنن الترمذي ح (٢٠٤٥).

الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً^(١).

وإن حقيقة الصدق أوسع من كونها الصدق في الحديث فقط، وإنما حقيقة الصدق شاملة لصدق النية والعزيمة، وصدق اللسان، وصدق الأعمال كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومنزلة الصدق منزلة عظيمة ليست في دين الإسلام فقط بل في جميع الأديان، لا لأنه خلق من الأخلاق الحميدة فحسب، بل لأنه أصل الإيمان المقبول عند الله عز وجل، وهو أساس النجاة من عذاب الله ﷻ، وبه يتميز أهل الإيمان الحق من المنافقين الكاذبين، وإن الصدق في كل الأمور يوصل صاحبه إلى مرتبة الصديقين قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وإن الله ليختبر خلقه ليظهر منهم الصدق: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦٠٩٤).

صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب الكذب وحسن الخلق وفضله (٢٦٠٧).

المطلب الخامس: الصبر:

وهو الركن الرابع المكمل للنجاة في الدار الآخرة، والنجاح في الدار الدنيا، وبالصبر يستطيع المسلم أن يقوم بأوامر دين الله واجتناب ما نهى الله عنه، وحمل رسالة الله إلى الناس وتحمل مصاعب ذلك، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر ١-٣].

وقد أمر الله به ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ووعد عليه الأجر العظيم من الرب الكريم: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].
وأجمل ما وصف به الصبر وصف النبي ﷺ له بقوله ﷺ: (والصبر ضياء..)^(١).

وفسر رسول الله ﷺ الصبر بقوله: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن)^(٢).

المطلب السادس: الخشوع:

وهو ضراعة القلب، وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلاً، وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه. وهو أيضاً: "السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته"^(٣).

(١) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).

(٢) صحيح مسلم كتاب الزهد باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٨).

ومحل الخشوع: القلب، وثمره الخشوع تظهر على الجوارح، ولذا قيل: إذا خشع القلب، خشعت الجوارح، وذلك لأن القلب ملك البدن، وأمير الأعضاء، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده.

فعلى المسلم أن يتعاهد قلبه في جميع أحواله ليدفع عنه القسوة؛ فإنها إذا استبدت به منعت الخشوع. والله ﷻ يريد من عباده الترقى في سلم الإيمان، ودرجات اليقين، ولذا: عاتب المؤمنين الذين لم يبلغوا قمة الخشوع؛ حيث تدل حركتهم البطيئة على ضعف لا يرضاه الله فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وفي الآية تلويح بما كان عليه أهل الكتاب من قسوة أورثتهم الفسق في الأعمال، ومن هنا كان التحذير الشديد من مآلهم، حيث طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم، وذهب إيقانهم.

ثم قطع الله دابر اليأس، وبعث الأمل؛ فإن القلب القاسي يمكن عودته إلى الله وإقباله عليه؛ كالأرض يحييها الله بعد موتها، قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيُّ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، خاطبهم بكل ذلك؛ ليزدادوا قرباً منه تعالى، فتوجل قلوبهم لذكره، وتسكن قلوبهم لأمره؛ ليكونوا من المخبتين، فيتأهلوا لدار كرامته، ويصيروا من أهل النفوس المطمئنة لتنادى بالنداء الكريم العظيم: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

والخشوع يرتبط ارتباطاً كبيراً بالصلاة لأن أعمالها تتضمن الذكر، والدعاء،

وقراءة القرآن، والركوع، والسجود، وهي مواطن الخضوع والبكاء والخشية والتخشع قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

المطلب السابع: الصدقة:

وهي الإحسان إلى أصحاب الحاجة، ببذل المعروف المادي والمعنوي طاعةً لله، وإحساناً إلى خلقه، ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شالها ما تنفق يمينه)^(١). وقال ﷺ: (.. والصدقة برهان)^(٢). وفي الحديث الآخر: (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)^(٣).

وأعظم الصدقة بذل الندي وكف الأذى، وهي صفة أصحاب النفوس الكبيرة والمنازل العليا في الدنيا والآخرة، لأنها تجرد من حظوظ النفس ودنيا الطباع، وسمو بالنفس والروح، والتطلع إلى ما عند الله، والترفع عما في أيدي الناس ﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿٢﴾ فَوَقْنُهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّْنَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٩-١١].

المطلب الثامن: الصيام:

وهو الامتناع عن الشهوات المباحة (الأكل والشرب والنكاح) تعبداً لله، وقربة إليه، وابتغاء ثوابه، ويتبعه الابتعاد عن غير المباحات من الأفعال والأقوال

(١) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).

(٣) صحيح سنن الترمذي كتاب الجمعة باب ما ذكر في فضل الصلاة (٦١٧)، مسند أحمد (٣/ ٣٢١).

الظاهرة والباطنة تجردا لله، وطمعاً فيما عنده.

فالصوم يطهر القلب ويطهر البدن من التعلق بالدنيا وأسبابها فضلاً عن الغرق فيها.

"الصيام من أقوى العبادات على تهذيب النفس والسمو بالأرواح إذ فيه إعداد للنفوس، وتهيئة لها على تقوى الله ومراقبته، وفيه تربية لقوة الإرادة على كبح جماح الشهوات، وأنانية النفوس، ليقوى صاحبها على ترك ما يضره من مألوفات أكلاً وشرباً أو متاعاً، فيكون قوي الإرادة في الصبر على ما حرمه الله وما يضره في بدنه أو ماله، وقوي الإرادة في الإقدام على أمثال أوامر الله التي من أعظمها حمل الرسالة المحمدية والدفع بها إلى الأمام، ساخراً بما أمامه من كل مشقة وصعوبة.

ففي الصوم خير تربية للنفس على القوة العامة في كل شيء، وعلى فضائل الصراحة في القول والإخلاص في العمل، وعلى الجد والحزم ورباطة الجأش بقوة العزم، فهو يعلم الناس كيف يترفعون عن مظاهر الحيوان التي غاية همها الأكل والشرب وإشباع الغريزة"^(١).

والنبي ﷺ يحث على الصوم، وبالذات للشباب لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)^(٢).

(١) الصوم مدرسة تربي الروح وتقوي الإرادة للدوسري - (٨).

(٢) صحيح البخاري كتاب الصيام باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة (١٩٠٥). صحيح مسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن المؤنه بالصوم (١٤٠٠).

المطلب التاسع: حفظ الفروج:

ولما كان الصوم، من أكبر العون على كسر الشهوة ناسب أن يذكر بعده حفظ الفروج عن كل ما حرم الله، ودواعيه، لأن الفروج محل الشهوة، فإذا طغت الشهوة احتاج العبد إلى كبح جماحها ولجامها بما يتناسب شرعاً، لذلك سماه حفظاً كحارس حيوان مفترس إن لم يحفظه ويلجمه بما يناسب حاله، اعتدى على حرمت الآخرين، ولذا جعل الشارع الحكيم حفظ الفروج من أسباب النجاة في الدارين، قال تعالى في وصف المفلحين يوم القيامة: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥-٧]، وقال رسول الله ﷺ: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)^(١).

وأما كيف يكون حفظها؟ فذلك باجتناب الزنا واللواط والسحاق، وكذلك اجتناب العادة السرية، والأسباب المفضية للوقوع في كل ما سبق من: نظرة محرمة أو عدم استئذان، أو التبرج والسفور، أو الخلوة بالأجنبيات..... وغيرها من دواعي الوقوع في الشهوات المحرمة^(٢).

المطلب العاشر: ذكر الله:

عبادة الله باللسان والقلب تسمى ذكراً، وكل طاعة لله ورسوله وتأمل في آيات الله الكونية أو المتلوة فإنه ذكر لله، ولذا فإن حقيقة الذكر حضور القلب

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان (٦٤٧٤).

(٢) هذا الذي ذكرناه مختصراً جداً، وللإستزادة يمكن مراجعة تفسير سورة النور للمؤلف نفسه، مبحث

تحت عنوان: عوامل الوقاية من الوقوع في الزنا.

والذهن لاستعظام الرب جل وعلا، وليس مجرد ترديد كلمات من طرف اللسان. وختم الله به صفات عباده لأنه حارس على القلب من أن تجتاله الشياطين وتلعب به فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]. وما بالك بمن نسيه الرحمن جل وعلا: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

بل أمر الله عباده أن يكونوا ملازمين لذكره حتى يكون ربهم الرحيم اللطيف قريباً منهم ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والذكر من أعظم العبادات التي لها أثر ظاهر على الحياة الدنيا ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله) ^(١). والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جداً.

هذه هي الصفات الحقيقية للمسلم والمسلمة، التي إذا التزموا بها حصل لهم وعد الله تعالى في ختام الآيات: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾: أعطاهم الله تعالى المغفرة التي يبني عليها الرحمة التي يدخل بها هؤلاء الجنة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونكر لفظ المغفرة والأجر ليفيد العموم والسعة والشمول، فسبحان من وسعت رحمته كل شيء.

(١) صحيح سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل الذكر (ح ٣٧٩٠). المستدرک علی الصحیحین

المطلب الحادي عشر: الالتزام بأمر الله على الفور:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾. هذه الآية تعرض نموذجاً عملياً للاستسلام لله تعالى، ولأمر رسول الله ﷺ وعدم معصية أمر الله تعالى، وذلك في قصة سبب نزولها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية، فخطبها فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: (بل فانكحيه). قالت يا رسول الله، أوامر نفسي. فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ﴾، قالت: قد رضيت لي منكحاً يا رسول الله؟ قال: نعم. قالت: إذا لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد أنكحته نفسي" (١).

وهذه الآية مع مناسبتها ووجود حادثة نزلت فيها، إلا أنها تضع القاعدة الأساسية للاستسلام لأمر الله تعالى "فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]" (٢). وقال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) (٣).

(١) تفسير الطبري (٢٢ / ٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب قرة العينين (١ / ٣٨٤٥). وقد ضمه الإمام النووي إلى كتابه الأربعين النووية الحديث الحادي والأربعون، وقال رحمته الله هذا حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحججة بإسناد صحيح.

ولذلك شدد الله تعالى في معصيته فقال: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وعلى هذا فيجب على كل مسلم ومسلمة الاستسلام الكامل لله تعالى ولرسوله، وعدم إبداء الاعتراض أو الامتناع، ويجب عدم التأخر في تنفيذ أوامرهما، بل يجب عليهم المسارعة في ذلك، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد كان هذا سمات القرون المفضلة ومن تابعهم بإحسان إلى يومنا هذا، وسيرة الصحابة كلها نموذج على سرعة استجابتهم للأمر وعدم الاعتراض على حكم الله وشرعه أو التردد أو التأويل أو الامتناع وضييق الصدر بل الاستجابة على الفور، حتى إن أحدهم كان قد رفع كأس الخمر عند شفثيه فلما سمع التحريم ألقاها، وقاموا إلى آنيتها فسكبوها ولم يسألوا أو يترددوا أو يستوثقوا، مع أنها حبيبة لنفوسهم، واعتادوا عليها بل هي محل فخر واعتزاز^(١)، ولكن النفوس الكبيرة المطيعة المخيبة ليس لديها أعظم من أمر الله، ولا أحب من الاستجابة لمرضاته.

(١) للاستزادة انظر أخبار تحريم الخمر وسرعة استجابة الصحابة وذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

الموضوع الرابع

علاقة النبي ﷺ بأُمَّته

الباب الرابع

علاقة النبي ﷺ بأمة

إن النبي ﷺ قدوتنا، وحياته وسيرته نبراسٌ ونور يقتدى به، والقرآن الكريم منهجنا وشرعتنا الذي يوجهنا إلى ما يحب ربنا ويرضاه، فهو يعرض لنا حياة رسولنا ﷺ كالكتاب المفتوح ولا يخفي عنا شيئاً من أحواله ﷺ.

وحيث أننا أتباعه ﷺ فقد بين الله لنا في سور القرآن عموماً وفي سورة الأحزاب خصوصاً علاقة النبي ﷺ بأمة وما واجبه تجاه أمة وما هي وظائفه، وماذا علينا تجاه تلك النعمة التي أنعم الله بها علينا بهذا النبي ﷺ. وحيث أن زوجاته عليه الصلاة والسلام من ألصق من يكون حوله فقد بين لنا القرآن علاقته مع زوجاته ﷺ.

فمن واجب التعرف على حياة رسولنا ﷺ وعلاقته بنا ودوره في تقويم حياتنا، جاء هذا الباب لدراسة بعض الآيات التي جاءت في سورة الأحزاب.

ينقسم الباب إلى ثلاثة فصول كما يلي:

الفصل الأول: الولاية وأحكامها:

المبحث الأول: ولاية النبي ﷺ للمؤمنين.

المبحث الثاني: ولاية المؤمنين بعضهم لبعض.

المبحث الثالث: ولاية المؤمنين للأنبياء السابقين.

الفصل الثاني: علاقة النبي ﷺ بأمة وأصناف المدعوين:

المبحث الأول: علاقة النبي ﷺ بأمة.

المبحث الثاني: وجوب شكر الله تعالى على تمام نعمته وامتته.

- المبحث الثالث: مهام ووظائف النبي ﷺ.
- المبحث الرابع: علاقة النبي ﷺ بالأصناف الثلاثة.
- الفصل الثالث: الحياة الزوجية في بيت النبوة:
- المبحث الأول: إباحة الله لنبيه ﷺ الزيادة على أربع.
- المبحث الثاني: النساء اللاتي أحلهن الله تعالى لنبيه ﷺ.
- المبحث الثالث: قَسَم النبي ﷺ بين زوجاته.
- المبحث الرابع: جزاء زوجات النبي ﷺ في اختيارهن الصبر والدار الآخرة.

الفصل الأول

الولاية وأحكامها

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣﴾﴾.

المبحث الأول

ولاية النبي ﷺ للمؤمنين

في هذه الآيات يؤكد الله ﷻ على أن ولاية الرسول ﷺ لكل الناس، ولأهميتها ووجوبها قدّمها على ولاية النسب والنفس، فقال تعالى: ﴿الَنْبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: "النبي أجدر وأحق بالمؤمنين في كل الأمور الدينية والدينية"^(١).

"فقد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته، ونصحهم لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدما على اختيارهم لأنفسهم"^(٢)، "والحق أن النبي ﷺ هو أولى بكل مؤمن من نفسه، لأن النفس قد تجر الإنسان إلى التهالك في دروب الشهوات، أما الرسول فلا يدل إلا على الخير"^(٣).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿الَنْبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضيعاً، فليأتني فإني مولاه)^(٤). "فيقضي رسول الله ﷺ دين من يموت من أصحابه، ويتولى رعاية

(١) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٨٠).

(٣) من لطائف التفسير (٣ / ١٣٥).

(٤) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿الَنْبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٤٧٨١). صحيح مسلم كتاب الفرائض باب من ترك مالا فلورثته (١٦١٩) مع اختلاف في بعض الألفاظ.

أولادهم بعدهم، فما أعظم رحمته بالمؤمنين وما أشد شفقتة عليهم^(١).

والنبي ﷺ أولى بالحكم بين الناس قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والنبي ﷺ أولى بالحب، ولهذا وجب أن يكون حب النبي ﷺ مقدماً على كل شيء، فقد قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)^(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: (لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك). فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال: الآن يا عمر^(٣).

بل قد جعل الله محبته واتباعه ﷺ شرطاً لتحقيق محبة الله الخالق الرازق سبحانه ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن ولاية المؤمن لنبيه محمد ﷺ احترام وتقدير من له بهم صلة وقرابة وحرمة، فبدأ سبحانه بالزوجات فقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: "في الحرمة والاحترام والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا

(١) من موضوعات سور القرآن (سورة الأحزاب ٤٨).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حب الرسول من الإيمان (١٥-١٤). صحيح مسلم كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين (٤٤).

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان والندور باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢).

ينتشر التحريم إلى بناتهن، وأخواتهن بالإجماع"^(١).

هذا من جانب ومن جانب آخر: "لنقف برهة أمام هذه الآية الكريمة فنستجلي من روائع الجمال اللفظي وبدائع التفضيل المعنوي ثم نقول ذلك فضل الله يأتيه من يشاء:

١. وصف القرآن الكريم محمداً ﷺ بالنبي!! فهل تذوقت ما في هذا اللفظ الكريم من معاني التعظيم والتكريم والشرف العالي والمنحة الخاصة والمقام السامي الرفيع الذي نبا عن تقدير الناس وسما عن مقاييسهم وموازنينهم.

٢. وصف القرآن الاستحقاق بالولاية بكلمة (أولى) مكان كلمة أحق لما في الأولى من الشعور بأن ذلك الاستحقاق إنما كان عن الحب والولاء والرغبة والرجاء لا عن خوف وإرهاب وإلزام وإكراه.

٣. وصف القرآن أتباع محمد ﷺ بكلمة المؤمنين ولم يقل الناس أو المسلمين لما في هذه الكلمة من الإشارة إلى أن هذه الأولوية ثمرة التصديق ونتيجة الإيمان واليقين كما قال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)^(٢).

٤. عبر بالأنفس ليدخل في هذه الأولوية كل ما دونها وهو كل شيء من مباحج الحياة ومظاهرها، فالأهل دون النفس، والمال دون النفس والمسكن دون النفس، والزوج دون النفس....، وإنما يكون حب الإنسان لهذه العوارض بنتيجة حبه لنفسه وثمره حرصه على إسعادها"^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٨٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حب الرسول من الإيمان (١٥-١٤). صحيح مسلم كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين (٤٤).

(٣) من وحي القرآن، جمع وترتيب الدكتور: جمعه أمين (٣ / ٥٢-٥٣) بتصرف.

المبحث الثاني

ولاية المؤمنين لبعضهم وأنواعها

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦٣﴾﴾

لقد نزل المهاجرون على إخوانهم الأنصار فاستقبلهم الأنصار في بيوتهم وفي قلوبهم، وفي أموالهم، وتنافسوا في ذلك أشد التنافس حتى أنه لم ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرة^(١)، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، فقد شارك المهاجرون الأنصار في بيوتهم وأموالهم وأعمالهم، واستقبل ذلك الأنصار بطيب خاطر وفرح شديد.

"فقد كان الإخاء بين المهاجرين صلة فريدة في تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد، وقام هذا الإخاء مقام أخوة الدم، فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها، ولكن الإسلام حريص على أن يقوم بناءه على أساس الأحوال العادية للنفس البشرية، لا على أساس الحالات الاستثنائية، التي تؤدي دورها في الفترات الاستثنائية فقط، فقد عاد الحكم بعد أن استقر الوضع في المدينة للمهاجرين إلى نسخ نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة من الدم والنسب، مستبقيا منها ناحية العواطف

(١) كما في حديث أم العلاء عند البخاري كتاب الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفته (١٢٤٣).

والمشاعر، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَايَ كُمْ مَعْرُوفًا﴾، وذلك ليعود على العمل متى دعت إليه الضرورة، فرد الله الإرث والتكافل في الديات إلى قرابة الدم والنسب كما هي أصلا في شرع الله وفي سنته في الحياة، قال تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي آلِ كَتَبٍ مَسْطُورًا﴾^(١).

فبعد أن أبطل الله ﷻ نظام التبني، أبطل سبحانه نظام المؤاخاة، وهذا النظام قد وضعه الشعور بالأخوة والألفة بين المسلمين الذين تركوا أموالهم وأهليهم في سبيل الله وطاعة لرسوله ﷺ، ولكن بعد أن استقر وضعهم وتحسن حالهم أبطل الله سبحانه هذا النظام^(٢).

وهنا تبين لنا أن الولاية تكون على ثلاثة أنواع:

- ١- ولاية عامة في كل شؤون الدين والدنيا والتنظيم والتشريع وفي المشاعر والأحاسيس، وفي الرعاية والتكافل، وهذه الولاية هي الولاية للرسول ﷺ.
- ٢- ولاية نصره وأخوة في الله تعالى وفي العقيدة، وهذه الولاية للمؤمنين.
- ٣- ولاية الدم والنسب وهي في التكافل في الديات وفي الميراث للأقارب كما بينه الشارع.

وفي هذا تفصيل ومزيد بيان تضمنته آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٢٧-٢٨٢٢) بتصرف.

(٢) يجدر التنبيه على أن الإخاء كما أنه كان في المدينة، فقد كان في مكة أيضا قبل الهجرة خلافاً لمن قال أن الإخاء لم يكن إلا في مكة، وللإستزادة في هذه المسألة يمكن مراجعة فتح الباري (٧/ ٢٧١)، وكتاب السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري، فله بحث قيم في هذه المسألة (١/ ٢٤٠-٢٤١).

وصفة ضدّهم بقوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ١٧٢].

وقال تعالى في ثنايا وصفهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ① وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ② وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر ٨-١٠]. وغيرها مما يطول بسطه هنا.

المبحث الثالث

ولاية المؤمنين للأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام

نجبرنا تعالى عن أولي العزم من الرسل، والميثاق الذي أخذه الله عليهم في حمل الرسالة والمنهج القويم، وفي الاستقامة على ذلك المنهج، فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ۗ لَيْسَ لَكَ مِنَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

"نجبر الله ﷻ أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم خصوصاً ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ وأمر الناس بالإقتداء بهم"^(١).

"وهذه الآية جاءت بعد بعض التشريعات الكريمة، لتدل على أن التشريعات التي جاء بها رسل الله واحدة، فهي شريعة الإسلام"^(٢).
وأولوا العزم من الرسل: "هم الذين طال بلاؤهم في دعوة الحق، ولقوا من صنوف العناد والكفر ما لا يطيق الصبر عليه إلا عظماء الرجال"^(٣).

فألوا العزم هم: (نوح - وإبراهيم - وموسى - وعيسى - ومحمد صلى الله عليهم جميعاً)، المذكورون في هذه الآية من هذه السورة.

وفي سورة الشورى قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا

(١) تفسير السعدي (٦٠٧).

(٢) من لطائف التفسير (٣/ ١٣٧).

(٣) من لطائف التفسير (٣/ ١٣٧).

تَخَفَّرُوا فِيهِ كَبْرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۗ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿ [الشورى: ١٣].

ولكن ما الحكمة والسبب في أخذ هذا الميثاق وما غايته؟

تأتي الإجابة من الله تعالى في ختام الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ اللَّهِ فِئْتَانٌ يَدْعُونَ بِتِلْكَ ۗ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ بِتِلْكَ لِيُضَلُّوا فَلْيُضَلُّوا وَمَنِ اهْتَدَىٰ لَشَاءَ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

"ذلك ليسأل الله ﷻ الأنبياء وأتباعهم، عن هذا العهد هل وفوا فيه

وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذب الأليم؟

فهذه هي سنة الله في الخلق، والسبب فيه خلقهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] (١).

فالذي يحقق العبودية لله ويحقق السبب في وجوده فهو الصادق الفائز بالجنة

يوم القيامة، أما الذي انتكست فطرته التي فطره الله عليها ولم يحقق العبودية ولم

يصدق مع الله في عهده وميثاقه، فالله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين يجزيه بما

يستحق: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وفي هذه الآية ذكر العهد منسوباً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وهم قدوة

الخلق، وفي الآية الأخرى بين الله أن السؤال يكون عما جاء به المرسلون ﴿وَيَوْمَ

يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وهذا السؤال لن ينجوا منه

أحد، والله المستعان.

الفصل الثاني

علاقة النبي ﷺ بأئمة وأصناف المدعوين

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٤﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿١٧﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۗ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿١٨﴾ يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٩﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢٢﴾ ۝

وإليك بيان ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول

علاقة النبي ﷺ بأتمته

يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾:

بعد أن أبطل الله تعالى التبني حكماً شرعياً، - وفعلاً تزوج النبي ﷺ مطلقة من تبناه النبي ﷺ سابقاً زيد بن حارثة ؓ - بين الله تعالى العلاقة الحقيقية غير المدعاة بين محمد ﷺ وبين جميع المسلمين وهي علاقة النبي بقومه فليس هو أباً أحد منهم، ومن ثم فهو يشرع الشرائع الباقية وفق رسالة مرسله من الله ﷻ، لا تبديل فيها ولا تغيير.

فأبوته ﷺ للمؤمنين أبوة حنان ورحمة وعطف وتربية على أمر الله وشرعه وليست بالدعاوى والأساطير ولا المصالح الدنيوية، لا ليستكثر بهم ولا لينال بهم عزة ومكانة، بل هي بلاغ ورحمة ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾: وعلاقته بأتمته لا تقتصر على من عاصروهم وشاهدوه ﷺ بل هي ممتدة لتشمل أمة الدعوة - من مبعثه ﷺ إلى آخر من يموت على ظهر هذه الأرض - فهو الرسول الخاتم الذي ختم الله به رسله وأنبياءه إلى خلقه، ولذا فإن الأمور تقاس بخواتيمها، ولذا لزم الناس والأمم جميعاً إتباعه فأكمل الله به الملة، قال رسول الله ﷺ: (مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك

فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة^(١).

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: أي ربنا سبحانه له العلم الكامل والحكمة البالغة في اختيار محمد ﷺ لهذه المهمة العظيمة، ولم يترك ذلك الأمر الجليل لمن نقص علمه في نفسه وما حوله، فضلاً عن أن يبلغ الحكمة البالغة في ذلك، فالذي خلقهم أعلم بما يصلحهم ولذا لا يجوز الاعتراض على حكمه سبحانه، ولا الاعتراضات المبنية على العقول القاصرة في العلم.

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب ذكر كونه ﷺ وسلم خاتم النبيين (٢٢٨٣). صحيح سنن الترمذي كتاب المناقب باب فضائل النبي ﷺ (ح ٢٨٥٨). مع اختلاف في لفظ الحديث.

المبحث الثاني

وجوب شكر الله تعالى على تمام نعمته ومنته

يربط القرآن الكريم بين الناس جميعاً وبين ربهم الذي منّ عليهم بهذا الرسول فيقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

"يقول الله تعالى أمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم، وأصناف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب"^(١).
 "إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، فقال تعالى: ﴿فَأذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار في البر والبحر، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، في الصحة والسقم، في السر والعلانية، وعلى كل حال فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته"^(٢).

"وذكر الله هو: اتصال القلب بالله، والاشتغال بمراقبته، وليس هو مجرد تحريك اللسان. فذكر الله يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه، ويتصل به قلبه سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر. وإن القلب ليظل فارغاً أو لاهياً أو حائراً حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به، ومن هنا يحض الله في القرآن كثيراً، ويحض النبي ﷺ في السنة كثيراً على ذكر الله كثيراً، فيربط الشارع بين هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التي يمر بها الإنسان، لتكون تلك الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة إلى الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى"^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣٣) بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧١).

فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾: أي عند الصباح والمساء، كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنِ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. ففي هذان الوقتان تظهر للناس أمور في الكون تحتاج إلى تفكير لما فيها من الإعجاز والدقة في الخلق، وأيضاً فهما مرحلتان ينتقل فيهما الناس من وضع إلى وضع، ففي ابتداء اليوم يؤمرون بالذكر، وفي ختام اليوم يؤمرون بالذكر، لأن قلب الليل والنهار، وتقلب الأزمان من أعظم الأدلة على ربوبية الله ووحدانيته واستحقاقه العبادة دون ما سواه من المعبودات، ودليل على البعث والجزاء ولذا ارتبطا به كثيراً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وارتبط بهما التسيب والذكر كثيراً قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

وبعد أن أمر الله عباده بكثرة ذكره، يمتن عليهم برحمته سبحانه وعنايته لهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

"هذا تهيب إلى الذكر أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، أما الصلاة من الملائكة فهي بمعنى الدعاء والاستغفار. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]"^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: (يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه)^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٦).

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٧٤٠٥). صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

فذكره وتسييحه أيضاً نعمة تستوجب الشكر الذي لا ينقطع، ولذا لا يستطيع العبد القيام بحقيقة الشكر والذكر، لكن الله جواد كريم يرضى من عبده بالقليل ويجازيه بالكثير الجزيل، كيف لا؟ وهو الجواد البر الكريم ﷺ.

فذكر الله لعبده مقابل لذكر العبد ربه؛ وليس جزاءه فيبينها بون شاسع، وإنما من رحمة الله بعباده أن جعل ذكرهم إياه وسيلة ينالون بها رحمته ومغفرته، فيذكرهم سبحانه وهم لا يستحقون ذلك، إذ مهما بلغوا من العبادة والشكر فهم مقصرون في مقابلة نعمه ورحمته بهم. فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: "بسبب

رحمته بكم وثناءه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور الله واليقين"^(١). فأمره لكم وشرعه إنما هو رحمة لكم، لا حاجة منه ﷻ وتقدس إلى أعمالكم؛ وإنما هي رحمة منه وفضل لينجيكم من النار إلى الجنة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الفسق إلى الإيثار، ومن الكفر إلى الإسلام، وهذا كمال منه سبحانه لمن يحتاج إلى ربه أعظم الحاجة بل لا يمكنه العيش بلا ربه، لكن كثيراً من الناس عن ربهم غافلون، لا يتأملون في صفاته، ولا في آثارها من نعم سابغة وآيات ظاهر باهرة قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَنَفُلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وهذا النور وهذه الرحمة في الدنيا متمثلة في إرسال الرسول محمد ﷺ له يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فإذا عملوا بذلك، فرحمة الله لا تفارقهم،

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣٦).

وفضله وإكرامه لا ينتهي عنهم في الآخرة. يقول تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾: يقال لهم سلام عليكم من كل خوف، ومن كل تعب، ومن كل مشقة، ومن كل عذاب، وهذا السلام يتلقونه ممن؟

إنهم يتلقونه من الله كما قال تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وتحمل ذلك السلام الملائكة أيضاً وهم يدخلون عليهم من كل باب يبلغون تحية الله لهم، إلى جانب النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [س: ٣١] سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ [الرعد: ٢٣-٢٤].

ومن هنا يعلم: "أن ذكر الله أصل موالاته ﷻ، ورأسها، والغفلة أصل معاداة الله ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]"^(١).

فذكر الله تعالى دليل على إتباع أمر الله وأمر رسول الله، أما الذي يتبع هواه فهذا ليس بينه وبين الله علاقة وليس بينه وبين رسول الله علاقة، لأنه ترك ذكر الله وهدى الله وأوامر الله تعالى المبلغة عن طريق رسول الله ﷺ؛ إلى ذكر نفسه ولذا ساء الله ناسياً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ثم عقب الله ﷻ بقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: "وكان الله بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمة أن يعذبهم وهم له مطيعون، ولأمره متبعون"^(٢).

من أعظم نعم الله ومنته على خلقه هو ما هداهم إليه من الإيمان وأعطاهم

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٣).

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٢٥).

إياه من الرحمة والنور، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولذا كان من رحمته بالمؤمنين أن هداهم ثم جازاهم على ذلك الهدى زيادة فيه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ثم جازاهم النعيم والسعادة والمدح منه في الدنيا والآخرة على ما هداهم إليه، ولذا فإن هذه النعمة والرحمة أفضل النعم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، والعبد يطلب من الله المزيد منها: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

ومن هنا جاء القرآن يفصل العلاقة بين الناس وبين رسول الله ﷺ لكي يميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر أتباع الهوى وأصحاب الغفلة عن ذكر الله من أتباع الهدى والذكر ومنهج رسول الله ﷺ؛ وهذا يعرفه العبد من خلال مهام ووظائف النبي ﷺ.

المبحث الثالث

مهام ووظائف النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ وَنَبِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّ هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذْنُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٨﴾.

هذه أمور يجتمع فيها الناس كلهم من حيث علاقتهم بالنبي ﷺ، وهي مهام إرسال الرسول محمد ﷺ والأنبياء من قبله، فوظيفة رسول الله ﷺ هي كما قال تعالى:

١- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾:

وهذا اتصال بها جاء في قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، فرسول الله ﷺ علاقته بالناس أنه رسول من عند الله يبلغ رسالة الله للناس جميعا إلى يوم القيامة لأنه كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. والحكيم لا يرسل إلا الأمين ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٥﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٦﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٩﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٠﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١١﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٨].

٢- ﴿شَهِدًا﴾:

ومن علاقة النبي ﷺ بالناس في هذه الرسالة أنه "شاهدٌ لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وشاهدٌ على أمته يوم القيامة وشاهد على الأمم قبله" (١).

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٩) بتصرف.

فعلاقة النبي ﷺ بالناس أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يكون شاهداً على هذه الأمة مسلمهم وكافرهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿١١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء ٤١-٤٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٣- ﴿وَمُبَشِّرًا﴾:

البشرى هي الخبر السار، والمبشر هو حامل البشرى لغيره وموصلها إليهم أفراداً وجماعات، ومن مهام الرسل عليهم الصلاة والسلام: أن يبشروا قومهم بدين الله وشرعه، الذي به النجاة والفلاح لمن تمسك به، وقام به مستقيماً عليه، ومخلصاً له.

يبشر المؤمنون الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه، يبشرهم بما أعد الله لهم من الجزاء الكريم، والفضل العظيم والنعيم المقيم. ويبشرهم أيضاً في الدنيا بالنصر والتمكين والتأييد من الله إن تمسكوا بدين الله وطبقوه في تلك الحياة.

٤- ﴿وَنَذِيرًا﴾:

النذير: هو حامل الخبر غير السار لمن يستطيع التصرف، فهو يخبر الخبر للقوم ليتصرفوا بما يمكنهم به النجاة، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يخبرون قومهم محذرين لهم وعيد الله ليتمكنوا من الهرب منه إلى حيث البشرى ووعد الله وثوابه لمن استجاب للنذارة.

ونذير لأولئك الذين لا يؤمنون بالله، ولا يأترون بأمر رسول الله ﷺ، ينذرهم العذاب الأليم الذي جعله الله لهم ولأمثالهم، ولكن هذا العذاب لن يأخذهم الله به إلا إذا أقام عليهم الحجة، وتلك الحجة هي إرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

٥- ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾:

"أرسله الله تعالى يدعوا الخلق إلى ربهم، ويشوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعوا إليه، وذكر تفاصيل ما يدعوا إليه، بتعريفهم ربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام"^(١).

"فهو لا يدعوا إلى دنيا، ولا إلى مجد ولا إلى عزة قومية، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا على مغنم، ولا على سلطان أو جاه، ولكن داعيا إلى الله. في طريق واحد يصل إلى الله ﴿بِإِذْنِهِ﴾: فما هو بمبتدع، ولا بقائل من عنده شيء، وإنما هو إذن الله له وأمره لا يتعداه"^(٢)..

وتدل الآية كذلك على أن الداعي إلى الله هو الذي يدعوا إلى الله لا إلى نفسه، ويجمع الناس على الله سبحانه، لا على نفسه فلا يتأثر بكثرة الناس حوله أو قلتهم، لأن قلبه مع الله لا مع الناس ولا مع نفسه.

(١) تفسير السعدي (٦١٥).

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٢).

٦- ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾:

وكون النبي ﷺ ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾: "يقضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء به تلك الظلمات، وعَلَّمَ به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة"^(١).

وهذا السراج "يجلوا الظلمات، ويكشف الشبهات، وينير الطريق، نوراً هادئاً هادياً كالسراج المنير في الظلمات"^(٢)، والسراج للإضاءة، والمنير وصف ليخرج بذلك المحرق وغيره، فهو سراج يضيء إضاءة لا مضرة فيها بل نفعها ظاهر خالص.

(١) تفسير السعدي (٦١٥).

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٢).

المبحث الرابع

علاقة النبي ﷺ بالأصناف الثلاثة

لما أرسل الله سبحانه عبده ومصطفاه محمد ﷺ داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، إنقسم المدعوون إلى ثلاثة أقسام، - كما كان مع الأنبياء قبله - وهي سنة الله في ابتلاء عباده ليميز الخبيث من الطيب:

١- فقسم آمن وصدق ظاهراً وباطناً.

٢- وقسم آمن ظاهراً وكفر باطناً.

٣- وقسم كفر وكذب وعاند ظاهراً وباطناً.

ولا شك أن ذلك يشق على الرسول ﷺ الرحيم بأمته، فيبين الله له علاقته بكل من هذه الأصناف الثلاثة.

الصنف الأول: المؤمنون؛ وهم الذين تلقوا أوامر الله ورسوله بالقبول

والتصديق والعمل

قال تعالى: ﴿وَدَبَّرَ الْمُؤْمِنِينَ بَانَ هُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾: إن الذين صدقوا رسول الله ﷺ وآمنوا بما جاءهم به من عند الله وأطاعوا أمر الله وأمر رسول الله هؤلاء هم الذين أحسنوا في علاقتهم مع الله ومع رسول الله فاستجابوا للبشرى من رسول الله ﷺ بأن أطاعوه وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه.

الصنف الثاني والثالث: الكفار والمنافقون؛ وهم الذين تلقوا أوامر الله

ورسوله بالكفر والتكذيب والجحود، والاستهزاء، والسخرية حتى ولو ظهر من بعضهم الموالاتة للمؤمنين وهم منافقون.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعٰ اٰذٰنُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ

وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا﴾

أي: "لا تطعمهم ولا تسمع منهم في الذي يقولون ﴿وَدَعُ أَدْنَاهُمْ﴾ أي: اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله فإن فيه كفاية لهم. ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١). "أي توكل على الله في إتمام أمرك وخذلان عدوك، فإن الله تعالى توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده"^(٢).

فمهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من الدعاة والمصلحين هي: البلاغ والتوضيح والإشارة لصراط الله المستقيم، وتثبيت لكل من سلك ذلك الطريق، وبشارتهم بوعد الله ونعمته الظاهرة والباطنة والعاجلة والآجلة لمن سلك ذلك السبيل قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^٤ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وأما من أعرض عن ذلك الصراط وسلك طرقاً أخرى فإن الأنبياء والدعاة والمصلحون تنتهي المهمة عند إبلاغهم وكشف الأمر وإيضاحه بجلاء لهم، ثم تبدأ المفاصلة بينهم وبين أولياء الله ورسله فلا طاعة لهم في معصية الله، فضلاً عن أن نطيعهم في أصل الدين أو أركانه ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

فإذا فاصلتهم وكان بينك وبينهم البراء فلن يتركوك بل سيلاحقونك بأنواع الأذى المادي والمعنوي في عقلك وفي دينك وفي شخصك وفي عملك، ويتهمونك بأنواع التهم حتى في عرضك وعقلك فاطرح ذلك الأذى ولا تلتفت إلي شيء منه

(١) تفسير ابن كثير (٤٣٩).

(٢) تفسير السعدي (٦١٥).

ولا يشغلنك عن رسالتك الأسمى والأهم.

ولأن في ذلك مظنة انقطاع العون أو الرزق أو فقد بعض المصالح الدينية أو الدنيوية غالباً، فأبدل الله رسله وأوليائه بما هو خير لهم من ذلك وأنفع وأبقى، وهو التوكل على الله سبحانه، وهو العظيم الكريم، لا يخيب من رجاه، فكيف بمن أسند أمره إليه وتفرغ من كل حول وقوة إلا به سبحانه فإنه كافيه ولا شك ولا ريب، كيف لا! والعطية إنها تكون على قدر المعطي فمن ركن إلى القوي العزيز فلا يخيب ولا يخذل حتى في خواتمه قال تعالى لنبيه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: ١-٥].

الفصل الثالث

الحياة الزوجية في بيت النبوة

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ الَّتِي هَا جَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾ ۝ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَعْوَىٰ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ۖ وَمِنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَأُ عَيْنَهُنَّ ۖ وَلَا تَحْزَنْ ۚ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٢﴾ ۝ لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٣﴾ ۝

وإليك بيان ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول

إباحة الله لنبيه ﷺ الزيادة على أربع^(١)

"يبين الله ﷻ لرسوله ﷺ ما يحل له من النساء، وما في ذلك من خصوصية له ولأهل بيته، وقد كان في عصمته ﷺ في ذلك الوقت أكثر من أربع زوجات، تزوج بكل منهن لمعنى خاص، وكن قد أصبحن أمهات المؤمنين، ونلن شرف القرب من رسول الله ﷺ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتي التخيير. وكان صعباً على نفوسهن رضي الله عنهن أن يفارقهن رسول الله ﷺ وهذا هو:

السبب الأول: "لإباحة الزيادة على الأربع لرسول الله ﷺ، فقد نظر الله لهن، فاستثنى رسول الله ﷺ من ذلك القيد - تحديد عدد الزوجات بأربع - وأحل له استبقاء نسائه جميعاً معه، وجعلهن كلهن حلالاً له، ثم نزل القرآن بعد ذلك بأن لا يزيد عليهن أحد، ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى"^(٢).

والسبب الثاني هو: "أنه لما كان الحُرُّ لفضله على العبد يستبيح من النساء أكثر مما يستبيحه العبد، لزم أن يكون النبي لفضله على جميع الأمة يستبيح من النساء أكثر مما تستبيحه الأمة".

والسبب الثالث: أن في هذه الإباحة زيادة في الابتلاء للنبي ﷺ.

والسبب الرابع: "أن قبائل العرب تتشرف به لأن له بكل قبيلة منها اتصالاً بمصاهرة وغيرها، وكثرة تلك العشائر والقبائل تكون عوناً على أعدائه"^(٣).

(١) هنا إشارة فقط لهذه المسألة المهمة وللإستزادة يمكن مراجعة فتح الباري ١/٣٧٧-٣٧٩ و ٩/١١٣-١١٥ وعمدة القارئ ٣/٢١٧، وعون المعبود ١/٢٥٤، وكتاب غاية السؤل في خصائص الرسول - ابن الملقن ص ١٨٨-١٩١، وكتاب محمد رسول الله لعرجون ١/٥٨٨، والسيرة النبوية للبطوني (٥٣-٥٤). وكتاب: زوجات النبي الطاهرات، حكمة تعددهن - محمد محمود الصواف، وكتاب شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ - محمد علي الصابوني.

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٦).

(٣) غاية السؤل في خصائص الرسول - ابن الملقن ص ١٨٨-١٩١ بتصرف.

والسبب الخامس: الحاجة إلى "تعليم الناس أمور دينهم"^(١) "فمن الصعب والمستحيل أن تقوم زوجة واحدة أو زوجتان بالأعباء الجسام التي قامت بها تسع نسوة مؤمنات عابدات خاشعات، وما حفظنه من أحكام الشريعة لا يمكن أن تستوعبه المرأة الواحدة حفظاً ودراية ورواية مهما أوتيت من قوة الحافظة وفرط الذكاء".

وقد روى عن زوجات الرسول ﷺ رجالٌ كثيرٌ ونساءٌ في مختلف الأحكام الشرعية خاصة القضايا النسائية، وكُتِبَ الحديث شاهد على ذلك"^(٢).

السبب السادس: "لكل زوجة من زوجات رسول الله ﷺ قصة ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعته شأنه وكمال أخلاقه"^(٣).

وسنعرض حال النبي ﷺ مع أزواجه من خلال أوامر الله ﷻ له في هذه الآيات، وسيكون ذلك في النقاط التالية:

(١) انظر شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ - محمد على الصابوني.

(٢) زوجات النبي الطاهرات، وحكمة تعددهن - محمد محمود الصواف.

(٣) انظر السيرة النبوية للبوطي (٥٣-٥٤).

المبحث الثاني

النساء اللاتي أحلهن الله تعالى لنبيه

ويجدر التنبيه على أنه قد يشترك المؤمنون مع النبي ﷺ في بعض هذه الأصناف وقد يكون بعض هذه الأصناف خاص بالنبي ﷺ، وسيتبين ذلك من خلال العرض:

١- النساء اللاتي أعطاهن النبي صلى الله عليه وسلم مهورهن:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾: "يقول الله تعالى مخاطباً نبيه صلوات الله وسلامه عليه، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، وهي الأجور هاهنا، وكان جميع ما أمهر رسول الله أزواجه خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حبي فإنه اصطفاها من سبي خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جويرية بنت الحارث، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها"^(١). وهذا الصنف من الأصناف المشتركة بين النبي ﷺ وبين المؤمنين.

ويفهم من هذا وجوب أداء الصداق للزوجة والأصل فيه أن يكون ناجزاً، ويجوز أن يؤخره أو يبعثه لمصلحة أو حاجة^(٢).

٢- النساء اللاتي ملكهن النبي ﷺ من المغانم:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: أي: "أباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك رسول الله ﷺ صفية وجويرية فأعتقها

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٤١).

(٢) للاستزادة عن الصداق وأحواله انظر المغني (٤١٣-٤١٥)، السلسيل في معرفة الدليل (٢ / ٧٢٢).

الملخص الفقهي (٢ / ٢٨٢)، فقه السنة (٢ / ٢٩٢).

وتزوجها. وكذلك ریحانة النضرية، ومارية القبطية أم إبراهيم، وكانت من السراري رضي الله عنهن جميعاً^(١)، وهذا الصنف أيضاً من الأصناف المشتركة بينه ﷺ وبين المؤمنين.

٣- وكذلك مما أحل الله لنيبه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾:

"يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب، غير محلل، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، أما غير الأقارب فإنه يجوز أصولهم وفروعهم مطلقاً"^(٢). وهذا مما يشترك فيه المؤمنون مع رسول الله ﷺ.

ولكن يشترط شرط في حق النبي ﷺ في هؤلاء الأقارب، وهو الهجرة مع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: معنى الهجرة هنا الإسلام^(٣)، وعلى هذا التفسير للهجرة فهو شرط عام للنبي ﷺ ولأمته، فلا يجوز نكاح المشتركة سواء كانت قريبة بالنسب أم بعيدة، وقد أباح الله منهن الكتابيات على تفصيل آخر.

٤- إباحة الواهبة نفسها للنبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُمُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا خاص بالنبي ﷺ أن يتزوج الواهبة نفسها له بدون مهر^(٤)، وهذا توسيع

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٤٢).

(٢) تفسير السعدي (٦١٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٤٢).

(٤) قد ذكر الإمام السيوطي ما يشهد لهذه الخاصية عن ابن عباس ومجاهد وطاووس وعكرمة وقيادة الدر المثور (١٢ / ٨٥ - ٨٨)، وهذا قال به الجمهور من العلماء ورجحه ابن تيمية في الفتاوى (٣٢ / ٦٢).

على النبي ﷺ، أما المؤمنون فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم ولذلك قال تعالى: ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً^(١). وقد ورد عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة، فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: (هل عندك من شيء تصدقها إياه؟) فقال الرجل: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال رسول الله ﷺ: (إن أعطيتها إزارك، جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً). فقال: لا أجد شيئاً. فقال: (التمس ولو خاتماً من حديد) فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: (هل معك من القرآن شيء؟) قال نعم، سورة كذا وكذا، فقال له رسول الله ﷺ: (زوجتكها بما معك من القرآن)^(٢).

ومع أن النبي ﷺ أباح الله له الواهبة نفسها لكنه لم يكن عنده امرأة وهبت نفسها كما ذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما^(٣).

ثم قال الله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أي: "قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم وما لا يحل، من الزوجات وملك اليمين، وقد أعلمناهم بذلك، وبيننا فرائضه"^(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٤٥).

(٢) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٩). صحيح مسلم كتاب النكاح باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك... (ح ١٤٢٥) مطولاً.

(٣) تفسير الطبري (١٩ / ١٣٥، ١٣٤) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣٦). وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري إسناده حسن (٨ / ٥٢٦).

(٤) تفسير السعدي (٦١٦).

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي: "لكي لا يكون عليك ضيق في أمر أنت فيه محتاج إلى السعة"^(١).

ثم يحتم الله تعالى الآيات بالرجاء للمؤمنين:

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: "لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته، وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته"^(٢).

وفي الآية بيان سعة مغفرة الله تعالى ورحمته بعباده حيث بين لهم علة اختصاص النبي ﷺ بحكم دونهم، وبين لهم أن لهم فيما أحل لهم الكفاية، وأن لا يجرؤوا أنفسهم بالتطلع إلى ما خص به الرسول الكريم ﷺ، وأن الله لا يؤاخذهم على خطرات قلوبهم لكن ما أظهره بقول أو فعل فإن في ذلك حرج ومشقة وأذى للنبي ﷺ، والله يؤاخذ بذلك بالمغفرة والرحمة شاملة للنبي ﷺ ولأمته بل وللمخلوقات جميعاً. اللهم لا تحرمنا رحمتك ومغفرتك بذنوبنا.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢١٤).

(٢) تفسير السعدي (٦١٦).

المبحث الثالث

قسم النبي ﷺ بين زوجاته

قال تعالى: ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَاءِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

"اختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصح ما قيل فيها التوسعة على النبي ﷺ في ترك القسم، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته، فخص النبي ﷺ في ذلك^(١)، لكنه كان يقسم من قبل نفسه تطيباً لنفوس زوجاته، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي"^(٢)، وعلى هذا فمعنى الآية: فإنك بالخيار أن تؤخر من تشاء فلا تبيت عندها في يومها ولا تؤويها إليك، أو تضمها وتبيت عندها، ولا جناح عليك في ذلك.

ولكن لماذا لا حرج على الرسول في ذلك؟

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾: أي: "ذلك التخير الذي خيرناك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذا كان من عندنا، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين، لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء كان راضياً بما أوتي منه وإن قل، فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه، ومع ذلك فقد كان رسول الله يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن، تطيباً لقلوبهن، فعن

(١) انظر للاستزادة خصائص النبي في النكاح - د: عيسى الغضايي. (١٠٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢١٥).

عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: اللهم هذه قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) ^(١)^(٢).

يستفاد من هذا أنه يجب على الرجل أن يعدل بين زوجاته، ولا يسقط حق إحدى زوجاته لا في مرض ولا حيض ولا نفاس، وأن لا يسقط حق إحداهن أو ينقصه في النفقة، أما الحب والبغض وتعلق القلب فإن ذلك ليس في ملك الإنسان، ولكن القلب هو المحرك له، فالله تعالى لا يؤاخذ على ذلك، ولكن لا يحمله حب واحدة على الأخرى أن ينقص من حق إحداهن قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

ولهذا قال الله في ختام الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾: أي: "يعلم ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة، والمستحبة، وما في ميل القلب، فالله تعالى واسع العلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لكم، ومن حلمه أنه لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما في قلوبكم مما يشق أو يصعب عليكم التصرف والقول فيه بين الزوجات، وكذلك الأولاد" ^(٣).

(١) المستدرک علی الصحیحین (٢٧٦١) وقال الحاكم حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، سنن الترمذي كتاب النكاح باب التسوية بين الزوائر (١١٤٠)، سنن ابن ماجه (ح ١٩٧١) ولكن بدل من (قسمي) جاء برواية بلفظ (فعلي)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (١٩٧١)، لكنه حسن الطرف الأول منه وهو قول عائشة: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل) كما في صحيح سنن أبي داود (١٨٥٢). وأورده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢١٦).

(٢) القرطبي (٢١٦ / ١٤).

(٣) تفسير السعدي (٦١٧).

المبحث الرابع

جزاء زوجات النبي ﷺ في اختيارهن الصبر والدار الآخرة

قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝﴾.

"هذه الآية نزلت مجازاة لأزوج النبي ﷺ ورضي عنهن، على حسن صنعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ والدار الآخرة على نعيم الدنيا ولذاتها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْتَكُمْ وَأَسْرَحْتُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝^(١).

فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري، فلا حرج عليه فيهن.

ثم إنه تعالى رفع الحرج عن النبي ﷺ في ذلك^(٢)، ولكن لم يقع منه بعد ذلك

(١) للمزيد انظر: مبحث حادثة التخير في بحث موضوعات سورة الأحزاب عند الحديث عن موضوع حقوق النبي ﷺ وأهل بيته.

(٢) اختلف العلماء في هذه الآية هل وقع النسخ في هذه الآية أو هي محكمة، والذين قالوا أنها منسوخة اختلفوا هل هي منسوخة بالقرآن أو بالسنة، ومع كثرة الأقوال في هذه المسألة إلا أنها تدور حول تفسيرين لهذه الآية: المعنى الأول ما ذكرناه عن ابن كثير (٤٤٧/٦)، وقد ذكره ابن جرير ولم يرجحه. أما التفسير الثاني هو على أن الآية محكمة ومعناها (لا يحل لك من النساء إلا التي أحللتها لك في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذا القول رجحه ابن جرير (١٥٠/١٩) وغيره. وللاستزادة في هذه المسألة انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٤٦/١٩) وابن كثير (٤٤٧/٦) والجامع لأحكام القرآن (٢١٩/١٤) والناسخ والمنسوخ للنحاس (٥٨٥).

ترويج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن^(١)، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "مامات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء"^(٢).

وكذلك فإن الله تعالى قصرهن عليه فمنعهن أن يتزوجن بعده كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

ثم عقب الله على هذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾: أي: "مراقبا للأمر، وعالما بما إليه تؤول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام"^(٣)، لا يفوته شيء منها فلا يشغله شيء عن شيء، بل قد أحاطت مراقبته ورعايته وعنايته بالأشياء كلها من جميع جوانبها. وفي هذا وعيد لمن سولت له نفسه التحايل على شرع الله وأمره، ومن ظن في شرع الله محاباةً لأحد أو ظلماً لطرفٍ قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فلا يفقه هذا المعنى في الحياة إلا من آمن بالله موقناً قلبه بذلك.

(١) ابن كثير (٤٤٧/٦) بتصرف.

(٢) مسند أحمد (٤١/٦). سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الأحزاب (٣٢١٦) وقال

الترمذي حديث حسن، وقال الألباني صحيح الإسناد في صحيح سنن الترمذي (٢٥٦٨).

(٣) تفسير السعدي (٦١٧).

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

الموضوع الخامس

حقوق

النبي ﷺ وأهل بيته

الباب الخامس

حقوق النبي ﷺ وأهل بيته

إن لرسول الله ﷺ منزلة عظيمة في قلوب المسلمين، جعلها الله تعالى في القلوب، وجعل لها أثراً على الجوارح، فعظم الله تعالى شأن رسوله ﷺ، وجعل له حقوقاً وضوابط في التعامل معه تكفل الحفاظ على ذلك التقدير وتلك المكانة، وحفظ أيضاً زوجاته وجعل لهن حق الاحترام والتقدير لأنهن زوجاته ﷺ.

وقد جاء هذا الباب ليرز هذا المعنى من خلال عرض بعض الآيات من سورة الأحزاب التي تتحدث عن هذا الموضوع، وذلك لأن سورة الأحزاب تميزت بأنها عرضت واقع رسول الله ﷺ وواقع أزواجه معه، وواقع تعامل الصحابة معه هو وزوجاته وما يجب أن يكونوا عليه تجاه رسولهم ﷺ.

ينقسم الباب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: الاستئذان والطعام في البيوت:

المبحث الأول: آداب الاستئذان.

المبحث الثاني: آداب الطعام والجلوس له في الآية.

المبحث الثالث: بقية آداب الطعام.

الفصل الثاني: حال أزواج النبي ﷺ معه واختيارهن الصبر:

المبحث الأول: حادثة التخيير.

المبحث الثاني: وقفات مع قصة التخيير.

المبحث الثالث: زوجات النبي ﷺ.

الفصل الثالث: آداب خاصة مع زوجات رسول الله ﷺ:

المبحث الأول: أدب سؤال زوجات النبي ﷺ.

المبحث الثاني: النهي عن نكاح أزواج النبي ﷺ من بعده.

المبحث الثالث: استثناء المحارم الذين يجوز لثناء النبي والمؤمنات الظهور

أمامهم.

الفصل الرابع: تمجيد المسلم لرسول الله ﷺ:

المبحث الأول: الحث على الصلاة على النبي ﷺ.

المبحث الثاني: قيمة الصلاة على النبي ﷺ.

المبحث الثالث: كيفية الصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ.

المبحث الرابع: آداب الصلاة على النبي ﷺ.

المبحث الخامس: المواضع التي يستحب فيها الصلاة على رسول الله ﷺ.

الفصل الخامس: تواعد الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين:

المبحث الأول: معنى أذية الله ﷻ.

المبحث الثاني: معنى أذية رسول الله ﷺ.

المبحث الثالث: الوعيد على أذية الله ورسوله.

المبحث الرابع: التواعد للذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات.

المبحث الخامس: الأمور التي اختص بها رسول الله عن سائر الناس.

حقوق النبي ﷺ وأهل بيته

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيءُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٣١﴾ إِنْ تَجِدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءِآبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾

في هذه الآيات ينبه الله ﷻ عباده وينظم علاقتهم ببيوت النبي ﷺ وبنسائه

أمهات المؤمنين في حياته وبعد وفاته، وهذه التوجيهات على النحو التالي:

الفصل الأول

الاستئذان والطعام في البيوت

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَفْسِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيءُ مِنَ الْحَقِّ...﴾.

هذه الآية فيها: "حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا يصنعون ذلك في بيوته في الجاهلية، وابتداء الإسلام، حتى غار الله تعالى على هذه الأمة"^(١)، فأمرهم ألا يدخلوا بيوت النبي ﷺ بغير إذن، وهذا لجميع المسلمين وليس خاصاً برسول الله، وبيوت رسول الله فقط، وإنما كان في حق رسول الله ﷺ أوجب.

ويتجلى ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

آداب الاستئذان

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

"لما خصص الله سبحانه ابن آدم، الذي كرمه وفضله بالبيوت، وستره فيها عن الأبصار، وملكه الاستمتاع بها على الأفراد حجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج.

أو يلجوها من غير إذن، وأدبهم بما يرجع الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة"^(١).

"وإن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع على عورات، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات، وتهبئ الفرصة للغواية، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطارئة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار، وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرمة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات السلوكية، وذلك يجرم البيوت أمنها وسكيتها واستقرارها"^(٢).

فالاستئذان على البيوت "يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابةً وسكناً. ويوفر على أهل البيوت الحرج من المفاجئة والضيق بالمباغثة، ويحقق أيضاً حفظ العورات، وهي عورات كثيرة، فهي ليست عورات البدن فحسب، بل يضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات الأثاث التي قد لا يجب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيئة وتجميل وإعداد، وأيضاً هي عورات المشاعر والحالات النفسية، فكم منا لا يجب أن يراه الناس وهو في حالة من

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢ / ٢١٢).

(٢) في ظلال القرآن (٤ / ٢٥٠٧) مختصراً.

ضعف يبكي لانفعال مؤثر، أو يغضب لشأن مشير أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء... الخ، وأيضا يقضي على الفتنة ويقلع جذورها قبل وقوعها"^(١).

وللاستئذان أحكام وآداب كثيرة^(٢) يجب مراعاتها لتستقيم حياة الناس وتسموا أخلاقهم، ويمكن أن نجمل هذه الأحكام والآداب في النقاط التالية:

- ١- اختيار الأوقات المناسبة.
- ٢- فعل السنة بالسلام والاستئناس.
- ٣- أن يقف المستأذن عن يمين أو شمال الباب.
- ٤- يحرم نظر الرجل في بيت غيره بغير إذن (غض البصر).
- ٥- الاستئذان ثلاثا.
- ٦- التعريف بنفسه بالاسم أو الكنية الصريحة المعروفة.
- ٧- ألا يطرق الباب بعنف.
- ٨- إذا قال صاحب البيت للمستأذن ارجع فليرجع.
- ٩- لا يدخل المستأذن الدار إن لم يكن بها أحد.
- ١٠- جواز الدخول في البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له فيها متاع.
- ١١- الاستئذان عند إرادة القيام والانصراف من المجلس.
- ١٢- الاستئذان على الأم ومن في حكمها من المحارم (الأخت، العمّة، الخالة.....).
- ١٣- استحباب تنبيه الزوجة عند الدخول.
- ١٤- التزام استئذان أهل البيت على بعضهم.

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٧) بتصرف.

(٢) لقد رجعت إلى عدة كتب في الأخلاق والآداب لاستنباط تلك الآداب وبالأخص كتاب الآداب لفؤاد ابن عبد العزيز الشلهوب، وموسوعة الآداب الإسلامية لعبد العزيز بن فتحى السيد ندا، وكتب التفسير، وقد ذكرت تفصيلاً لهذه الآداب والأحكام في بحث تفسير سورة النور عند شرح آيات الاستئذان فيمكن الرجوع إليه للاستزادة.

المبحث الثاني

آداب الطعام والجلوس له المذكورة في الآية

قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَفْسِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

من آداب الطعام والحضور المذكورة في الآية:

١- أن لا يحضر المسلم على طعام إلا بدعوة من صاحب الطعام.

٢- ألا يدخل البيت إلا بعد أن يؤذن له بالدخول.

٣- فإذا دعي لا يأتي مبكراً قبل وقت الطعام فينتظر إلى أن ينضح الطعام.

٤- وأن ينصرف بعد الانتهاء من الطعام.

فإذا دُعِيَ الإنسان إلى طعام فعليه أن يجيب دعوة أخيه ولكن يحضر في وقت الطعام ولا يأتي قبل ذلك بحيث يكون أهل البيت لم يكملوا إنهاء نضج الطعام، فينتظر نضجه وهو عندهم، فيسبب الإحراج لهم.

ثم بعد الطعام عليه أن ينصرف، لكي لا يوقع أخاه في حرج، إلا إذا علم من أخيه أنه يجب ذلك، ولكن لا يطيل المكث، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا دعا أحدكم أخاه فليجب، عرسا كان أو نحوه)^(١).

وعن أنس بن مالك ؓ قال: "لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ

(١) صحيح مسلم كتاب النكاح باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٢٩) بألفاظ متعددة.

ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...﴾^(١). ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ﴾.

ما أشد حاجة المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي قد تركه كثير من الناس، فإن المدعويين على الطعام يتخلفون بعده، بل إنهم ليتخلفون على المائدة، ويطول بهم الحديث، وأهل البيت الذين يحافظون على أوامر الله ويحتجبون عن هؤلاء الزائرين متأذون محبسون، مع أن الإسلام دين الأخلاق ينهى عن مثل تلك التصرفات، المؤذية لأصحاب البيوت.

ثم يقول الله تعالى عن هذا العمل الذي فعله هؤلاء النفر: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾
ومن هنا يأتي التنبيه على بعض آداب الطعام الأخرى التي حثنا عليها ديننا الحنيف.

المبحث الثالث

بقية آداب الطعام

ذكرنا في المبحث السابق أربعة آداب مذكورة في الآيات وهي:

١- أن لا يحضر المسلم على طعام إلا بدعوة من صاحب الطعام.

٢- ألا يدخل البيت إلا بعد أن يؤذن له بالدخول.

٣- فإذا دعِيَ لا يأتي مبكراً قبل وقت الطعام فينتظر إلى أن ينضج الطعام

٤- وأن ينصرف بعد الانتهاء من الطعام.

ونتم آداب الطعام الأخرى باختصار:

٥- النهي عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة:

جاء الوعيد الشديد لمن شرب في آنية الذهب والفضة، أو أكل في صحافهما،

فمن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تلبسوا الحرير ولا الديداج،

ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا،

ولنا في الآخرة)^(١).

٦- النهي عن الأكل والشرب في غير اعتدال:

سواءً في كمية الطعام، وفي الهيئة التي يكون عليها الأكل: قال تعالى ﴿يَبْنِي

ءَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وعن أبي جحيفة قال: (كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

لرجل عنده، لا أكل وأنا متكئ)^(٢).

(١) صحيح البخاري كتاب الأطعمة باب الأكل في إثناء مفضض (٥٤٢٦). صحيح مسلم كتاب اللباس

والزينة باب تحريم استعمال إثناء الذهب والفضة (٢٠٦٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب الأطعمة باب الأكل متكئاً (٥٣٩٩).

٧- التسمية في ابتداء الأكل والشرب، وحمد الله بعدهما:

عن عمرو بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)^(١).

فإن نسي أن يسمي الله ثم ذكر أثنائه فإنه يقول كما قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى فليقل: بسم الله أوله وآخره)^(٢).

وعن معاذ بن أنس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه)^(٣).

٨- الأكل والشرب باليمين:

فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: أن رجلا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: (كل بيمينك) قال: لا أستطيع!! قال: (لا استطعت)، ما منعه إلا الكبر قال فما رفعها إلى فيه^(٤).

٩- الأكل مما يلي الإنسان:

وهذا كما في حديث عمر بن أبي سلمة المتقدم: (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك).

(١) البخاري كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٣٧٦). صحيح مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢).

(٢) سنن أبو داود كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام (٣٧٦٧)، مسند أحمد (٢٥٥٥٨). صححه الألباني في صحيح سنن أبو داود (٣٧٦٧).

(٣) سنن الترمذي كتاب الدعوات باب ما يقول إذا فرغ من الطعام (٣٤٥٨) وقال حديث حسن غريب. سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب ما يقال إذا فرغ من الطعام (٣٢٨٥). وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٨٥).

(٤) صحيح مسلم كتاب الأشربة باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢١).

١٠ - استحباب الاجتماع على الطعام:

لقول النبي ﷺ: (طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة
وطعام الأربعة يكفي الثمانية)^(١). قال الإمام أحمد: "إذا جمع الطعام أربع كمل: إذا
ذكر اسم الله في أوله، وحمد الله في آخره، وكثرت عليه الأيدي، وكان من حل"^(٢).

١١ - الدعاء لصاحب الطعام:

قوله ﷺ عندما دعي إلى طعام وانتهى: (أفطر عندكم الصائمون، وأكل
طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة)^(٣).

١٢ - جواز تقديم الأكل على الصلاة عند حضور الطعام:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان أحدكم على الطعام فلا
يعجل، حتى يقضي حاجته منه، وإن أقيمت الصلاة) وفي رواية أخرى (إذا وضع
العشاء وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء)^(٤).

والآداب في هذا كثيرة، فتراجع في كتب الآداب^(٥).

(١) صحيح مسلم كتاب الأشربة باب المواسة في الطعام القليل وأن طعام الواحد يكفي الاثنين (٢٠٥٩).

سنن ابن ماجة كتاب الأطعمة باب طعام الواحد يكفي الاثنين (٣٢٥٤). مع اختلاف في لفظ الحديث.

(٢) زاد المعاد (٤/٢٣٢).

(٣) سنن أبو داود كتاب الأطعمة باب ما جاء في الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده (٣٨٥٤). وصححه

الألباني في صحيح سنن ابن ماجة كتاب الصيام باب ثواب من فطر صائماً (ح١٧٤٧).

(٤) صحيح البخاري كتاب الأذان باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة (٦٧١). صحيح مسلم كتاب

المساجد باب كراهية الصلاة بحضر الطعام (٥٥٧). وللحديث ألفاظ أخرى في الصحيحين.

(٥) للاستزادة مراجعة الكتب الصحاح وكتب السنن وكتب الآداب المتخصصة ومنها كتاب الآداب لفؤاد

بن عبد العزيز الشلهوب، وكتاب موسوعة الآداب الإسلامية لعبد العزيز فتحي ندا وغيرها.

الفصل الثاني

حال أزواج النبي ﷺ معه واختيارهن الصبر

تمهيد:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

"انتقلت الآيات من ميدان الجهاد - في غزوة الأحزاب وبنو قريظة - إلى ميدان الأسرة، لتحدثنا عن خير الأزواج، عن رسول الله ﷺ، الزوج الذي كان يقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(١)، ويقول أيضا: (إن من أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم خلقا، وألطفهم بأهله)^(٢)، وفي رواية: (وخيركم خيركم لنسائه)^(٣).

وما أكثر الأزواج الذين ينهزمون في ميدان الأسرة الذي يواجهون فيه ميول النفس وشهواتها، ويسقطون صرعى أهوائهم وشهواتهم، ولهذا كرر الله تعالى التحذير من الافتتان بالأزواج والأولاد ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن

(١) سنن الترمذي كتاب المناقب باب فضل أزواج النبي (٣٨٩٥) قال الترمذي حديث حسن غريب وهو صحيح من طريق الثوري. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٥٧٥ ح/٢٨٥).

(٢) المستدرک على الصحيحين على الصحيحين (١/١١٩ ح/١٧٣). سنن الترمذي كتاب الإيمان باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه (٢٦١٢) وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٤٨٨)، وأخرجه أحمد في المسند (٦/٩٩ ح/٢٤٧٢١) وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٣) صحيح سنن الترمذي كتاب الرضاع باب حق المرأة على زوجها (٩٢٦). مسند أحمد (٢/٢٥٠ ح/٧٣٩٦). قال الألباني: حسن صحيح.

تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
 وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿التغابن: ١٤-١٥﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ
 وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
 كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
 فَتَرْتَبِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿التوبة: ٢٤﴾،
 وغيرها كثير.

ويتبين لنا حال أزواج النبي ﷺ معه من خلال المباحث التالية:

(١) من موضوعات سور القرآن (٨١) بتصرف.

المبحث الأول

حادثة التخيير

في هذه السورة: "أمر من الله لرسوله ﷺ، بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزيتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا، وسعادة الآخرة"^(١).

فلقد اختار رسول الله ﷺ، له ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عاجزاً عن حياة المتاع، فقد فتح الله له الأرض وملكه من الغنائم والمال الشيء الكثير، ومع هذا فقد كان يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة لا يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير رضي الله عنه: (يا ابن أخي إنا كنا لنتنظر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاث أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار). قال: فما كان يعيشكم قالت: (الأسودان التمر والماء)^(٢)، وقد كان ﷺ يربط على بطنه الحجر من شدة الجوع^(٣)، فهذا كان اختيار رسول الله ﷺ البعد عن متاع الدنيا، رغبة فيما عند الله تعالى، وأعظم الزهد وأبلغه رغبة من يملك ويعف.

وهذا ليس تحريماً لما أحل الله، فرسول الله ﷺ كان يقبل ويحجب دعوة الصحابة ويأمر بذلك^(٤)، ويلبس الحلل الجيدة^(٥) قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلُ كُلُّوْا

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقائق باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا (٦٤٥٩). صحيح مسلم كتاب الزهد والرفائق (٢٩٧٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٤١٠١) من حديث جابر بن عبد الله، ومسنده أحمد (٤٤ / ٣). ومجمع الزوائد باب بيان صفة حفر الخندق والشدة التي أصابهم يوم الأحزاب (٦ / ١٣١).

ومسنده أبي عوانة (٤ / ٣٥٠). وقد حدث هذا لرسول الله ﷺ عدة مرات.

(٤) صحيح البخاري كتاب المظالم باب نصرة المظلوم (٢٤٤٥).

(٥) المستدرک علی الصحیحین (٣ / ٢٤١ ح ٤٩٦٣).

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾. ولكنه لا يبحث عنها بل هي تأتيه رزقاً طيباً بدون تطلع ولا طلب لها من غير حلها. وليس في هذا أمر لكل الناس أن يكونوا على تلك الحالة من الزهد والجود، ولكن الأمر أن تكون هذه الدنيا في الأيدي وليست في القلوب، وأن لا يجري الإنسان وراء متاع الدنيا الفاني بل يجري وراء نعيم الآخرة الباقي.

ففساء رسول الله ﷺ، من البشر هن مشاعر البشر وتطلعات البشر، فقد طلبن من رسول الله في ذلك الوقت بالتوسيع عليهن في المعيشة^(١)، ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام بدا عليه الحزن في ذلك لأنه يريد أن يكون جزاءه عند الله في الدار الآخرة.

ولهذا حصل التخيير لزوجات النبي ﷺ إما أن يصبرن لله ورسوله، أو يسرحهن رسول الله ﷺ سراحا جميلا حسنا لا ظلم فيه.

فعن عائشة رضي الله عنها: "أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه"، قالت: "فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: (إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك). وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه!. قالت: ثم إنه قال: (وإن الله قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيات، فقلت له: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة"^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: "أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يأذن له. ثم أقبل عمر فلم يأذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر:

(١) يؤخذ هذا من قول النبي لأبي بكر وعمر عن نساؤه (من حولي يسألني النفقة) كما سيأتي.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّأَزْوَاجِكَ﴾ (٤٧٨٥).

لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - زوجة عمر - سألتني النفقة أنفاً، فوجئت عنقها. فضحك النبي ﷺ وقال: (هن حولي يسألني النفقة). فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها، وقام عمر ﷺ إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده؟. فهاهم رسول الله ﷺ، فقلن نسائه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. "قال": وأنزل الله ﷻ الخيار"، فبدأ بعائشة فقال: (إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك). قالت: "وما هو؟". قالت: "فتلا عليها: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُ لِّأَزْوَاجِكَ﴾" قالت عائشة ﷺ: "أفيك أستأمر أبواي، بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت". فقال: (إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها)^(١).

(١) صحيح مسلم كتاب الطلاق باب بيان أن تحيير امرأته لا يكون طلاق إلا بالنية (١٤٧٨).

المبحث الثاني

وقفات مع قصة التخيير

الوقفة الأولى: "هذه الحادثة تصور لنا تصويراً حقيقياً حياة رسول الله ﷺ، والذين عاشوا معه واتصلوا به، فهي كانت حياة أناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم وصفات الإنسانية، مع هذه المرتبة العليا التي وصلوا إليها من الصلة بالله، والرغبة فيما عند الله.

الوقفة الثانية: وعلى أنهم بشر، فيجب علينا الارتباط بهم، والعمل كما عملوا، فلا نقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم، ولا تكون سيرتهم عندنا كأنها خيال لا يمكن تحقيقه، فنشعر بأنهم خلق آخر لا يمكن أن نصل إلى ما وصلوا إليه، فلا نتأسى بهم، أو نتأثر بسيرتهم يأساً من إمكان التشبه بهم، ويحل محل العمل بما عملوا الانبهار والافتخار بما فعل غيرنا، ومن هنا جاء اختيار الرسول وكل الرسل من البشر كي يقتدي الناس بهم، ولا يكون هناك انفصال بين القدوة والناس بحجة أنه ليس بشر مثلهم. ولا أدل على ذلك من قصة مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي ترك زخرف الدنيا رجاء النعيم الباقي"^(١).

الوقفة الثالثة: كان رسول الله ﷺ يحب زوجته عائشة حباً شديداً، ولذلك بدأ بها في التخيير، وأوصاها أن تستشير أبايها، وهو يعلم أن أبايها لن يشيرا عليها إلا بالله ورسوله، وعائشة وهي أصغر نساء النبي صلى الله عليه وسلم، إذا رضيت بالله ورسوله فإن جميع زوجاته سيرضين بذلك من باب أولى.

الوقفة الرابعة: ومن حب رسول الله ﷺ لزوجاته وعدله معهن في الحقوق، ورغبته أن يكنّ معه ولا ينصرفن عن الله ورسوله، فإنه عندما ظهر أمامه غيرة النساء، وطابع الأنوثة من عائشة رضي الله عنها، عندما قالت له: "لا تخبر زوجاتك بما اخترت". كي تحوز هي على شرف المكوث مع رسول الله ﷺ، ولكن رسول الله

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٨٥٧)، بتصرف.

رؤوف رحيم، يحب الخير لكل زوجاته يقول لها: (إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها)^(١)، فرسول الله رحمةً وعدلاً بينهن لا يريد أن يحجب عن نساته ما قد يعينهن على الخير ويحفظهن إليه، بل يقدمهن العون والمحفزات للخير^(٢).

الوقفة الخامسة: في أمر الله لرسوله ﷺ بتخيير زوجاته فوائد عديدة:

١- "الاعتناء برسول الله ﷺ، والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

٢- سلامته ﷺ من تبعية حقوق الزوجات، وأن يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع.

٣- تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله ﷺ، والدار الآخرة.

٤- سلامة زوجاته رضي الله عنهن، عن الإثم، والتعرض لسخط الله ورسوله.

٥- إظهار رفعتهم وعلو درجاتهم وبيان علو همهم، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهم ومقصودهم دون حطام الدنيا.

٦- استعدادهم بهذا الاختيار للأمر المختار للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

٧- أن يكون اختيارهم هذا سبباً لزيادة أجرهم ومضاعفته وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء"^(٣).

وقبل أن ننهي هذا الموضوع، يمكن أن نذكر باختصار شيئاً يسيراً يُعَرِّفنا بزوجات رسول الله ﷺ.

(١) تقدم ترجمته.

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٨٥٧).

(٣) تفسير السعدي (٦١٠).

المبحث الثالث

زوجات النبي ﷺ

١- أم المؤمنين/ خديجة بنت خويلد:

من قريش تزوجها رسول الله ﷺ بمكة قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته، فأمنت به وصدقته ونصرته، فكانت أول من أسلم من النساء، وقد عاصرت الفترات الأولى من الدعوة في العهد المكي ولم يدخل في قلبها اليأس فكانت نموذجاً للزوجة المؤمنة الحكيمة، والأم الصابرة، والداعية المتاجرة ببالها ونفسها في سبيل الله تعالى. قال النبي ﷺ عنها: (وخير نسائها خديجة بنت خويلد)^(١). وبذلك استحققت أن تُبَلِّغ من ربها السلام، وأن تبشر بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب فقد ورد عن أبي هريرة ؓ أنه قال: (أتى جبريل النبي ﷺ فقال يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ﷻ، ومني، وبشرها بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه لا نصب)^(٢). ولم يتزوج رسول الله في حياتها زوجة أخرى، وأولاد رسول الله ﷺ كلهم منها إلا [إبراهيم] ؑ، فإنه من ماريه ؑ، وهم: [القاسم وعبدالله] ؑ، ولم يعيش منهما أحد فقد ماتا صغاراً، وأما البنات فهن: [زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة] رضي الله عنهن، وقد توفاهن الله في حياته ﷺ، إلا فاطمة فقد ماتت ؑ بعده. وخديجة من خير نساء الأمة، ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات ؑ، وحزن عليها النبي ﷺ

(١) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي خديجة وفضلها (٣٨١٥)، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين (٢٤٣٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي خديجة وفضلها (٣٨١٩)، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين (٢٤٣٢). مع اختلاف في لفظ الحديث.

كثيراً^(١).

٢- أم المؤمنين/ سودة بنت زمعة:

من قريش تزوجها رسول الله سنة عشر من البعثة، بعد أن تاملت من زوجها، عطفاً منه ﷺ عليها ورحمة بها، ووفاء لزوجها المهاجر بدينه إلى الحبشة، لا سيما وهي امرأة كبيرة في السن، وتحتاج إلى من يرعاها، وذلك بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت سيدة جليلة نبيلة، وانفردت برسول الله ثلاث سنوات إلى أن دخل بعائشة رضي الله عنهن جميعاً، وكبرت عند رسول الله فأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة^(٢) حباً لرسول الله، فلم يطلقها ونالت ﷺ شرف البقاء في بيت رسول الله زوجة له في الدنيا والآخرة. وتوفيت ﷺ في آخر زمن عمر بن الخطاب ﷺ.

٣- أم المؤمنين/ عائشة بنت أبي بكر:

من قريش خطبها رسول الله قبل الهجرة بستين وهي بنت ست سنين، ودخل بها بعد الهجرة وهي بنت تسع سنين، ومات رسول الله ﷺ وهي بنت ثمان عشرة، وهي من أحب زوجات النبي ﷺ إليه، ولم يتزوج بكرة غيرها، والله تعالى قد برّأها في القرآن مما رماها به أصحاب الإفك، وكانت من أफقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، وقد صبرت مع رسول الله على الجوع وضيق العيش، وكانت من أشد نساء النبي غيرة عليه. وتوفي رسول الله ﷺ في بيتها بعد أن أذن له نساءه أن يُمرّض في بيتها رضي الله عنهن جميعاً، ودفن في غرفتها. وعاشت بعده تعلم الرجال والنساء وتشارك في نهضة المسلمين إلى أن توفيت ﷺ بالمدينة وهي في السادسة والستين من عمرها، ودفنت بالبقيع سنة ثمان وخمسين ﷺ.

(١) للاستزادة يمكن مراجعة كتاب خديجة بنت خويلد للشيخ عبد العزيز القاري.

(٢) انظر نص الرواية في صحيح البخاري كتاب النكاح باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها (٥٢١٢).

صحيح مسلم كتاب الرضاع باب جواز هبة نوبتها لضرتها (١٦٦٣).

٤- أم المؤمنين/ حفصة بنت عمر بن الخطاب:

من قريش تزوجها رسول الله بعد موت زوجها سنة ثلاث للهجرة وكانت شابة جميلة، وكانت أيضا تغار على رسول الله ﷺ، وقد ورد أن رسول الله طلق حفصة وقت حادثة النظاهر ثم راجعها^(١). وهي التي اختيرت من بين زوجات الرسول ﷺ لتحفظ أول مصحفٍ خطي للقرآن الكريم، توفيت رضي الله عنها سنة ثمانين وعشرين.

٥- أم المؤمنين/ أم حبيبة بنت أبي سفيان:

من قريش واسمها رملة بنت أبي سفيان زعيم قريش، وقد آمنت بالله وهاجرت إلى الحبشة، رغم كفر أبيها في ذلك الوقت، فظهرت قوة إرادتها، وتحملت في سبيل عقيدتها الأهوال والمتاعب، تزوجها رسول الله ﷺ، وهي في الحبشة بعد ترملها من زوجها، فعوضها الله خيراً على ثباتها على الإيمان بأن تكون أما للمؤمنين، وبنى بها رسول الله بعد فتح خيبر حينما رجعت من الحبشة، وهي التي رفضت أن يجلس أبوها وهو مشرك على فراش رسول الله ﷺ إظهاراً للولاء لهذا الدين وتقديمه على أي قرابة، وبعد أن توفي رسول الله ﷺ لزمت بيتها ولم تخرج إلا للصلاة ولم تترك المدينة إلا للحج حتى توفاه الله بعد أن تركت نموذجاً من الاعتزاز بالدين والحرص عليه والارتفاع والسمو عن القيم الجاهلية.

٦- أم المؤمنين/ أم سلمة:

من قريش وهي هند بنت أبي أمية كان أبوها من أكرم رجال قريش، وكانت قبل زواجها برسول الله عند أبي سلمة رضي الله عنه وكانت من مهاجرات الحبشة وقد تحملت مع زوجها صنوف العذاب من قريش، إلى أن توفاه الله فعوضها الله تعالى

(١) سنن أبي داود كتاب الطلاق باب المراجعة (٢٢٨٣)، سنن ابن ماجه كتاب الطلاق باب (١) (٢٠١٦).
سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/١٥٠٧) (٢٠٠٧).

عن زوجها من هو خير من زوجها، وفاءً لحقها ولصبرها في سبيل البقاء على هذا الدين ونصرته، وأصبحت أم سلمة ليست أمّاً لسلمة فقط بل لجميع المؤمنين. وكانت ذات جمال ووفاء وعاطفة وفطنة، وذات عقل وحكمة، كما في الحديدية، وتميزت بالصبر، والثبات في الشدة، وهي أول من هاجرت إلى المدينة لوحدها، توفيت سنة اثنين وستين هـ، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم موتاً بعد أن ضربت نموذجاً للمرأة المسلمة في الوفاء والجهاد والصبر.

٧- أم المؤمنين/ زينب بنت جحش:

من بني أسد وهي أم المؤمنين زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب. وأختها حمنة بنت جحش، وهي من المهاجرات الأول ^(١). خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فرفضت في بداية الأمر ولكن عندما علمت أنه اختيار رسول الله وافقت والتزمت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم طلقها زيد بن حارثة فتزوجها رسول الله عليه الصلاة والسلام بأمر من الله تعالى. وكانت زينب رضي الله عنها صالحة تقية صديقة الإيوان، شهدت لها بذلك ضرثها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إذ تقول: "لم أرى امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأنقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله صلى الله عليه وسلم...." ^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه يوماً: (أسر عكن لحاقاً بي أطول لكن يداً..). قالت: فكنّ يتناولن أيديهن أيتهن أطول يداً. قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق ^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١١).

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة (٢٤٤٢) هذا جزء من الحديث. الإصابة (٩٣/٨).

(٣) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب (١١) مطولاً. ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل زينب بنت جحش (٢٤٥٢).

وكانت تشتهر بكثرة الصدقة، والخشية لله ورقة القلب والعطف على المساكين حتى قيل عنها أم المساكين، وكانت صفة الورع من صفاتها ﷺ، فلم تستغل الفرصة لتتكلم على ضررتها وتشويهها عند رسول الله ﷺ في حادثة الإفك، ولكن قالت: "أحمي سمعي وبصري". ولم تكتف بذلك بل مدحتها أمام رسول الله ﷺ وظنت بها الظن الحسن فقالت: "والله ما علمت عليها إلا خيراً"^(١). وتوفيت ﷺ سنة عشرين للهجرة، وصلى عليها عمر ﷺ ودفنت في البقيع.^(٢) فرضي الله عنها وأرضاها.

٨- أم المؤمنين/ زينب بنت خزيمة:

تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً، وتوفيت ﷺ. وتسمى أم المساكين أيضاً، سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين وهي من بني هلال بن عامر بن صعصعة وتوفيت ورسول الله ﷺ حي، وكانت قبله عند الحصين - أو عند الطفيل بن الحارث - ماتت بالمدينة وهي أول نساءه موتاً بالمدينة ﷺ.^(٣)

(١) الخبر بطوله في صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ (٤٧٥٠). صحيح مسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ٢١١).

(٣) رواه الطبراني ٥٧/٢٤ وعقد لها باباً ح ١٤٨-١٥٠ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٤٠٠ ورجاله ثقات، وانظر أخبارها فيه ٩/٤٠٠-٤٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/٧٠ ح ١٣٢٠١. وأسد الغابة ١/١٣٥٩ والبداية والنهاية ٥/٢٩٥.

٩- أم المؤمنين / جويرية بنت الحارث:

من خزاعة وكانت سُبيت في غزوة بني المصطلق، وقضى رسول الله عنها ما كاتب به من كانت من سهمه، وتزوجها رسول الله سنة ست من الهجرة، وهي التي بسببها أعتق المسلمون مائة أهل بيت من الرقيق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكان ذلك من بركاتهما على قومها، وقد كان زواج النبي بها سبب في إسلام قومها، وكانت من أجمل النساء. وتوفيت سنة ست وخمسين ٥٦٠.

١٠- أم المؤمنين / صفية بنت حيي بن أخطب:

من بني النضير من سبط هارون بن عمران عليه السلام، تزوجها النبي ﷺ سنة سبع للهجرة، وكانت سُبيت في غزوة خيبر، استصفاها رسول الله ﷺ وصارت في سهمه، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. لا يختلفون في ذلك وهو خصوص عند بعض الفقهاء له إذ كان حكمه في النساء مخالفا لحكم أمته، وقد أعتقها رسول الله وجعل عتقها صداقها، وكانت صفية حليلة عاقلة فاضلة، وقد رزقها الله تعالى جمالاً. وتوفيت سنة ست وثلاثين ٦٣٠.

١١- أم المؤمنين / ميمونة بنت الحارث:

وهي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية من بني هلال بن عامر بن صعصعه نكحها سنة سبع في عمرة القضاء، كانت من سادات النساء اللواتي اشتهرن بالفضل والنسب الرفيع، وقيل هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وهي آخر من تزوج من أمهات المؤمنين، قالت عنها عائشة رضي الله عنها عند موتها: "ذهبت والله ميمونة أما إنها كانت والله من أتقانا لله وأوصلنا للرحم" ^(١) توفيت سنة ٦٤٠ إحدى وستين، وكان لها يوم توفيت ثمانون أو إحدى وثمانون سنة، على

(١) المستدرک علی الصحیحین (٤/٣٢). وابن سعد فی الطبقات (٨/١٣٨).

كبر سنها جلدَةً وقيل: توفيت سنة ثلاث وستين سنة، فتكون على هذا القول هي آخر من مات من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

هؤلاء هن زوجات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم المتفق عليهن عند أهل العلم وهن أحد عشر امرأة، ولم يختلف فيهن، منهن ست من قريش وواحدة من بني إسرائيل من ولد هارون وأربع من سائر العرب، وتوفى في حياة الرسول منهن خديجة، وزينب بنت خزيمة. ومات عن تسع زوجات.

وقد تسرى رسول الله باثنتين:

الأولى: مارية المصرية: التي أهداها المقوقس ملك مصر إلى رسول الله وأنجبت له ابنه إبراهيم، وتوفى وهو صغير.

والثانية: ریحانة بنت زيد القرظية: كانت من سبايا قريظة. وقيل أن النبي أعتقها وتزوجها صلى الله عليه وسلم.

فهذه نبذة مختصرة عن زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ورضي الله عن جميع أمهات المؤمنين، ورضي الله عن كل من تبعهن بإحسان إلى يوم الدين.

(١) هذا ملخص ما ذكرته كتب السيرة والأعلام وللإستزادة تراجع كتب السيرة مثل كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، والإصابة في معرفة الصحابة، سير أعلام النبلاء، وكتاب زوجات النبي صلى الله عليه وسلم للإمام محمد بن يوسف الصياحي الدمشقي وتراجع سيدات بيت النبوة، ونساء النبي كلاهما لـ بنت الشاطي. وكتاب نساء حول الرسول لمحمود مهدي الاستانبولي.

الفصل الثالث

آداب خاصة مع زوجات رسول الله ﷺ

المبحث الأول

أدب سؤال زوجات النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَيْ: "وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن، ولا يسألن إلا من وراء حجاب" (١).

"أي: من وراء ستر بينكم وبينهن" (٢).

فالواجب عند سؤال زوجات النبي ﷺ أن تسألوهن من وراء حجاب، ولا ينظر أحد إلى وجوههن، ويقاس على ذلك سائر النساء (٣).

والمحتاج: "ما يحتاج إلى الانتفاع به مثل عارية الأواني ونحوها، ويلحق بذلك مما هو أولى بالحكم، من السؤال عن الدين أو عن القرآن، وقد كانوا يسألون عائشة رضي الله عنها عن مسائل الدين" (٤). "فهذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب، في حاجة تعرض، أو مسألة يستفتين فيها" (٥).

فإذا أراد إنسان حاجة من امرأة سوى المحارم، فيجب عليه أن يغض بصره لأنه مأمور بذلك قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وعلى النساء أن

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٥٥).

(٢) فتح القدير (٤ / ٢٨٩).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢٢٧)، أضواء البيان (٧ / ٥٨٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢ / ٩٠).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢٢٧).

يحتجب عن الرجال، وعلى المرأة أن تحتجب بحيث لا يراها الرجال.
 فالخطاب للرجال والنساء وليس للرجال فقط عند إرادة سؤال النساء لأنهن
 "أمورات بالحجاب كما أمر رجال المسلمين بذلك معهن"^(١).
 وفي هذا دليل على جواز معاملة النساء وسؤالهن ولكن وفق ضوابط الشرع
 ومنها ما ذكر في هذه الآية.
 ولكن ما الحكمة فيه؟

تأتي الإجابة مباشرة في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾
 "يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال،
 أي: ذلك أنقى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية، وهذا يدل على أنه لا ينبغي
 لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبته ذلك أحسن لحاله
 وأحسن لنفسه وأتم لعصمته"^(٢).

وسياتي مزيد بيان في أحكام الحجاب عند الكلام عن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
 النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ
 آدَتِي أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ^٤ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾﴾. وذلك عند الحديث
 عن أسباب النجاة والهلاك والوقاية للمجتمع في سورة الأحزاب بمشيئة الله.

(١) التحرير والتنوير (٩٢/٢٢).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٢٧).

المبحث الثاني

النهي عن أذية النبي ﷺ في زوجاته

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿١﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢﴾﴾.

النهي عن نكاح أزواجه من بعده خصوصاً وأن هذا من أذيته^(١)

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ "ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء"^(٢) "﴿وَمَا كَانَ﴾ ليس على النفي وإنما هو على التحريم والنهي"^(٣) وهذا النهي "عام في كل ما يتأذى به"^(٤).
 "وزواج أزواجه من بعده من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته من بعده مغل بهذا المقام"^(٥)، "فقد أجمع العلماء قاطبة، على أن من توفي عنها رسول الله من أزواجه أنه يجرم على غيره تزويجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن"^(٦).

"قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن لا يجل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافراً، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ

(١) هذه إشارة في الموضوع، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس عند الحديث عن أذية الله ورسوله.

(٢) تفسير البغوي (٦/٦٧١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/٣١١).

(٤) البحر المحيط (٩/١٧١).

(٥) تفسير السعدي (٦٧٠).

(٦) تفسير ابن كثير (٦/٤٥٦).

اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١﴾ وقد قيل: إنما منع من التزوج بزوجاته، لأنهن أزواجه في الجنة، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها.

قال حذيفة لامرأته: إن شرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجي من بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها" (١).

وقيل من الحكم في ذلك: "ليتفرغن لتعليم النساء أحكام الدين وفضائله وآدابه ولنقل أخبار النبي ﷺ في بيته وبين أهله، فلقد كن قدوة للنساء في العفة والطهارة والطاعة وحسن الخلق. وإن الله ﷻ تعهد نساء النبي ﷺ بالإرشاد والتأديب، لأنهن الأسوة والقدوة" (٢).

الوعيد لمن تعرض لرسول الله ﷺ أو أزواجه بأذى أو همّ به:

قال تعالى: ﴿إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٢﴾ إِنْ تُبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَارِبٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

ينبه الله على خطورة هذا الأمر جداً فيشدد فيه ويتوعد عليه قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وهذه الآية "إشارة إلى ما ذكر من إيدائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلته في الشر والفساد ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه ﷻ ﴿عَظِيمًا﴾ أي: أمراً عظيماً وخطباً هائلاً لا يقادر قدره، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمة حياً وميتاً ما لا يخفى" (٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٢٩).

(٢) مناظرة بين الإسلام والنصرانية (٢/٥١-٥٢).

(٣) روح المعاني (١٦/٢٠٠).

ثم يهدد الله سبحانه على هذا الأمر بأنه سبحانه بكل شيء عليم، سواء ظهر هذا الأمر أم خفي، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ يُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

في هذه الآية: "التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به فإن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويمجازيكم عليها"^(١).
ولقد امتثل الصحابة أمر الله تعالى ووصية رسوله ﷺ، فيما أمرهم ووصاهم به، فلم يؤذوا رسول الله ﷺ، ولكن بقي دورنا نحن في عدم أذية رسول الله ﷺ، وذلك بإتباع أمره والدفاع عنه وعن أزواجه وسنته ﷺ.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٣٠-١٣١) بتصرف.

المبحث الثالث

استثناء المحارم التي يجوز لنساء النبي والمؤمنات الظهور أمامهم قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

رفع الجناح هنا يدل على أن الأصل هو عدم ظهور المرأة على غير هؤلاء، "فالمرأة منبهة عن إبداء زينتها مطلقا لكن ما ظهر من الزينة من غير قصد لإظهاره فهو معفو عنه"^(١)، وهذا القول رجحه ابن عطية حيث قال: "ويظهر لي أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة"^(٢).

فإنه: "لما أمر الله تعالى النساء بالحجاب من الأجنب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كالذين استثناءهم في سورة النور"^(٣) (٤).

والمعنى: "لا جناح عليهن في وضع الجلباب وإبداء الزينة للمذكورين، وفي حكمهم كل ذي رحم محرم من نسب أو رضاع"^(٥).

﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أي: "تظهر المرأة زينتها للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لثلاث تصفهن لرجاهن، لأنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فهي

(١) كتاب تفسير سورة النور - د/ ناصر بن محمد الحميد (٢٦٩).

(٢) المحرر الوجيز (٤ / ١٧٨).

(٣) وذلك الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولِي الْأَرْزَاقِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة النور (٣١).

(٤) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٥٦).

(٥) روح المعاني (٢٢ / ٧٤).

تعلم أن ذلك حرام فتبتعد عنه، فقد قال رسول الله ﷺ: (لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها)^(١) ^(٢).

ولكن ما هي حدود الظهور أمام هؤلاء المذكورين؟

وقد نبه الإمام القرطبي إلى هذا الأمر بقوله: "هؤلاء المحارم وإن سوى الله سبحانه بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر، فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يُبدي لهم، فيبدي للأب ما لا يجوز إبدائه لولد الزوج"^(٣).

وأيضاً لا يجوز أن تبدي المرأة شيئاً من جسدها يقدر في حياءها أو أن تلبس أمامهم ملابس ضيقة تفصل مفاتن جسمها التي لا يجوز لأحد أن يراها إلا زوجها، فالأصل أن لا تُظهر المرأة أمامهم إلا ما ظهر منها من جمال من غير أن تحاول هي بلباسها أن تظهر ما خفي من جمال عندها، كاللبس الضيق جداً أو العاري، والله أعلم.

ثم قال تعالى ﴿وَأَتَقِينِ اللَّهَ﴾: فإنه تعالى "لما رَفَعَ الجناح والخرج شرط فيه وفي غيره لزوم تقواه، وألا يكون في ذلك محذور شرعي، فأمرهن أن يستعملن تقواه في جميع الأحوال"^(٤).

ثم يعقب الله تعالى على هذه الآية وهذه الرخصة بأنه شهيد على كل شيء قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: "يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه"^(٥).

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح باب: لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها (٥٢٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٧/٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢ / ٢٣٢).

(٤) تفسير السعدي (٦٧١).

(٥) تفسير السعدي (٦٧١).

الفصل الرابع

تمجيد المسلم لرسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

"صلاة الله على النبي ﷺ ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء"^(١).

وقال غير واحد من أهل العلم "صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار"^(٢). "والمقصود من الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونيبه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً"^(٣).

"فيا لها من مرتبة سنية، حيث يتردد في الوجود ثناء الله على نبيه، ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجائه، ويثبت ذلك الثناء. وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم، وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه، وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى وتسليمهم، إنما يشاء الله تشریف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته، وتسليمهم على تسليمه"^(٤).

وستعرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل، وسيكون الحديث في المباحث

التالية:

(١) انظر فتح الباري (٨ / ٥٣٢).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٦ / ٤٥٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٥٧).

(٤) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٩) بتصرف.

المبحث الأول

فضل الصلاة على النبي ﷺ^(١)

١- ثواب صلاتنا على النبي محمد ﷺ يعود علينا:

وذلك فضلا من الله تعالى علينا، وتكريما لنبينا محمد ﷺ، فقد قال عليه

الصلاة والسلام: (من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا)^(٢).

٢- شفاعتنا نبينا محمد ﷺ:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإن من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجوا أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)^(٣).

٣- الملائكة تصلي أي تستغفر للذي يصلي على رسول الله ﷺ:

فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من مسلم يصلي علي إلا صلت عليه الملائكة ما صلى علي فليقل العبد من ذلك أو يكثر)^(٤).

٤- رفع الدرجات، ومحو السيئات:

فعن أنس بن مالك ؓ قال، قال رسول الله ﷺ: (من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ويحط عنه بها عشر سيئات، ورفعها بها عشر درجات)^(٥).

(١) للاستزادة في مسائل هذا المبحث يمكن مراجعة كتب السنة تحت عنوان فضل الصلاة على النبي ﷺ.

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٤٠٨).

(٣) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ (٣٨٤).

(٤) أحمد في المسند (٤٤٥/٣)، وحسنه الألباني صحيح سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٩٠٧).

(٥) مسند أحمد (١٠٢/٣). حديث صحيح، وإسناده حسن (الموسوعة الحديثية ١٩/٥٧).

٥- القرب من النبي ﷺ يوم القيامة:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة) ^(١).

٦- البخيل من ذكر عنده النبي ولم يصل عليه:

فقد قال رسول الله ﷺ: (البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي) ^(٢).

(١) سنن الترمذي (ح ٤٨٤) وقال الترمذي حديث حسن غريب. صحيح ابن حبان (٤/ ٣١٢ ح ٩١٣)، وقال الألباني صحيح لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٦٨).
 (٢) مسند أحمد (١/ ٢٠١)، إسناده قوي ورجاله رجال الصحيحين (الموسوعة الحديثية ٣/ ٢٥٨).

المبحث الثاني

قيمة الصلاة على النبي ﷺ

قد يقال لماذا الصلاة على النبي ﷺ والجواب على هذا السؤال يكون:

١- "بالنظر إلى ما قام به الرسول ﷺ، وما حصل منه من تغيير لأحوال هذه الأمة. فلولا أن الله ﷻ أكرم هذه الأمة بهذا النبي الخاتم، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فلولا إكرام الله لنا بهذا النبي لبقيت هذه الأمة على الشرك بالله تعالى، وعلى جاهليتها، وعاداتها ونعراتها، ولكن الله تعالى، رحمة بنا أرسل إلينا رسولا يتلوا علينا آيات الله ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

٢- أمرنا الله تعالى بالصلاة والسلام على محمد ﷺ وفاءً بحق هذا النبي الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٣- ورغبنا ﷻ في هذا الواجب حيث بدأ فيه بنفسه وثنى فيه بملائكته فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٤- وشرع الله الصلاة على النبي ﷺ إظهاراً لتعظيم الملائكة والمؤمنين له، ولم يشرعها لحاجة النبي ﷻ إليها مع صلاة الله عليه، فهو عليه الصلاة والسلام معظم محترم ومكرم عند الله تبارك وتعالى وفي الملائكة الأعلى، بصلاة الملائكة عليه، ومعظم أيضاً ومحترم ومكرم في الملائكة الأدنى بصلاة المؤمنين عليه، ومحبتهم له، بل وعبادتهم ربهم بتتبع أثره وسنته، والاقتداء بهديه في كل حياته. فهذه الصلاة

مكافأة للنبي ﷺ على بعض حقوقه علينا.

٥- وقبل ذلك كله فإن صلاتنا على النبي ﷺ تشريف لنا وتكريم، لأننا نقتدي

بربنا جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه اللائق به.

٦- ولكن حين نصلى على رسولنا محمد ﷺ نتذكر بعض شمائله الكريمة،

ومحاسنه الخلقية والخلقية، فتحيا لفترة من الزمان قلوبنا وأفكارنا معه عليه الصلاة

والسلام. إن الصلاة على النبي ﷺ جبل من نور يصلنا بمهبط الرحمات، ومركز

الإفاضات الربانية، مها بعد بنا الزمان والمكان^(١).

(١) من موضوعات سور القرآن (١٣٦) باختصار وتصرف.

المبحث الثالث:

كيفية الصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦).

هذه الآية دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ وصفة الصلاة على النبي ﷺ، وهي على النحو التالي:

١. روى البخاري في تفسير هذه الآية، عن كعب بن عجرة ؓ قال: قيل يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: (قولوا اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد)^(١).

ومعنى قوله: (أما السلام عليك فقد عرفناه)؟ قال ابن كثير: "هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)"^(٢).

٢. وعن أبي حميد الساعدي ؓ قال: أن الصحابة ؓ قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: (قولوا اللهم صلي على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)^(٣).

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٤٧٩٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٥٩).

(٣) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب هل يصل على غير النبي ﷺ (٦٣٦٠)، صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٤٠٧).

٣. وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: أقبل رجل حتى جلس إلى النبي ﷺ ونحن عنده فقال: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا صلاتنا صلى الله عليك؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد)^(١).

٤. وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله كيف الصلاة عليك؟ قال: (قل: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)^(٢).

٥. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنهم سألو رسول الله ﷺ، كيف نصلى عليك؟ قال: (قالوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد)^(٣).

ومن السنة الأخذ بمجموع تلك الصيغ الواردة وحفظها والعمل بها جميعاً، قال الشيخ الألباني رحمته الله: "لا يشرع تلفيق صيغة واحدة من مجموع هذه الصيغ بل ذلك بدعة في الدين، وإنما السنة أن يقول هذا تارة وهذا تارة"^(٤).

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٤٠٧).

(٢) مسند أحمد (٣/٣١١ رقم ١٣٢٢).

(٣) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٥/٢٢٧ رقم ١٨٦٥) عن أبي هريرة، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٦/٤١ رقم ٢٦٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/٤٢٧ رقم ٣٧٩)، البيهقي في السنن (٢/٣٧٩/٣٧٨١)، صفة الصلاة للألباني حديث (٧).

(٤) انظر: صفة الصلاة - الألباني (١٣٥-١٣٩).

المبحث الرابع

آداب الصلاة على النبي ﷺ

١- أن تكون الصلاة على النبي ﷺ حسب الألفاظ الشرعية، فلا إفراط ولا تفريط، فقد نهى النبي ﷺ عن المغالاة فيه فعن عمَرَ بن الخطاب ؓ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)^(١).

٢- عدم كتابة حرف (ص) عند ذكر النبي ﷺ، وذلك لأن هذا الحرف لا يغني عن الصلاة على النبي ﷺ، فكما تتعين الصلاة على النبي عند ذكره باللسان فكذلك تتعين عند ذكره في الكتابة، قال ابن كثير: "واستحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه"^(٢).

٣- أن تكون تامة فيكره اختصارها، أو إضمارها لغير حاجة، فإنها ألفاظ تعبدية وشعيرة من شعائر الدين فالأولى إظهارها والجمهور بها وإشاعتها بين المسلمين والتذكير بها، وكذلك الصحابة لم يصلوا عليه ويسلموا عليه بصيغة من عند أنفسهم بل سألوه كيف يصلوا عليه ويسلموا، كما تقدم: في حديث أبي مسعود "أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا صلاتنا صلى الله عليك؟"^(٣).

٤- أن تكون في الأماكن المحترمة، وتنزيهاً عن أماكن الخلاء والامتهان، واحترام المجلس الذي يذكر في اسم الرسول ﷺ ولا يتكلم فيه بكلام غير لائق

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٤٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٤٧٧).

(٣) تقدم تحريجه.

يدل على عدم الاحترام، والله تعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. فالله تعالى رفع ذكر النبي ﷺ، فوجب احترامه لرفعة الله له ﷺ.

٥- الجمع بين الصلاة عليه والسلام، قال ابن كثير: قال الإمام النووي: إذا صلى على النبي فليجمع بين الصلاة والتسليم، ولا يقتصر على أحدهما. وهذا الذي قاله منتزِع من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

٦- الجمع بين الصحابة والآل في الصيغ أحياناً، كما ورد ذلك في صيغ الصلاة على النبي ﷺ.

٧- تحري الأوقات الفاضلة والمواضع التي يسن فيها الصلاة على النبي ﷺ، فقد ورد عن النبي ﷺ أوقات يصلى عليه فيها، وسيأتي بيانها.

٨- الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ. والأحاديث في ذلك كثيرة.

٩- حث الناس على الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره، وهذا من باب الأمر بالمعروف الذي هو الصلاة على النبي ﷺ، والنهي عن المنكر الذي يحصل بسبب نسيان الناس الصلاة على النبي ﷺ. وكذلك هو من باب إشاعة ذكر الله ﷻ، لأن ذكر النبي مقترن بذكر الله تعالى.

وغيرها من الآداب التي ذكرها أهل العلم رحمهم الله تعالى^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤٧٩).

(٢) وللاستزادة في هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لمحمد جميل زينو (٤٢٥-٤٣٦٣). وصفة الصلاة - الألباني (١٣٥-١٣٩). ولقد أطال الحافظ ابن كثير في هذا الموضوع تحت تفسيره لهذه الآية. (٦/٤٥٩).

المبحث الخامس

أهم المواضع التي يستحب فيها الصلاة على رسول الله ﷺ

١ - الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان:

قال رسول الله ﷺ: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل الله لي الشفاعة حلت له شفاعتي)^(١).

٢ - الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير وهي واجبة^(٢):

عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: أقبل رجل حتى جلس إلى النبي ﷺ ونحن عنده فقال: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا صلاتنا صلى الله عليك؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد)^(٣).

٣ - الصلاة على النبي ﷺ في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية:

فقد روى الشافعي عن أبي أمامة بن سهل أنه أخبره رجل من أصحاب النبي أن السنة في صلاة الجنازة أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرّاً ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة في التكبيرات التي لا يقرأ في شيء منهن ثم يسلم سرّاً في نفسه^(٤).

(١) صحيح مسلم كتاب الأذان باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ (٣٨٤).

(٢) انظر تفسير ابن كثير وترجيحه الوجوب وأدلة ذلك (٦/٤٦٠).

(٣) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٤٠٧).

(٤) البيهقي في السنن (٤/٣٩)، المستدرک على الصحيحين (٢/٣٧٥). وصححه الألباني في الإرواء (٣/١٨٠).

٤ - الصلاة على النبي ﷺ في الدعاء أوله وآخره:

قال أبو سليمان الداراني: "من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما"^(١).

٥ - الصلاة على النبي ﷺ عند دخول المسجد والخروج منه:

فتقول: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وعند الخروج تقول: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم إني أسألك من فضلك. لقول النبي ﷺ: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل اللهم أجرني من الشيطان)^(٢). وفي رواية: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك)^(٣).

٦ - الصلاة على النبي ﷺ في يوم وليلة الجمعة:

فقد ورد أنه ﷺ قال: (من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي) فقال رجل: يا رسول الله: وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟! - أي بليت - قال: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢٣٥).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه كتاب المساجد باب الدعاء عند دخول المسجد (ح ٧٧٣).

(٣) صحيح مسلم باب ما يقول إذا دخل المسجد (١١٦٥).

(٤) صحيح سنن أبي داود كتاب الصلاة باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧). وصحيح سنن ابن

ماجه كتاب الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣٦).

٧- عند زيارة مسجده ﷺ:

فقد قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)^(١).

٨- عند السلام عليه ﷺ:

عند زيارته أو من أي مكان كان الإنسان، وقال رسول الله ﷺ: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)^(٢). وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام)^(٣).

٩- عند ذكره ﷺ:

قال رسول الله ﷺ: (البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي)^(٤). فعلى هذا يجب علينا أن نداوم على الصلاة على النبي ﷺ في جميع أحوالنا، وكلما ذكر سواء باللسان أو بالكتابة ونحن نقرأ أو نكتب، ولا يفتر لساننا عن الصلاة عليه على كل حال^(٥).

(١) صحيح سنن أبو داود كتاب المناسك باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، مسند أحمد (٣٦٧/٢).

(٢) حسنه الألباني في صحيح سنن أبو داود كتاب المناسك باب زيارة القبور (٢٠٤١).

(٣) مسند أحمد (١ / ٤٤١)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح (الموسوعة الحديثية (٧/٢٦٠).

(٤) مسند أحمد (١ / ٢٠١)، إسناده قوي ورجاله رجال الصحيحين (الموسوعة الحديثية (٣/٢٥٨).

(٥) للاستزادة حول موضوع الصلاة على النبي ﷺ انظر: تفسير ابن كثير (٦/٤٥٩)، وكتب التفسير لهذه

الفصل الخامس

توعد الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين

المبحث الأول

معنى أذية الله ﷻ

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

في الآيات السابقة عرض الله لنا الأدب والتبجيل لرسول الله ﷺ، وفي هذه الآية التهديد لمن لا يلتزم الأدب مع رسول الله ويقر له التبجيل والاحترام. "فيقول الله تعالى مهديًا ومتوعداً من آذاه بمخالفة أو امره وارتكاب زواجره، وإصراره على ذلك. وأذى رسول الله بعيب أو نقص، عيادا بالله من ذلك" (١).

وتكون أذية الله سبحانه وتعالى بأمر كثيرة ومن أعظمها:

- ١- الكفر بالله.
- ٢- الإلحاد في أسمائه وصفاته.
- ٣- أو القدح والنقص لألوهيته أو ربوبيته.
- ٤- الشك والريب: وأثار ذلك كثيرة ومظاهره منها ما ذكره الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ومنها على سبيل المثال:
 - (أ) الإشراف مع الله غيره في العبادة
 - (ب) نسبة الصاحبة والولد له - تعالى عن ذلك.
 - (ج) صرف أي عبادة لغير الله.
 - (د) وصف الله بما لا يليق به سبحانه.
 - (هـ) نفي أو تعطيل أو تحريف أو تشبيه أسماء الله وصفاته.

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤٨٠).

وهذه أمور ظاهرة لا ينكرها إلا مكابر.

وقد تكون في أمور يتساهل فيها كثير من الناس صالحهم وكافرهم ومنها:

٥- سب الدهر: فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره)^(١).

"ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ، فنهى عن ذلك"^(٢).

٦- عدم تطبيق شرع الله، والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

٧- والحكم بغير ما أنزل: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٨- وموالات الكافرين ومعاداة رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

٩- ومعاداة المؤمنين: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: (من عاداني ولياً فقد أذنته بالحرب)^(٣).

وغيرها من أنواع الأذية له ﷺ.

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (٤٨٢٦). صحيح مسلم كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦) مع اختلاف في لفظ الحديث.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٠).

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب باب التواضع (٦١٣٧).

المبحث الثاني

معنى أذية رسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾

إن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، فمن آذاه فقد آذى الله ومن أطاعه فقد أطاع الله^(١).

"وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلة، من سب وشتم، أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى"^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ "ليس لكم آذاه في شيء من الأشياء"^(٣).

"﴿وَمَا كَانَتْ﴾ ليس على النفي وإنما هو على التحريم والنهي"^(٤) وهذا النهي "عام في كل ما يتأذى به"^(٥).

﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ﴾ أي: "وما صح وما استقام لكم" أن تؤذوا رسول الله ﷺ أي: تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويتأذى به كاللبث والاستئناس بالحديث الذي كنتم تفعلونه وغير ذلك، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتقبيح ذلك الفعل والإشارة إلى أنه بمراحل عما يقتضيه شأنه ﷺ إذ في الرسالة من نفعهم المقتضى للمقابلة بالمثل دون الإيذاء ما فيها"^(٦).

(١) تفسير ابن كثير (٤٨٠).

(٢) تفسير السعدي (٦١٨).

(٣) تفسير البغوي (٦/٦٧١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/٣١١).

(٥) البحر المحيط (٩/١٧١).

(٦) روح المعاني (١٦/١٩٩).

فهنا "يقرر الله تعالى قاعدة عامة وجامعة، وهي: أنكم يا معشر المؤمنين غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء أن تؤذوا رسول الله أذية قولية أو فعلية"^(١).

وقد حصل لرسول الله كل أنواع الأذى:

- ١- من سب وطمعن، وضرب وتعذيب، وجرح كما حصل للنبي ﷺ في مكة والطائف وفي معركة أحد.
- ٢- وقذف لأهله ﷺ كما في حادثة الإفك.
- ٣- ومحاولة قتله كما ورد في حادثة الهجرة، وما أراد أن يفعله يهود بنو النضير به.
- ٤- وإيذاء أصحابه مما يؤذيه ﷺ.
- ٥- ومن الأذية كذلك الابتداء في دين الله تعالى.
- ٦- والغلو في قدره ﷺ ورفع فوق منزلته التي شرفه الله بها.
- ٧- عدم التزام أمره والسير على منهجه ﷺ.
- ٨- "وزواج أزواجه من بعده من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته من بعده مخل بهذا المقام"^(٢).

(١) تفسير السعدي (٦٧٠).

(٢) تفسير السعدي (٦٧٠).

المبحث الثالث

الوعيد على أذية الله ورسوله

١- اللعن والطرده من رحمة الله في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

"لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته، وتوعد عليها وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى. فجزاؤهم: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم في الدنيا أنه يحتم قتل من شتم الرسول، وأذاه"^(١).
"وَلَعْنَةُ الدُّنْيَا التَّقْيِيلُ وَالْجَلَاءُ، وَلَعْنَةُ الآخِرَةِ النَّارُ"^(٢) وقيل: "عذبهم الله في الدنيا بالقتل والسبي وفي الآخرة بالنار"^(٣).

"فيبدو إيذاء الناس للنبي ﷺ بشعاً شنيعاً ملعوناً قبيحاً، ويزيده بشاعة وشناعة أنه إيذاء الله من عبده ومخالفه. وهم لا يبلغون أن يؤذوا الله. إنما هذا التعبير يصور الحساسية بإيذاء رسوله، وكأنها هو إيذاء لذاته جل وعلا. فما أفضعه! وما أبشعه! وما أشنعهُ!"^(٤).

٢- العذاب المهين في الآخرة:

فيا ترى ما حال من طرد من رحمة الله تعالى؟

(١) تفسير السعدي (٦١٨) بتصرف.

(٢) النكت والعيون (٤/٤٢٣). زاد المسير (٦/٤٢٠).

(٣) بحر العلوم للسمرقندي (٣/٤٢٠).

(٤) في ظلال القرآن (٥/٢٨٧٩).

لا شك أنه سيكون في العذاب المهين خالدًا مخلدًا فيه، قال الله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ "فجزاء لهم أن يؤذوا بالعذاب الأليم كما آذوا الله وآذوا رسول الله ﷺ، فأذية الله وأذية رسول الله ﷺ ليست كأذية غيرهما، لأنه لا يؤمن العبد حتى يؤمن بالله وبرسول الله ﷺ ويعظم الله تعالى ويحترم رسول الله ولا يؤذيه لتعظيم الله له لأنه رسوله والمبلغ عنه دينه وشرعه، والله ورسوله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره" (١).

٣- تعظيم أمر أذية الرسول ﷺ في أزواجه عند الله:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٧﴾﴾ **﴿٥٧﴾** إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا **﴿٥٨﴾**﴾.

"إشارة إلى ما ذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر والفساد **﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾** في حكمه **﴿عَظِيمًا﴾** أي: أمراً عظيماً وخطباً هائلاً لا يقادر قدره، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمة حياً وميتاً ما لا يخفى" (٢).

٤- المبالغة في التهديد لمن يؤذي الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا **﴿٥٧﴾**﴾. "يصف **﴿٥٧﴾** لنا شدة الوعيد حيث قال سبحانه: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ مما لا خير فيه على ألسنتكم كأن تتحدثوا بنكاحهن **﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾** في صدوركم **﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾** كامل العلم فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي

(١) تفسير السعدي (٦١٨) بتصرف.

(٢) روح المعاني (١٦/٢٠٠).

البادية والخافية لا محالة" (١).

"فالله هو الذي يتولى الأمر، وهو عالم بما بيدوا وما يخفى، مطلع على كل تفكير وتدبير، والأمر عنده عظيم، ومن شاء فليتعرض. فإنها يتعرض لبأس الله الساحق الهائل العظيم" (٢).

٥- جزاء الذين يؤذون الله ورسوله ﷺ القتل:

فقد قال عليه الصلاة والسلام للصحابة ﷺ عندما تعاضم أمر كعب بن الأشرف في هجاء النبي ﷺ والاستهزاء به وبالصحابة وبنساء المؤمنين قال النبي ﷺ: (من لي بكعب بن الأشرف فقد أذى الله ورسوله؟) (٣).

قال شيخ الإسلام: "من سب النبي ﷺ من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله" ثم حكى الإجماع في ذلك إلى أن قال: "وتحرير القول فيه أن الساب إن كان مسلماً فإنه يكفر، ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة غيرهم، وإن كان ذمياً فإنه يقتل أيضاً في مذهب مالك وأهل المدينة..". (٤).

(١) روح المعاني (٢٠١/١٦) بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/٤٩٢).

(٤) انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول (٣-٤).

المبحث الرابع

التواعد للذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات

بعدهما توعد الله تعالى الذين يؤذون الله تعالى ورسوله، توعد من يؤذي الذين ينهجون منهج الله سبحانه ومنهج رسوله، ويتبعون الله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

"فينسبون إليهم ما هم براء منه، لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم كل من يتنقص الصحابة ويعيبهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسوا القلوب، يذمون المدوحين ويمدحون المذمومين"^(١).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته)^(٢).

"وهذا التشديد يفيد بأنه كان في المدينة يوم ذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات، بنشر قالة السوء عنهم، وتدبير المؤامرات لهم، وإشاعة التهم

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٠).

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩). سنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الغيبة (١٩٣٤).

ضدهم، وهو عام في كل زمان ومكان، والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة من الأشرار والمنحرفين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض، والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد، ويصم أعدائهم بالإثم والبهتان، وهو أصدق القائلين^(١).

وأذية المؤمنين تكون بتعذيبهم وقتلهم، وإشاعة الأقوال والتهم التي هم بريئون منها، والتحريش بينهم، والاستهزاء والسخرية بهم، والإرجاف بهم وفيما بينهم، وتحذيلهم وغير ذلك من كل أذية فعلية كانت أو قولية.

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٨٠).

المبحث الخامس

الأُمور التي اُختص بها النبي ﷺ عن سائر الناس

وقبل أن ننتهي من هذه الآيات ننبه على أمر نبه عليه الإمام القرطبي رحمته الله في تفسيره وهو قوله: "خص الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد في باب الفرض والتحريم والتحليل مزية على الأمة وهبة له، ومرتبة خُص بها، ففرضت عليه أشياء، ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم، منها متفق عليه ومنها مختلف فيه"^(١).

ومن هذه الأمور التي اُختص بها رسول الله عن غيره من الناس ما جاء في هذه السورة:

١- جواز أن يتزوج رسول الله أكثر من أربع نساء.

٢- وأنه لا يجوز أن تنكح أزواجه من بعده أبداً.

٣- وأن يتزوج الواهبة نفسها بدون ولي ولا مهر.

٤- وأنه ليس عليه حرج في عدم القسمة بين زوجاته.

وقد سبق بيان هذه الخصائص الأربع، ووردت خصائص في القرآن والسنة

بسببها أهل العلم ومنها:

- أنه لا يورث ما يتركه بعد موته من الأموال.
- ولا يجوز الصدقة عليه ولا على أهل بيته.
- وأن الله تعالى أوجب عليه قيام الليل.
- واختصاصه ﷺ بإسلام قرينه، أو سلامته من أذى قرينه.

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢١١).

• واختصاصه ﷺ بتحريم الزكاة عليه وعلى آل بيته.

وقد أطل الإمام القرطبي في ذكر ما تفرد به رسول الله، فيمكن المراجعة

للفائدة^(١).

(١) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢١١). مراجعة السنن الكبرى البيهقي (٧ / ٣٦-٦٩). جامع الأصول لابن الأثير (١٢ / ٥-١٢٠) ضمن الشئائل. خصائص الرسول في النكاح - رسالة ماجستير - عيسى بن عواض الغضيانى - جامعة الإمام قسم الفقه (١٤٢٢هـ). الخصائص النبوية للسيد محمد أحمد عبد الباري الأهدل. غاية السؤل في خصائص الرسول - لأبن الملقن. خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء د: الصادق إبراهيم. وغيرها من المراجع التي اهتمت بسيرة الرسول وشئائه ﷺ.

بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب

الموضوع السادس

أسباب

النجاة والوقاية للمجتمع

الباب السادس

أسباب النجاة والوقاية للمجتمع

يرتكز البحث في هذا الباب من موضوعات سورة الأحزاب على موضوع:
أسباب النجاة التي يجب أن يلتزم بها كل مسلم، لتستقيم حياته على نور من الله،
وينجوا برحمة الله.

ينقسم هذا الباب إلى فصلين كما يلي:

الفصل الأول: أحكام الحجاب:

المبحث الأول: حجاب المرأة الشرعي.

المبحث الثاني: أدلة وجوب الحجاب من القرآن الكريم ودلالاتها، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الدليل الأول.

المطلب الثاني: الدليل الثاني.

المطلب الثالث: الدليل الثالث.

المطلب الرابع: الدليل الرابع.

المبحث الثالث: الأدلة من السنة.

المبحث الرابع: فوائد الحجاب.

الفصل الثاني: أسباب الهلاك وطرق النجاة:

المبحث الأول: أسباب الهلاك، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: النفاق والإرجاف ومرض القلوب.

المطلب الثاني: تهديد الله لأصحاب تلك الصفات.

المبحث الثاني: علاج أسباب الهلاك، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التذكير والإنذار بالساعة وحال الناس فيها.

المطلب الثاني: حال الناس عند قيام الساعة.

المطلب الثالث: تحذير الله عباده من مسلك الهالكين قبلهم.

المطلب الرابع: ذكر أسباب النجاة وصفات الناجين.

المبحث الثالث: مدار النجاة والهلاك على الأمانة والمسؤولية، وفيه ثلاثة

مطالب:

المطلب الأول: أهمية الأمانة من خلال الآيات.

المطلب الثاني: الأدلة الدالة على أهمية الأمانة والحائثة عليها.

المطلب الثالث: نماذج من الأمانات الواجبة.

الفصل الأول

أحكام الحجاب

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا



هذه الآية تنبه الأخت المؤمنة على أعظم ما يطهرها ويرفعها عن مستوى الرذائل والدنس، الذي تعج به المجتمعات الكافرة، والذي للأسف تفتشى حتى ظهر في المجتمعات الإسلامية.

"يقول الله تعالى أمر أرسوله ﷺ، أن يأمر النساء المؤمنات عامة - وخاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإمامة"^(١).

ونشير إلى معنى الحجاب من خلال الآية وقراءتها^(٢) من خلال المباحث التالية:

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٢).

(٢) كما سيأتي أيضاً في الدليل الثالث من أدلة وجوب الحجاب إن شاء الله.

المبحث الأول حجاب المرأة الشرعي

"إن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها كنز نفيس، ومعدن غال، ولهذا شرع أن تصان عن عبث يرخصها، أو خداع يمس كرامتها، وإن أجمل ما تكون المرأة إذا كانت ذات دين وأخلاق، حتى ولو كان نصيبها من الجمال متواضعاً، وإن أقبح ما تكون المرأة حين تبتذل وترخص، وحينما يشاع عنها في مجتمعها ما يחדش الشرف، هناك تشمئز منها النفوس، ولو كانت ملكة جمال العالم"^(١). ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ "إن ذلك التستر أولى أن يجعلهن معروفات بالعفة، فلا يتعرض لهن أحد، فإن المرأة إذا كانت ظاهرة التعفف والتستر، لم يتعرض لها أحد بالأذى، أما المتبرجة فإنها المطموع فيها من قبل الفساق"^(٢).

والحجاب هو: "ستر المرأة جميع بدنها وزينتها بما يمنع الأجنبي عنها من رؤية شيء من بدنها أو زينتها التي تتزين بها، ويكون استتارها باللباس وبالبيوت"^(٣).

أما ستر البدن: فيشمله جميعه ومنه الوجه والكفان.

أما ستر الزينة: فهو ستر ما تتزين به المرأة خارجاً عن أصل خلقتها.

ويكون ذلك بأمرين:

الأول: القرار في البيوت.

الثاني: وتغطية جميع بدنها وزينتها، بلباس ساتر، وهذا اللباس يجب فيه

شروط:

١- أن يكون شاملاً لجميع البدن ومنه الوجه والكفان.

٢- أن يكون واسعاً وليس ضيقاً يصف مفاصل المرأة.

٣- أن لا يكون زينة في نفسه ملفتاً للنظر، سواء في تفصيلته، أو في لونه"^(٤).

(١) من لطائف التفسير (١٥٨/٣).

(٢) من موضوعات سور القرآن (١٤٠).

(٣) حراسة الفضيلة (٣١) وما بعدها، مختصراً ويتصرف.

(٤) المصدر السابق.

المبحث الثاني

أدلة وجوب الحجاب من القرآن ودلالاتها

المطلب الأول

الدليل الأول

قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٦٠﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٦١﴾﴾

"هذا خطاب من الله تعالى لنساء النبي ﷺ، ونساء المؤمنين تبع لهن في ذلك، وإنما خص الله سبحانه نساء النبي رضي الله عنهن بالخطاب، لشرفهن، ومنزلتهن من رسول الله ﷺ، ولأنهن القدوة لنساء المؤمنين ولقربتهن من النبي ﷺ، والله يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. مع أنه لا يتوقع منهن الفاحشة، وحاشاهن" (١).

والقاعدة التفسيرية والأصولية تقول: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ما لم يرد دليل يدل على الخصوصية" (٢)، وهنا لا دليل على خصوصية هذه الآيات لنساء النبي ﷺ فقط.

فهذه الآية تضمنت عدة أوجه للدلالة على الحجاب:

الوجه الأول: النهي عن الخضوع بالقول: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، فإذا كان

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٨).

(٢) للاستزادة حول هذه القاعدة انظر القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام (ص ٣١٨).

النهي جاء عن الخضوع بالقول فمن باب أولى أن ينهى الله تعالى عن إبداء الزينة والجمال، لأن صوت المرأة يدل على جمالها.

الوجه الثاني: الأمر بالقرار في البيت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان) ^(١).

وزاد ابن حبان: (وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها) ^(٢).

فقرار المرأة في بيتها هو الأصل وخروجها منه رخصة تقدر بقدرها.

الوجه الثالث: النهي عن التبرج: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. والتبرج يكون بأمور:

١. خلع الحجاب، وإظهار المرأة شيئاً من بدنها أمام الرجال الأجانب.
٢. أن تبدي المرأة شيء من زيتنها المكتسبة كالملابس التي تلبسها تحت جلبابها.
٣. أن تتبختر المرأة في مشيتها وتتكسر، أمام الرجال.
٤. الخضوع بالقول، والكلام اللين.
٥. وضع الروائح الجميلة التي تثير الغرائز.
٦. المشي في الأماكن التي يزدحم فيها الناس وتلتصق أبدان الرجال بالنساء.
٧. لبس المرأة الملابس الضيقة التي تبدي مفاتنها، حتى ولو كان أمام النساء، وأشد منه أن تلبس المرأة الملابس التي يبدوا فيها شيء من جسدها كالظهر والبطن، والفخذين وجزءاً من الصدر.

(١) سنن الترمذي كتاب الرضاع باب (١٨) (١١٧٣) وقال هذا حديث حسن غريب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ١١٨٩).

(٢) صحيح ابن حبان (١٢/٤١٣).

٨. تشبه النساء بالرجال في اللباس، فيما هو من خصائصهم أو يتميزون به. وصور التبرج في هذا العصر متجددة ومتنوعة، فنسأل الله العفو والعافية. وهذا هو التبرج الذي أخبر عنه النبي ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)^(١).

(١) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨).

المطلب الثاني

الدليل الثاني

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

هذه هي آية الحجاب: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وافقت ربي في ثلاث، فقلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آيات الحجاب، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه من الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ زَوْجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾ [التحریم: ٥]، فنزلت كذلك ^(١).

"فيدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، بدنها، صورتها، فلا يجوز كشف ذلك إلا للحاجة" ^(٢)، ويقال فيه مثل ما قيل في الدليل الأول "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

يدل على ذلك تفسيرها بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أنه أمر زوجاته أن يحتجبن عن الرجال، وأن يغطين وجوههن وزيتتهن، وفعل الصحابة من المهاجرين والأنصار ذلك.

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ زَوْجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾. صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عمر (٢٣٩٩) مختصراً.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٣٧).

المطلب الثالث

الدليل الثالث

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
 "هذه آية الحجاب في حق سائر النساء، ففيها وجوب ستر الرأس والوجه عليهن"^(١). والدلالة من "هذه الآية على أن المراد بها ستر الوجه وتغطيته من وجوه:

الوجه الأول: معنى الجلباب هو: اللباس الواسع، الذي يغطي جميع البدن، وهو بمعنى العباءة، فتلبسه المرأة فوق ثيابها من أعلى رأسها مدنية ومرخية له على وجهها وسائر جسدها، وما علا جسدها من زينة مكتسبة ممتدا إلى ستر قدميها^(٢).

الوجه الثاني: أن شمول الجلباب لستر الوجه، هو أول معنى مراد، لأن الذي كان يبدو من بعض النساء في الجاهلية: هو الوجه، فأمر الله سبحانه نساء النبي والمؤمنين بستره وتغطيته.

الوجه الثالث: أن ستر الجلباب للوجه وجميع البدن، وما عليه من ثياب هو الذي فهمه نساء الصحابة، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسها"^(٣).

(١) هذا قول الشيخ بكر أبو زيد نقلاً عن السيوطي، ولم أعرف موضع نقله، انظر حراسة الفضيلة (ص ٥١).

(٢) لسان العرب (١/٢٧٢).

(٣) مصنف عبد الرزاق (٢/١٢٣) سنن أبي داود (٤١٠١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٤٥٦).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (رحم الله نساء المهاجرات الأول لما نزلت: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مرطهن، فاختمرن بها)^(١).

الوجه الرابع: أن هذا الأمر عام لكل النساء، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (٤٧٥٨) و(٤٤٨١).

(٢) حراسة الفضيلة (٥٢).

المطلب الرابع

الدليل الرابع

قال تعالى في سورة النور: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

في هذه الآية عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، يساعد عليه أن تكون المرأة محجبة ومغطية كل بدنها أما إذا كانت المرأة كاشفة فهذا أدعى إلى نظر الرجال إليها. "وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" (١).

ولهذا مثل جميل يقول:

لو كان عندنا قدر يوجد به لحم، ويأتي القط لكي يأكل اللحم، ونحن نبعد القط، فما هو الحل لكي نحفظ اللحم عن القط، هل هو أن نغطي القدر أو نبعد القط؟ لا شك أن تغطية القدر آمن وأقل جهداً من إبعاد القط، لأنه قد يغفل

(١) للاستزادة حول هذه القاعدة الأصولية انظر القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام (ص ١٣٠).

الذي يحرس القدر، فيأكل القط اللحم، وإذا كان القدر مغطى فلا خوف؛ حتى لو غفل حارس القدر. فكذا المرأة إذا كانت متحجبة، لا ينظر إليها الرجال، والرجل إذا رأى امرأة متحجبة، مستترة، ليس له حاجة في أن ينظر إليها بل ولا يطمع فيها.

فقطع الوسائل الموصلة إلى الخدور واجب، وهذا عند النظر إليه مفرداً كيف وقد جاء صريحاً في الآيات الأخرى، والسنة شاهد على ذلك كما في حديث علي ابن أبي طالب عليه السلام حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة)^(١).

الوجه الثاني: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

فالمرأة عليها أن لا تكشف زينتها إلا ما كان عن غير قصد، كأن يأتي الهواء ويرفع ما تستتر به، أو يجسم جسدها. أو ما يظهر عليها من السمنة أو النحافة، أو الطول أو القصر وغيرها من الأمور التي ليست في استطاعها. ولكن عليها أخذ الحيطة والحذر قدر الجهد والإمكان. كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وكذا قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

الوجه الثالث: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

"والخمر: جمع خمار، مأخوذ من الخمر: وهو الستر والتغطية، ومنه قيل للخمر خمرًا، لأنها تستر العقل وتغطيه، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها"^(٢). أما الجيب فهو فتحة العنق، فأمر الله النساء أن يغطين وجوههن وصدورهن فلا يظهر منها شيء.

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٨٨١).

(٢) فتح الباري (٨ / ٤٨٩).

الوجه الرابع: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾

وفي هذه الآية منع الله ﷻ دواعي الافتتان، حتى ولو كانت المرأة متحجبة، فقد يظهر من مشيتها أو كلامها، أو العطر الذي وضعته، قد يظهر منه فتنة. ولهذا منع الله دواعي الافتتان، فما بالك إذا كانت المرأة أصلاً فتنة، وأكثر وأشد ما يفتتن به الرجل وجه المرأة.

فهذه الآيات الأربع هي التي يستدل بها العلماء على وجوب الحجاب، ووجوب تغطية الوجه والكفين للمرأة، ويستنبطون منها تغطية الوجه بأوجه كثيرة جداً ليس هذا موضعها^(١)، وفيما ذكر كفاية.

(١) للاستزادة حول موضوع الحجاب، انظر: حجاب المرأة لإسماعيل الأنصاري، وحجاب المرأة للشيخ الألباني ونقده في الصارم المسلول على أهل التبرج والسفور لحمود التويجري، والحجاب للمودودي، وحراسة الفضيلة للشيخ بكر أبو زيد، وكتاب عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل المقدم، ونظرات في حجاب المرأة المسلمة لعبد العزيز بن خلف العبدالله ودليل المرأة المسلمة للغامدي ٣٠٨ وما بعدها، ومراجعة كتب التفسير وآيات الأحكام عند تفسير هذه الآيات.

المبحث الثالث الأدلة من السنة

إن الأدلة من السنة كثيرة جدا ولها وجوه كثيرة في تقرير هذا الأمر، سنكتفي بذكر ثلاثة منها:

الدليل الأول: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفنا)^(١).

فإنه في حجة الوداع مع النبي صلى الله عليه وسلم، وصريح في وجوب الحجاب الشرعي وشموليته لجسم المرأة وهي في حالة الإحرام الذي منه أن لا تغطي وجهها، فإذا جاز لها ترك الواجب الذي هو من شعائر الحج لأمر أوجب منه وهو الحجاب، دل على وجوبه وعدم الإذن فيه لأحد بعد ذلك حال الحل من الإحرام. وهذا الحديث واضح الدلالة في ذلك. ويدخل كل النساء في هذا التوجيه، كما ذكرنا ذلك في الآية.

الدليل الثاني: قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: (كنا نغطي وجوهنا من الرجال، وكنا نمتشط قبل ذلك في الإحرام)^(٢). وهذا كسابقه.

الدليل الثالث: أحاديث جواز النظر إلى المخطوبة، ومن هذه الأدلة، حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل)^{(٣)(٤)}.

(١) سنن أبي داود كتاب المناسك باب في المحرمة تغطي وجهها (١٨٣٣) وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف سنن أبي داود. مسند أحمد (٦/٣٠٠ ح ٢٤٠٦٧). سنن البيهقي (٥/٤٨ ح ٨٨٣٣). نيل الأوطار (٥/٧٠).

(٢) المستدرک علی الصحیحین (١/٦٢٤) وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. صحيح ابن خزيمة (٤/٢٠٣).

(٣) سنن أبي داود (٢٠٨٢) كتاب النكاح باب في الرجل ينظر للمرأة يريد تزويجها وحسنه الألباني. مسند أحمد (٣/٣٣٤ ح ١٤٦٢٦). المستدرک علی الصحیحین (٢/١٧٩ ح ٢٦٩٦) وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

(٤) للاستزادة حول موضوع رؤية المخطوبة انظر المغني (٩/٤٨٩). وكتاب آداب الزفاف للشيخ الألباني. وآداب الخطبة والزفاف وحقوق الزوجين للدكتور عبدالله ناصح علوان. وفقه السنة (٢/١٥٥). وكتب الفقه بشكل عام عند الحديث عن النظر للمخطوبة.

ويؤخذ من هذه السنة عدة أوجه في بيان وجوب الحجاب وتغطية الوجه:
الوجه الأول: نص الخبر على أن الأصل تستر النساء واحتجابهن عن الرجال.

الوجه الثاني: أن الأصل عدم الاستطاعة في رؤيتها والنظر إليها، فلذا رغب الشارع واستثنى في النظر للمخطوبة كما في الحديث: (فإنه أحرى أن يؤدم بينهما)^(١).

الوجه الثالث: الرخصة للخاطب برؤية المخطوبة دليل على وجوب العزيمة وهو الحجاب، ولو كن سافرات الوجوه، لما كانت للرخصة والترغيب فيها والتعليل لها من الشارع ﷺ مزية وفائدة^(٢).

والرجل إذا أراد أن يخطب امرأة إنما يطلب أن يرى وجهها، لأن الوجه يظهر جمال المرأة، ولا يطلب أن يرى ساقها أو ذراعها، أو شيء من صدرها، لأن هذه الأعضاء، بطبيعة المرأة جميلة وجذابة، ولكن الذي يكون عليه ميزان الجمال - عند عقلاء الأمم كلها - في المرأة هو الوجه، والباقي تبع له.

(١) صحيح سنن الترمذي كتاب النكاح باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة (٨٦٨).

(٢) حراسة الفضيلة (٨٠) بتصرف.

المبحث الرابع فوائد الحجاب

قبل أن نشير لحكمة هذا الأمر الرباني للنساء بالحجاب نلفت الانتباه إلى أنه: يجب على كل مسلم ومسلمة أن يستسلموا لأمر الله حتى ولو لم تكن حكمته ظاهرة، فالله سبحانه لا يأمر بأمر إلا وله حكمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا﴾. ونحن بجهلنا وقلة إدراكنا للأمور لا نستطيع أن نعرف الحكيم كلها إلا ما أرشدنا الله لمعرفة، إما صراحة وإما بطريق التجربة، وقوة الإدراك والاستنباط من أولي الفهم وورثة الأنبياء.

وبعد أن قررنا هذا الأمر نعرض بعض الفوائد من الأمر بالحجاب التي ذكرها العلماء^(١):

١. حفظ العرض من الزنا والفواحش.
٢. حفظ الأعراض من التحدث عنها بسوء.
٣. طهارة القلوب، قال تعالى: ﴿ذَلِكَمُطَهَّرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. "لأن الحجاب أبعد هن عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه، فلهذا من الأمور الشرعية التي بين الله كثيرا من تفصيلاتها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق"^(٢).

"وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له،

(١) انظر حراسة الفضيلة ص (٨٤) بتصرف.

(٢) تفسير السعدي (٦١٨).

فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته"^(١).

هذا هو حكم الله، وهذا هو أمر الله تعالى الواجب علينا التزامه والتقيده وعدم الابتعاد عنه، والقول بغيره، "فلا يقل أحد إلا ما قاله الله تعالى، لا يقل أحد إن الاختلاط وإزالة الحجب، والترخيص في الحديث، واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك. والله تعالى هنا يخاطب نساء النبي الطاهرات، أمهات المؤمنين، ويخاطب رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ممن لا تتناول إليهن وإليهن الأعناق!!"^(٢). فماذا نقول في هذا العصر الذي فسدت فيه الفطرة وفسدت فيه القلوب وفسدت أيضا الضمائر، وانتكست فيه الأخلاق، وقلبت فيه المعايير الصحيحة!!! والله المستعان.

١. علامة على العفة والطهارة والاستقامة: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ

فَلَا يُؤَدِّينَ﴾.

٢. قطع الأطماع والخواطر الشيطانية التي تطرأ على قلوب البشر،

وخصوصا الذين في قلوبهم مرض^(٣)، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ

فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

٣. سبب من أسباب استقرار الأسرة، لأن الرجل عندما ينظر إلى امرأة

متبرجة، وينظر إلى امرأته فإن الشيطان، يزين المرأة المتبرجة للرجل، مما

يجعله قد لا يطيق زوجته، ولا يرضى بها، مما يسبب المشكلات فيما بينهما.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢٢٨).

(٢) في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٧٨).

(٣) قد أشرنا إلى هذه النقطة عند قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

ولذلك نبه رسول الله على أن الرجل إذا وقع نظره على غير زوجته ماذا يعمل فقال ﷺ: (إن المرأة إذا أقبلت، أقبلت في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها)^(١).

٤. الحجاب يُبين ويظهر غيرة الرجل على زوجته وأهل بيته.

٥. رفقاً بشباب الأمة، فإنه مع غلاء المهور والبطالة، وقلّة ذات اليد، ولا يجد الشباب الزواج؛ فإن خروج المرأة متبرجة، يزيد عليه العبء والتعب النفسي، وقد يعرض الشباب إلى البحث عن هؤلاء المتبرجات، ويعاكسوهن، ويضايقوهن، هذا إن لم يحصل بينهم علاقات محرمة.

وبهذا الاختصار الشديد^(٢) نكون قد أوضحنا ما دلت عليه الآية الكريمة

وأخواتها.

نسأل الله سبحانه أن يلهمنا العلم والعمل، وأن يتجاوز عن تقصيرنا وجهلنا، وأن يحفظ نساء المؤمنين وأن يحفظهن من التبرج والسفور، وأن يبعد عنهن من يريد أن يعبث بعفافهن وطهارتهن.

(١) سنن الترمذي كتاب الرضاع، باب في الرجل يرى المرأة تعجبه (١١٥٨)، وصححه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٣٥).

(٢) يمكن للاستزادة الرجوع لكتاب عودة الحجاب للشيخ محمد ابن إسماعيل المقدم، ففيه من الفوائد الشيء الكثير، ولأنه كتاب معاصر، بين فيه التبرج المعاصر وكيف وصل التبرج إلى هذا الحد، والمراحل وغيرها من النقاط التي تجمع هذا الموضوع. وأيضاً يراجع كتاب حراسة الفضيلة، حيث فيه من التأسيس الشرعي لمسألة الحجاب، بتوسع أكثر.

الفصل الثاني

أسباب الهلاك وطرق النجاة

المبحث الأول

أسباب الهلاك

المطلب الأول

النفاق والإرجاف ومرض القلوب

قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُحْذُوا وَقَتَلُوا تُقْتِيلًا ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ﴾.

بعد ما زجر الله ﷻ الذين يؤذون الله أو يؤذون رسوله ﷺ أو يؤذون المؤمنين والمؤمنات، وتوعدهم بغضب الله عليهم في الدنيا والآخرة، وأمر المؤمنين أن يلزموا أهلهم الحجاب لكي لا تحصل أذية لهم من قبل ضعاف القلوب، يهددهم الله ﷻ بوعيد في الدنيا قبل الآخرة إن هم لم يتعظوا بوعيد الآخرة. فالله ﷻ يهدد المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين يجبون الإرجاف بين المؤمنين، لأن هذه الأعمال وهذه الأذية لا تأتي إلا من قبل هؤلاء، فلا يتوقع أن تأتي أذية من قبل من رسخ الإيمان في قلبه ومن ارتبط ارتباطاً وثيقاً بدين الله وتغلغل في كل أموره.

"فإن الله تعالى يهدد ﴿الْمُنْفِقُونَ﴾ وهم: الذين يسترون الكفر ويظهرون الإيمان، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: أهل الزنا والفجور من أهل النفاق^(١)

(١) قوله: من أهل النفاق. لأنه قد يكون الذي يطلب النساء والزنا ليس منافقاً، ولكن في قلبه تعلق بالنساء والفجور. أما المنافق فيكون في قلبه مرض وهي صفة يتصف بها ملزمة له، ويشهد لذلك قصة ماعز والغامدية ﷺ، فقد وقعا في الزنا وليسا بمنافقين ولقد شهد لهما رسول الله بالتوبة النصوح.

الذين يطلبون النساء فيبتغون الزنا، فالذين في قلوبهم مرض من أمر النساء صنف من أصناف المنافقين^(١).

ولذا قال في الآية السابقة: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ والمرض قد يكون مادياً شهوانياً فقط، وقد يكون معه مرض معنوي وهو النفاق، وعدم الإيمان أو ضعفه بالله أو باليوم الآخر والغيب، وقد ينفرد المعنوي، فالآية فيها ذكر الأنواع الثلاثة ضمناً مع أسلوب تقييح ذلك كله بإطلاق المرض عليه، ولا شك أن أحداً لا يرغب في المرض البتة مهما كان فاسداً في سلوكه أو طبعه أو يجمع بينهما والعياذ بالله.

أما ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ فهم الذين ينشرون الشائعات الكاذبة والتهم الباطلة^(٢). وهم أيضاً صنف من أصناف المنافقين^(٣).

فالمنافقون في قلوبهم مرض ومرجفون، ولكن أفرد الله تعالى كل صفة لوحدها لكي يحذر المسلمين والمسلمات من صفات المنافقين والمنافقات الهالكين والهالكات.

ولكن لا يلزم من أن يكون الذي في قلبه مرض النساء وحب الزنا منافقاً لأنه قد يحصل للإنسان ضعف في وقت من الأوقات، وأيضاً لا يلزم أن يكون كل مرجف منافق فقد يشيع الشائعة رجل من المؤمنين ولكن حصل في قلبه ضعف في

(١) قد أشرنا إلى معنى مرض القلوب عند الحديث عن قول الله تعالى ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٨٣/١٩) مختصراً.

(٣) ولكن قد يكون الإنسان مرجف وليس منافق، ولكن الإرجاف صفة من صفات المنافقين. ويشهد لذلك موقف حسان بن ثابت وحمئة بنت جحش رضي الله عنهما في حادثة الإفك فقد كانا من المروجين للشائعة ولكنهما مؤمنين، ولذلك أقام رسول الله ﷺ الحد عليهما ولم يقمه على رأس الفتنة وهو عبد الله بن أبي ابن سلول لأنه كان منافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر فلن ينفعه إقامة الحد عليه من النجاة من عذاب الله لأنه غير مؤمن بالله تعالى.

ذلك الوقت، ولكن المهم هو أن نعرف صفات المنافقين الهالكين ونبتعد عنها لكي لا نكون منهم ولكي لا تكون هذه هي صفاتنا بعد أن ميزنا الله تعالى بصفات عالية شريفة في الدنيا والآخرة^(١).

ولأن هذه الصفات يجزُّ بعضها بعضاً فقد يبدأ الإنسان بشهوة وتنتهي به إلى الكفر والعياذ بالله تعالى، ولذا حذر النبي ﷺ من ذلك حيث قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن...)^(٢).

(١) أردت الإشارة إلى الصفات التي يجب على كل مؤمن ومؤمنة الاتصاف بها التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة.

(٢) صحيح البخاري كتاب الحدود باب إثم الزنا (٦٧١٠)، صحيح مسلم كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية، على إرادة نفي كماله (٥٧).

المطلب الثاني

تهديد الله لأصحاب تلك الصفات

أولاً: تسليط الرسول عليهم، قال تعالى: ﴿لُنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾.

ثانياً: النفي من المدينة: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجَاوَزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: "لنسلطنك عليهم، ثم لننفيهم عن مدينتك فلا يسكنون معك فيها إلا قليلاً، في المدة والأجل حتى ننفيم عنها، فنخرجهم منها"^(١). فالذين يجنون الإرجاف والإيذاء للمؤمنين وللدعوة الإسلامية عقوبتهم أن يسלט الله عليهم نبيه وأتباعه فيقتلوهم وينفوهم ويبعدوهم عن المدينة.

"هنا يأتي تهديد المنافقين ومرضى القلوب، والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة في صفوف الأمة المسلمة، بأنهم إذا لم يرتعدوا عما يأتونه من هذا كله، ويتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، والأمة المسلمة كلها، أن يسלט الله عليهم نبيه، كما سلطه على اليهود من قبل، فيطهر منهم جو المدينة، ويطاردهم في الأرض، ويبيح دمهم، فحيثما وجدوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبي ﷺ، وغير اليهود من المفسدين في الأرض على مر التاريخ"^(٢). "فهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه"^(٣).

ويشهد له أن الزاني والزانية البكر يحكم عليهم مع الجلد التغريب عام، أي الإبعاد عن البلد وعن الناس اثني عشر شهراً، لقول النبي ﷺ: (وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام)^(٤) وذلك لأنهم عنصر فاسد في المجتمع، فيجب أن يخرج من

(١) انظر تفسير الطبري (١٨٦/١٩) مختصراً.

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٨٠)، بتصرف.

(٣) تفسير السعدي (٦١٩).

(٤) صحيح البخاري كتاب الوكالة، باب الوكالة في الحدود (٢٣١٤). صحيح مسلم متاب الحدود، باب

من اعترف على نفسه (١٦٩٧).

البلد لكي يتأدب هو مع نفيه، ولكي لا يشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ويقوم مكان الإبعاد عن البلد السجن بعيداً عن الناس.

ومما يشهد لذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، ولا شك أن المنافقين والمرجفين بين المؤمنين من الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجَاوَزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فائدة أخرى مهمة جداً وهي خاصة لأهل المدينة وهي: "أن على من أكرمه الله بهذا الجوار أن يتأدب مع رسول الله ويتحفظ، تقديراً لهذه النعمة التي أكرمه الله تعالى بها"^(١). وإذا لم يلتزم بذلك فإن المدينة تنفيه كما قال رسول الله ﷺ: (المدينة تنفي خبيثها، ويُصنع طيبها)^(٢).

ثالثاً: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﴿مَلْعُونِينَ﴾ حسبك بها من عقوبة، وحسبك به من إبعاد وطرده والعياذ بالله تعالى، واللعن أحد الدلائل على أن العمل كبيرة من الكبائر وجرم شنيع في حق نفسه ومجتمعه، كما أنه جرم في حق العبد لربه وكفرانه لنعمه ومخالفته الشرعية، فهو عبد ذليل لكنه معاند متجبر سيء الخلق مع سيده، ولذا استحق اللعن والطرده والإبعاد بخلاف الجاهل والمقصر بلا عمد وعناد وتجبر فإنه مخطئ لكنه يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه.

(١) من موضوعات سور القرآن (١٤٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب أبواب فضائل المدينة باب المدينة تنفي خبيثها (١٨٨٣). صحيح مسلم كتاب الحج باب المدينة تنفي شرها (١٣٨٣).

رابعاً: أنهم ملعونين في كل زمان وفي كل مكان يكونون فيه ﴿أَيَّنَمَا تُقْفُوا﴾: وهذا دليل على خستهم وفحشهم ومرضهم الذي لو بقوا به في المجتمع الإسلامي لنشروا تلك العدوى وحصل ما أرادوا. قال الله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقْفُوا أَخِذُوا وَقْتُوا تَقْتِيلاً﴾ "مبعدين حيث وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يجسوا أو يعاقبوا"^(١).

خامساً: إباحة وهدر دمائهم: قال الله تعالى: ﴿أَيَّنَمَا تُقْفُوا أَخِذُوا وَقْتُوا تَقْتِيلاً﴾.

وهذا ليس حكماً أنزله الله لرسول الله ومن يعاديه فقط، ولكنه سنة الله في الأرض في كل من سبقه من الأقسام، ولذا قال تعالى بعدها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ وهذه السنة باقية إلى قيام الساعة ومتحققة إذا توفرت أسباب تحقيقها من الإرجاف والعداء لأهل الإسلام.

المبحث الثاني

علاج أسباب الهلاك

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝١٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝١٢٢ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ فِيهَا وَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَا يَصِيرُونَ ۝١٢٣ يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝١٢٤ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۝١٢٥ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَظِيمِ لَعَنَّا كَبِيرًا ۝١٢٦ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝١٢٧ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝١٢٨ يُصْلِحْ لَكُمْ ءَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۝١٢٩ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝١٣٠

لقد جعل الله تعالى كتابه مثاني يذكر فيه الشيء وما يقابله لإيضاح الصورة واكتمالها، وليتدبر عباده الخير والشر، فيجمعوا طرق الخير، ويتجنبوا طرق الهلاك، وفي هذا الإطار نجد المقطع الذي معنا من سورة الأحزاب، فبعد ذكر الله المهلكات ذكر علاجها، والذي يمكن أن نجمله في الوعظ والتذكير بالجزاء والحساب لأن النفوس قد جبلت على حب الدنيا وطول الأمد.

وذكر الله - مخوفاً عباده - مسلك الأمم قبلنا مع أنبيائهم، ثم دعوة من الله لعباده بأن يأخذوا الصفات التي تثبتهم على الصراط المستقيم.

وإليك بيان هذه المحاور في المطالب التالية:

المطلب الأول

التذكير والإنذار بالساعة وحال الناس فيها

يبدأ هذا المقطع من السورة بذكر سؤال الناس عن الساعة واستعجابهم في وقوعها، وشكهم فيها، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ "فهؤلاء المؤذون لرسول الله ﷺ لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعادا وتكديبا، موهمين أنها لا تكون!! ثم يقول الله تعالى لنبيه أن يرد عليهم ويقول: إِنَّ عِلْمَ هَذِهِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وليس في إخفاء الله وقتها عني ما يبطل نبوتي، وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله ﷻ" (١).

ويوم القيامة غيب لا يعلمه إلا الله، ولم يُعَلِّمَهُ أَحَدًا لَا مَلَكًا مُقْرَبًا وَلَا نَبِيًّا مَرْسَلًا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِلَوْقِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولكن الرسول ﷺ أخبرنا أنها قريب وقوعها كما قال عليه الصلاة والسلام (بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى) (٢).

ثم يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: قريبة في زمانها.

"ومجرد معرفة مجيء الساعة، قريبا أم بعيدا، ليس تحتها نتيجة ولا فائدة، وإنما

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢٤٨).

(٢) صحيح مسلم كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

النتيجة والخسارة والربح والشقاوة والسعادة، هل يستحق العبد العذاب أم يستحق الثواب^(١)، فالعبرة بالنتيجة لا بمجرد الوقت.

والحكمة من إخفاء وقت الساعة لتحفيز الإنسان للعمل الصالح والتوبة النصوح الدائمة والمراقبة لله تعالى في كل عمل، وكذلك البعد عن الاتكالية والتكاسل والتسويف، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا ﴿٤٤﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ ﴿٤٦﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ خَشِنَهَا ﴿٤٧﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴿٤٨﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]. والنبي ﷺ حينما جاءه رجل يسأله: متى الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: (ماذا أعددت لها؟)^(٢).

وهذا التذكير والإنذار له أهمية في إصلاح النفس البشرية وتربيتها على الرقابة الذاتية، والتطلع للمستقبل مع التعلق بالله ﷻ، وفيه إقامة الحجة على الخلق أن قد جاءهم نذير، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨-٩].

(١) تفسير السعدي (٦١٩).

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩).

المطلب الثاني

حال الناس عند قيام الساعة

ذكر الله تعالى أهل العذاب وأهل الثواب في ذلك اليوم، فبدأ بعرض حال أهل العذاب في ذلك اليوم لأنهم هم الذين يسألون ويستعجلون ذلك اليوم: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: أن الذين صار الكفر بالله وبرسوله دأبهم وطريقهم، عاقبهم الله تعالى في الدنيا والآخرة بالإبعاد عن رحمته وعفوه، وليس هذا فقط بل أعد لهم ناراً حامية مسعرة.

فيعرض الله لنا مشهداً من مشاهد القيامة، ويصور للكافرين المستعجلين بالساعة، والشاكين فيها، ذلك المشهد. ليس هذا فقط بل يخبرهم تعالى بحالهم في هذا السعير وأنهم خالدين فيه لا يجدون معيناً ولا نصيراً. قال تعالى: ﴿خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كٰفُرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ "أي: ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه"^(١) بل أنهم قد تحلى عنهم النصير، وتبرأ منهم، وتلاوموا على ذلك، وأحاط بهم عذاب السعير، فلا موت ولا تخفيف ولا معين.

وهم في هذا العذاب المقيم قد ذهب وتحلى عنهم كل من أشركوا به من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨]. بل قد تحوّل إلى عذاب لهم، ثم يخبر الله عنهم وهم في هذا العذاب المقيم بقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ "وهذا التقلب تغيير ألوانهم بلفح

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٣).

النار، فتسود مرة وتحضر أخرى وتبدل جلودهم بجلود أخرى" (١) كما قال تعالى:
﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وفي هذا العذاب وهذا الوضع يزيد عذابهم أنهم يتحسرون: ﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا
أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ "يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله
وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٧﴾ يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ
أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:
٢٧-٢٩] (٢)، فإن الذي حذرهم الله منه وتوعدهم عليه، وقعوا فيه بل واستهزؤوا
وسخروا ممن لم يفعل مثلهم، فهم اليوم يندمون ويعاتبون أنفسهم منه، في يوم
يقول الله تعالى عنه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ
يُستَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧] فلا ينفع النادمون ندمهم، بل هو من العذاب الذي
يتقلبون فيه.

لكنهم لما علموا أنهم مقيمون في هذا العذاب، أرادوا أن يرجعوا ما وقعوا فيه
من الظلال إلى السادة الكبراء الذين كانوا يتبعونهم، يسألون الله أن يجازهم
ضعفين من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلًا رَبَّنَا
ءَانِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِيمُ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ ﴿٣١﴾.
ولكن هؤلاء السادة والكبراء ينكرون، أنهم هم السبب في ذلك الظلال، بل

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٨٤).

ويقبلون الحجة عليهم وأنهم هم الذين اتبعوهم من دون الله، وهذا مثل قول كبيرهم الشيطان يوم القيامة لأهل النار، وهو قول كل الأنداد والشركاء من دون الله، قال الله تعالى مخبراً عن قول الشيطان يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فالكل سيتبرأ من الكل، ويلقي اللوم على غيره، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولكن الله سبحانه أعلم بحال كل هؤلاء، وسيجازي كلاً على عمله قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَانَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

المطلب الثالث

تحذير الله عباده من مسلك الهالكين قبلهم

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۖ﴾.

ينبه الله تعالى عباده المؤمنين بعد ما وصف لهم حال المنافقين، والمرجفين وعاقبة أمرهم، الذين آذوا الله ورسوله والمؤمنين، ينبههم أن لا يكونوا مثل هؤلاء، فهؤلاء المرجفون المؤذون الموجودون في كل مكان وزمان، فنهاهم عن أن يتشبهوا ببني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام فبرأه الله مما قالوا من الأذية فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن موسى عليه السلام، كان رجلاً حياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء، استحيا منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، وإما برص^(١) وإما أدرة^(٢)، وإما آفة^(٣)).

وإن الله ﷻ أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل، فأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ﷻ، وأبرأه مما يقولون. وقام الحجر^(٤)، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله

(١) مرض يصيب الجلد، وهو عبارة عن بياض يصيب الجلد لعله (المعجم الوسيط ٤٩).

(٢) انتفاخ في إحدى الخصيتين، انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٢٦)، (المعجم الوسيط ١٠).

(٣) الآفة هي العاهة، أو عَرَضُ مَفْسُدٍ لِمَا أَصَابَهُ (القاموس المحيط ١٠٢٦).

(٤) أي توقف عن الجري، يقال قامت به دابته: أي وقفت، ويقال: فلان قام على الشيء أي: ثبت عليه

وتمسك به. (النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/١٢٥).

إِنَّ الْحَجْرَ لَنْدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا. قَالَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(١).

﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ "أي: الحال التي كان عليها رسول الله موسى عليه السلام أنه ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، ومن خواص المرسلين، ومن عباد الله المخلصين"^(٢).

فمن كان وجيهاً لا يجوز عيبه، بل إن عيب الوجيه عيبٌ فيمن اصطفاه واختاره لتلك الوجاهة والمنزلة ولذا فإن المؤمن ليس طاعناً في سائر خلق الله فكيف بصالحهم وعلماهم وحكامهم وسادتهم، والأمر أشد وأنكى لما يتعلق برسول الله وصفوته من خلقه عليهم الصلاة والسلام، وإمامهم خليل الله ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم يسلم من المنافقين والمرجفين في كل زمان ومكان، نعوذ بالله من الخذلان، وحمأة الطغيان وإتباع الهوى والشيطان.

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب: (٢٨) (٣٤٠٤). صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب:

فضائل موسى عليه السلام (ح ٢٣٧١)، انظر شرح الحديث في فتح الباري (٦/٥٠٣).

(٢) تفسير السعدي (٦١٩).

المطلب الرابع

ذكر أسباب النجاة وصفات الناجين

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

"يقول الله تعالى أمرأ عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا قولاً سديداً أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها"^(١).

"فإن الله تعالى يرتب على تقواه والقول السديد إصلاح العمل أي قبوله، لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. وبالتقوى أيضا يوفق الإنسان للعمل الصالح ويحفظ تلك الأعمال عما يفسدها من الرياء، وعدم المتابعة، ويصلح تلك الأعمال أيضا بمضاعفة أجرها"^(٢) فهذا الأمر الأول المترتب على تقوى الله والقول السديد.

أما الأمر الثاني: فإنه يترتب على تقوى الله والقول السديد غفران الذنوب قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ثم يأتي الأمر الثالث: الذي هو أمنية كل مؤمن وكل ملتزم بهذا الدين مطيع لله ورسوله ويرجو الله والدار الآخرة: ألا وهو الفوز العظيم ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

(١) تفسير ابن كثير (٤٨٧).

(٢) تفسير السعدي (٦٢٠).

وَرَسُولُهُ، فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١﴾.

ولا شك أن طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ هي التي تجلب تقوى الله والقول السديد، لأن الأمر بالتقوى والقول السديد أمر من الله ورسوله، وإذا حصل هذا فقد فاز المؤمن بالفوز العظيم، وهو الجنة، فنسأل الله تعالى فضله وتوفيقه وهداه. والفوز العظيم يكون في الدنيا أيضا قبل الآخرة، وذلك بالطمأنينة والأمن النفسي والسعادة والقناعة وعدم الحيرة والاضطراب.

"فالتقوى بذاتها فوز عظيم، فهي استقامة على نهج الله، والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة، والاهتداء إلى الطريق الواضح المستقيم سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه.

وليس الذي يسير في الطريق المهد المنير، وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون، كالذي يسير في الطريق المقلق المظلم؛ وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه! فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها، وهي الفوز العظيم، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم. أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة، فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل، والله يرزق من يشاء بغير حساب" (١).

وعلى هذا فالذين ينجون من عذاب الله هم الذين يتصفون بثلاث صفات:

- ١- تقوى الله ﷻ.
- ٢- القول السديد.
- ٣- طاعة الله ورسوله ﷺ.

وفقد هذه الصفات هو الذي أورث المرجفين والمنافقين ومرضى القلوب
فقد حقيقة الإيثار والإحسان وحرمتهم لذة الدنيا قبل لذة الآخرة، نسأل الله
العفو والعافية.

وتأمل هذا العلاج الموجز والمختصر في مقابل ما فقدته أولئك ظناً منهم أنهم
أهدى عقولاً وأحسن تصرفاً من عباد الله المتقين فضلوا وأضلوا والعياذ بالله.

وتأمل كيف ختم الله ذلك الحديث عن الفئتين بصفات موجزة سهلة
يستطيعها العالم والمتعلم، الصغير والكبير، المرأة والرجل، العامي والمتعلم، العربي
والأعجمي على حد سواء، لكن بشرط واحد وهو الاستجابة والتسليم
والتصديق لأمر الله ولأمر رسوله ﷺ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إن الدين
يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة
والروحة وشيء من الدلجة)^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيثار، باب الدين يسر (ح ٣٩).

المبحث الثالث

مدار النجاة والهلاك على الأمانة والمسؤولية

المطلب الأول

أهمية الأمانة من خلال الآيات

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٣﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

لما بين الله تعالى في هذه السورة من الأوامر والتوجيهات للمؤمنين وعلمهم هذه الأمانة العظيمة وهي أمانة طاعة الله تعالى في هذه الأوامر واجتناب النواهي، والثواب والعقاب على أداء هذه الأمانة، ذكرهم الله أن هذه الأمانة لم تستطع السماوات والأرض أن تتحملها وأنتم قمتم بحملها، فعليكم الوفاء بتلك الأمانة وأدائها على وجهها الحق.

والأمانة: "كل شيء يؤتمن الإنسان عليه، من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، فالشرع كله أمانة"^(١).

"يعظم الله تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، والتي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وهي أنك إذا قمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب وإن لم تقم بها ولم تؤدها فعليك العقاب، ولكن هذه الأمانة لم تستطع السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، قال تعالى:

﴿فَأَيُّبِنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقَنَّ مِنْهَا﴾ أي: خوفاً أن لا يقمن بها حملن، لا عصياناً لربهم ولا زهداً في ثوابها.

وعرضها الله على الإنسان بذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، فانقسم الناس بحسب حملهم هذه الأمانة وقيامهم بها إلى ثلاث أقسام: منافقون: قاموا بها ظاهراً لا باطناً. ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون: قاموا بها ظاهراً وباطناً^(١).

ولكن لماذا هذه الأمانة:

قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

"فباختصاص الإنسان بحمل الأمانة، وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه، ويهتدي بنفسه، ويعمل بنفسه، ويصل بنفسه، هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره، وليكون جزاؤه من عمله، وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات، فيتوب عليهم مما يقعون فيه بما رُكِبَ فيهم من نقص وضعف، وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع، وما يشدهم من جواذب وأثقال، فذلك فضل الله وعونه، وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾"^(٢).

ولما ختمت السورة بالتذكير بالأمانة كان لا بد من الإشارة إلى أدلة وجوبها

ونماذج منها لتتم الصورة في موضوع الأمانة.

(١) تفسير السعدي (٦٢٠).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٨٥).

المطلب الثاني

الأدلة الدالة على أهمية الأمانة والحائنة عليها

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال الله تعالى مادحاً عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ

رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال ﷺ: (اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا

حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدوا إذا أؤتمتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا

أبصاركم، وكفوا أيديكم)^(١).

وقال ﷺ: (ترسل الأمانة والرحم تقومان على جنبتي الصراط يميناً

وشمالاً)^(٢).

قال ابن حجر: "وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً

وشمالاً أي يقفان في ناحيتي الصراط والمعنى أن الأمانة والرحم لعظم شأنهما

وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل

والقاطع فيحاجان عن المحق ويشهدان على المبطل"^(٣).

وقال ﷺ: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن

خان)^(٤).

(١) صحيح ابن حبان (١/٥٠٦ ح ٢٧١). مسند أحمد (٥/٣٢٣ ح ٢٢٨٠٩). المستدرک علی الصحیحین

(٤/٣٩٩ ح ٨٠٦٦) وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإیمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٥).

(٣) فتح الباري (١١/٤٥٣).

(٤) صحيح البخاري كتاب الإیمان باب علامات المنافق (٣٣). صحيح مسلم كتاب الإیمان باب خصال

المنافق (٥٩).

وقال ﷺ: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)^(١).
 ومن شدة أمر الأمانة أيضاً قال عليه الصلاة والسلام: (إذا ضيعت الأمانة
 فانتظر الساعة) فقال رجل: وما ضياعها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (إذا وسد
 الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)^(٢).

(١) مسند أحمد (٣/١٣٥ ح ١٢٤٠٦) حديث حسن وإسناده رجاله ثقات رجال الشيخين انظر (الموسوعة
 الحديثية- مسند الإمام أحمد ١٩/٣٧٦). صحيح ابن حبان (١/٤٢٢ ح ١٩٤).
 (٢) صحيح البخاري كتاب العلم باب من سئل علماً وهو مشغول في حديثه فأتى الحديث ثم أجاب السائل
 (١/٣٣ ح ٥٩).

المطلب الثالث

نماذج من الأمانات الواجبة

١ - الأمانة في الأموال:

قال رسول الله ﷺ: (المؤمن من ائتمنه الناس على دمائهم وأموالهم)^(١).

وكان من صفات النبي ﷺ الصدق والأمانة، ثم لما بعث ظل الكفار يضعون عنده أماناتهم، حتى إنه ترك علي بن أبي طالب في مكة عندما أراد الهجرة إلى المدينة لإرجاع الأمانات إلى أصحابها^(٢).

٢ - الأمانة في حفظ الأسرار:

قال رسول الله ﷺ: (إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة)^(٣).

٣ - الأمانة في البيع والشراء والمهن:

قال تعالى على لسان بنت شعيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَىٰ اسْتَجْرَهُ إِنِّ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا، محقت بركة بيعهما)^(٤).

(١) صحيح ابن حبان (٢/ ٢٦٤ ح ٥١٠). مسند أحمد (٣/ ١٥٤ ح ١٢٥٨٣) إسناده صحيح على شرط مسلم انظر (الموسوعة الحديثية - مسند أحمد ٢٠/ ٢٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام في حادثة الهجرة (٢/ ٤٨٢).

(٣) سنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء أن المجالس بالأمانات (١٩٥٩)، وقال الترمذي حديث حسن. سنن أبو داود كتاب الأدب باب في نقل الحديث (٤٨٦٨). مسند أحمد (٣/ ٣٢٤ ح ١٤٥١٤).

وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٨٩).

(٤) صحيح البخاري كتاب البيوع باب إذا بين البيعان ولم يكتبها ونصحا (٢٠٧٩). صحيح مسلم كتاب البيوع باب الصدق في البيع والبيان (١٥٣٢).

٤ - أمانة التعامل مع المرأة:

من أعظم الأمثلة على ذلك قصة موسى عليه السلام مع بنات شعيب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحَدُنَّهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وذلك لما وجدت منه من الأمانة في التعامل معها هي وأختها.

وقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز عندما راودته عن نفسها وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٥ - أمانة الأبناء مع الآباء:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] فالله سبحانه وتعالى استأمن الأبناء على آبائهم، وعلى برهم ورعايتهم.

٦ - أمانة الآباء مع الأبناء:

وهي أمانة التربية، والتنشئة الصالحة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. وقال تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

٧ - أعظم الأمانات الحفاظ على الدين وإيصاله للناس:

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

٨- كل ما أمرك الله به فهو أمانة:

فكل أمر من أمور الشرع من أوامر ونواهي، فهي أمانة سيحاسب الإنسان هل قام بها على وجهها أم قصر في أدائها، وسيجازى على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: ٦٥-٦٧].

٩- كل ما أعطاك الله فهو أمانة:

وهذا خلاصة الأمانات، فأنت مؤتمن على كل ما أعطاك الله من النعم، مؤتمن على نعمة البصر، والسمع، والشم، والعقل، والجوارح كلها نعم أنت مؤتمن عليها، والصحة من الأمراض، والعلم والزوجة، والأولاد،... والنعمة العظيمة وهي الإسلام، كل هذه النعم وغيرها أنت مؤتمن عليها، وسيحاسبك الله عليها، فيجب على الإنسان ألا يستخدمها إلا فيما يحبه الله ويرضاه، ولا يستعملها فيما يبغضه الله لكي لا يكون غاش لرعيته، ويستخدمها فيما وضعت له. قال ﷺ: (لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه)^(١).

وختم الله سبحانه السورة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

نعم؛ الله - سبحانه - يعلم ضعف الإنسان، وجهله، فلذلك هو يغفر ما يكون من تقصير ويعفو عن ذلك، بشرط أن يكون العبد مؤمناً بالله حريصاً على أداء تلك الأمانة على الوجه الحق الكامل الذي أمره الله به، لكي ينال المغفرة، والرحمة من الله تعالى.

فالله نسأل أن نكون من الذين حملوا الأمانة على وجهها، وأن يعيننا على أدائها، وأن يغفر لنا تقصيرنا، وأن يرحمنا في الدنيا الآخرة ويعفو عن هذا التقصير. والله أعلم.

(١) صحيح سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب شأن الحساب والقصاص (١٩٧٠).

خاتمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:
من خلال ما تم عرضه في ثنايا البحث يمكننا القول بالوصول إلى المفاهيم الآتية:

أولاً: شهدنا في مقدمة وأثناء السورة آيات بناء الأسرة المسلمة، ويمكننا من خلالها تلخيص النتائج التالية:

- على كل من يريد أن يوجّه الناس ويرشدهم إلى دين الله تعالى، عليه أن يبدأ بإصلاح القلوب، وإزالة ما فيها من شوائب، وتعليق تلك القلوب بخالقها جل وعلا، لكي يسهل بعد ذلك عليها تقبل الأوامر والنواهي، والالتزام بذلك.
- من أهم الوصايا التي تربي القلوب هي الوصية بتقوى الله والتوكل عليه، وعدم تعلق القلب إلا بالله، والبعد عن كل من لا يأمر بهذا، فهذه الأمور هي جماع الوصايا كلها.

- عند تأسيس هذه التربية جيداً في القلوب، يسهل بعد ذلك تغيير العادات والتقاليد والأوهام التي تكون كالران على القلب، لأنها لا تستند إلى عقيدة ومنهج تتلقى منه تلك التوجيهات.

- عِظَمَ حِفْظِ الإسلام لنظام الأسرة، وإزالة كل ما يعمل على خلخلة نظامها، واعتبار ذلك من مقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها العليا.

- من حفظ الإسلام لنظام الأسرة: حفظ أفراد الأسرة، وجعلهم يتسبون إلى آبائهم وأمهاتهم ولا يتسبون لغيرهم، مما يقوي شوكة كُُلِّ الأُسَر، وأن يأخذ

الفرد في كل أسرة حقه النفسي والمادي.

• من حفظ الإسلام لنظام الأسرة: ما شرع الله تعالى من أحكام الطلاق، وما جعله له من ضوابط ومحاذير وأحكام، مما يجعل الأسرة بعد فك الرابطة الزوجية لا تُهدم قواعدهما، ولا يتشتت أفرادها، بل كل فرد يأخذ حقه ومستحقه. ثانياً: ومن خلال العرض لأحداث غزوة الأحزاب من كتاب الله، وبعد هذه المحاولة لاستنباط الفوائد والعظات من هذه الآيات، يمكننا أن نلخص ما ذكرناه في النقاط التالية:

١- دين الله ﷻ متين يحتاج لرجال لهم صفات خاصة، خضعوا لاختبارات عملية لتحقيق تلك الصفات، وذلك ليميز الله الخبيث من الطيب.
٢- دين الله تعالى يحتاج إلى توضيحات وصبر وثبات لكي يتحقق في واقع الناس.

٣- الأعداء ليس لهم مكان في الصف الإسلامي، وليس لهم أن يتشرفوا بوسام النصر مع المؤمنين، فإن الله يظهرهم في الشدائد ويفضحهم ويبين صفاتهم لِيَعْلَمَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، ثم لِيَمَيِّزَ الْمُسْلِمِينَ، ويفرحوا بنصر الله، ويتربوا على شدائد الأمور وعظائم المحن في دار الابتلاء.

٤- يجب على المسلمين أن لا يكونوا آذاناً صاغية لأعداء الدين من المشركين واليهود، وأعدائهم من المنافقين، فإنهم لا يزيدونهم إلا خبالاً، وشكاً، وإرجافاً، وغدرًا، وخيانة.

٥- النبي ﷺ هو القدوة العملية في كل شؤون الحياة، وهذا يتضح بجلاء في تلك الغزوة.

٦- أن أعظم أسباب الثبات في الملهمات والمهام الجسام هو حسن الاقتداء

والسير على أثر الحبيب ﷺ فهو القائد لمصلحة الدنيا والدين.

٧- الغدر ليس له فلاح، وليس له نجاح، بل الخزي والعار والدمار، مهما كانت المبررات والوعود الزائفة.

هذه هي أبرز الأمور التي يبثها لنا ربنا في ثنايا الآيات عند الحديث عن غزوة الأحزاب وليبين لنا مدى ما بذله الرسول ﷺ من الجهد والمشقة في إيصال هذا الدين لنا.

ثالثاً: ومن خلال الحديث عن الوصايا للمؤمنين والمؤمنات يمكننا أن نلخص تلك الوصايا في النقاط التالية:

١- يجب على كل مسلم ومسلمة:

- الابتعاد عن ارتكاب الفواحش وعن الطرق الموصلة إليها.
- الإكثار من العمل الصالح.
- الابتعاد عن كل ما يחדش حياء المرأة المسلمة كالخضوع بالقول والتبرج.
- القرار في البيت وهو الأصل في حياة المرأة المسلمة وبه تحفظ نفسها وحياتها.
- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ.
- الدعوة إلى الله والتعليم.

٢- أن هذه الوصايا وصى الله بها زوجات رسول الله ﷺ، وزوجات المؤمنين هن تبع في ذلك، ولأنهن أحوج للوصية.

٣- أن الله تعالى وصف المؤمنين والمؤمنات بصفات يجب أن يلتزموا بها قولاً وعملاً فيها تحيا قلوبهم، وتستقر حياتهم، فيضمنوا خير الدنيا والآخرة، وهذه

الصفات هي: (الإسلام، الإيمان، القنوت، الصدق، الخشوع، الصبر، الصدقة، الصيام، حفظ الفروج، ذكر الله، الالتزام بأمر الله على الفور).

٤- أن كتاب الله قد حوى على إيجاز ألفاظه سعادة الدنيا وراحتها، وسعادة الآخرة ونعيمها.

رابعاً: ويمكننا من خلال دراسة الآيات في علاقة النبي ﷺ بأمتة أن نصل إلى النتائج التالية:

(١) يؤكد الله ﷻ على أن ولاية الرسول ﷺ لكل المسلمين وقدمها على ولاية النسب والنفس، فقال تعالى: ﴿الْنَبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

(٢) ولاية المؤمنين بعضهم لبعض هي ولاية نصره وأخوة في الله تعالى وفي العقيدة.

(٣) ولاية المؤمنين لأقاربهم هي ولاية الدم والنسب وهي في التكافل في الديات وفي الميراث.

(٤) الله ﷻ أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم خصوصاً ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ وأمر الناس بالإقتداء بهم.

(٥) الرسول ﷺ يشرع الشرائع الباقية إلى يوم الدين، وفق رسالة مرسله من الله عز وجل، لا تبديل فيها ولا تغيير.

(٦) أبوته ﷺ للمؤمنين أبوة حنان ورحمة وعطف وتربية على أمر الله وشرعه.

(٧) وظائف الرسول ﷺ ترجع إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ و﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

٨) للنبي ﷺ الخصوصية التي ميزه الله بها عن سائر الناس وذلك في أمور لها حكمة من الله تعالى علمناها أو لم نعلمها.

٩) لزوجات النبي ﷺ الأجر الكبير والجزاء الوفير على ما حملهن الله تعالى من أعباء في مساعدة الرسول ﷺ والوقوف بجانبه.

نسأل الله تعالى أن يلهمنا العمل بالعلم، وأن يرزقنا الاقتداء برسولنا ﷺ وحسن السير على منهجه.

خامساً: ومن خلال عرض حقوق النبي ﷺ وأهل بيته الواردة في آيات سورة الأحزاب يتبين لنا الأمور التالية:

١- أمر الله تعالى الصحابة ألا يدخلوا بيوت النبي ﷺ بغير إذن، وهذا لجميع المسلمين وليس خاصاً برسول الله، وبيت رسول الله فقط، وإنما كان في حق رسول الله ﷺ أوجب، واختار الله تعالى بيت نبيه ﷺ ليكون المحطة الأولى لذلك الأدب الرفيع.

٢- اختار رسول الله ﷺ، له ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزاً عن حياة المتاع، فقد فتح الله له الأرض وملكه من الغنائم والمال الشيء الكثير، ومع هذا فقد كان يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة لا توقد نار للطبخ والشواء في بيت رسول الله ﷺ.

٣- حادثة التخير فيها من الفوائد والعبر الشيء الكثير فهي تصور لنا تصويراً حقيقياً حياة رسول الله ﷺ، والذين عاشوا معه واتصلوا به، فهي كانت حياة أناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم وصفاتهم الإنسانية، مع هذه المرتبة العليا التي وصلوا إليها من الصلة بالله، والرغبة فيما عند الله.

٤- حب رسول الله ﷺ لزوجاته وعدله بينهن في الحقوق، ورغبته أن يكنَّ

معه في الدنيا والآخرة ولا ينصرفن عن الله ورسوله ﷺ إلى حطام الدنيا ومتاعها الزائل.

٥- غير لائق ولا مستحسن من المؤمنين، بل إن أقبح شيء أن يؤذوا رسول الله أذية قولية أو فعلية، وزواج أزواجه من بعده من جملة ما يؤذيه، فما بالك بمن يتهم زوجات رسول الله ﷺ نعوذ بالله مما يقولون.

٦- تزوج رسول الله ﷺ كل واحدة من زوجاته لحكمة وغاية فيها خير للإسلام والمسلمين.

٧- شرع الله الصلاة على النبي ﷺ إظهاراً لتعظيم الملائكة والمؤمنين له، ولم يشرعها لحاجة النبي ﷺ إليها مع صلاة الله عليه.

٨- اللعن والإبعاد لمن يؤذي الله تعالى، أو يؤذي رسول الله ﷺ، والخير والفلاح لمن يلتزم الأدب مع الله ﷻ ومع رسول الله ﷺ، ويقر لهما التبجيل والاحترام.

٩- التهديد والوعيد الشديد لمن يؤذي أتباع النبي ﷺ من المؤمنين والمؤمنات.

١٠- خص الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد في باب الفرض والتحريم والتحليل مزية على الأمة وهبة له، ومرتبة خص بها.

سادساً: ويمكننا أن نلخص أسباب الهلاك والنجاة المذكورة في السورة في

النقاط التالية:

فأسباب الهلاك تتلخص وتدور في المسائل الآتية:

١- أذية الله ﷻ.

٢- أذية النبي ﷺ.

٣- أذية عباد الله المؤمنين.

٤- التبرج وترك الحجاب.

٥- النفاق، والإرجاف، ومرض القلوب.

أما أسباب النجاة والوقاية من تلك المهلكات المذكورة في السورة فهي جملة

في:

١- تقوى الله وطاعة الرسول ﷺ والحذر من سلوك مسالك الهالكين.

٢- تذكر الآخرة وحال الناس فيها.

٣- إجابة دعوة الله تعالى للنجاة.

٤- الحجاب الشرعي وصبغاً ومعناً وأدباً.

٥- حفظ الأمانات بكل أنواعها.

٦- كثرة الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله فإنه أرحم بعباده من أنفسهم.

فهذه هي أسباب الهلاك وأسباب الوقاية والنجاة للمجتمعات التي أشار الله

إليها في سورة الأحزاب، وقد اتضح الطريق وبانت القضية فالحذر الحذر

والنجاة النجاة، والوقاية الوقاية.

هذا باختصار أهم ما وصلت إليه في هذه الدراسة المختصرة.

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل وأن يستعملنا ولا

يستبدلنا، وأن يمن علينا بإتباع المنهج القويم والصراط المستقيم، ونسأل الله ﷻ

أن يقينا المهلكات وينجيننا بالمنجيات، وأن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه،

وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يرزقنا الإخلاص في القول

والعمل، وأن يلهمنا رشدنا، و يقينا شرور أعمالنا، وأن يحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وأن يعيدنا من النفاق وأهله، ومن أهل الغدر وغدرهم، وأن يجعلنا عند البلاء من الصابرين، وعند السراء من الفائزين الشاكرين.

وأسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا ويعفو عن خطانا.

كما أسأله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويبارك في الصواب منه، وأن ينفع به كل طالب للحق وللطريق المستقيم.

وأسأله سبحانه أن يجزي خيراً كل من ساعدني في هذا البحث أو أسدى إلي نصيحة، أو صحح لي من معلومة، أو ساعدني على استخراجها. وأن يجزي خيراً كل من ساهم في إخراج هذا البحث بتوجيه أو فكرة أو تصويب خطأ أو بيان، وأن لا يحرمهم الأجر جميعاً.

وفي الختام فإن هذا البحث محاولة بشر، أراد بها الخير له ولأمته، وعمل البشر لا يخلوا من أخطاء وزلل فما كان في هذا العمل من خير فمن توفيق الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأسأل الله تعالى أن يغفر لي، وأن يتجاوز عني اللهم آمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وزوجاته ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- آداب الخطبة والزفاف وحقوق الزوجين: عبدالله ناصح علوان - دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - ط٣ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- آداب الزفاف: الألباني.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- الاستقامة: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس - جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة - ط١ (١٤٠٣هـ) - تحقيق: د. محمد رشاد سالم.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين علي بن الأثير الجزري - دار الفكر.
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - دار الجيل - بيروت - ط١ (١٤١٢هـ) - تحقيق: علي محمد البجاوي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي - الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض - ط١ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- البحر المحيط: ابن حبان الأندلسي - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - ط١ (١٤٠٣).

- البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير الدمشقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٧هـ.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - ط ١ (١٩٨٤م).
- تفسير البيضاوي: دار الفكر - بيروت - المطبوع مع المصحف.
- تفسير الثعلبي: مخطوط مصور.
- تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - تحقيق سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- تفسير الرازي: التفسير الكبير: محمد الرازي فخر الدين - دار الفكر - بيروت - ط ٣ (١٤٠٥).
- تفسير سورة النور: د/ ناصر الحمد - دار العليان - الرياض - ط ١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- تهذيب الكمال: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي - تحقيق: د. بشار عواد معروف - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- جامع الأصول في أحاديث الرسول: مجد الدين ابن الأثير - تحقيق شعيب

- الأرنؤوط - مكتبة الحلواني، والملاح، ودار البيان - ط ١ (١٣٩هـ - ١٩٧١م).
- جامع البيان عن تفسير آي القرآن: محمد بن جرير الطبري - تحقيق: د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - القاهرة - ط ١ (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- جامع الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن رجب الحنبلي - دار المعرفة - بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي.
- حراسة الفضيلة: بكر بن عبد الله أبو زيد - دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض - ط ١ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- حقائق وأكاذيب في حياة المرأة المسلمة (المتبرجات): الزهراء فاطمة بنت عبد الله - مكتبة السنة القيم - المدينة المنورة - ط ٣ (١٤٠٩هـ).
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٤ (١٤٠٥هـ).
- خصائص الرسول في النكاح: رسالة ماجستير - عيسى بن عواض الغضيانى - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - قسم الفقه - الرياض - ط (١٤٢٢هـ).

- خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء: د/ الصادق إبراهيم - مكتبة المنهاج - ط ١ (١٤٢٦هـ).
- الخصائص النبوية: محمد احمد عبد الباري.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين السيوطي - تحقيق: عبد المحسن التركي - مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية - القاهرة - ط ١ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- درء تعارض العقل والنقل: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس - دار الكنوز الأدبية - الرياض - (١٣٩١هـ) - تحقيق: محمد رشاد سالم.
- دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ (١٤٠٥هـ).
- دليل المرأة المسلمة: علي بن سعيد الغامدي - مطابع أضواء المنتدى.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الألوسي البغدادي - دار الفكر - بيروت - (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- زاد المسير في علم التفسير - عبد الرحمن بن علي الجوزي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٤ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم الجوزية - تحقيق وتعليق وتحرير: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٧ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن: محمد محمود الصواف - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

- زوجات النبي ﷺ: محمد بن يوسف الصياحي الدمشقي - دار ابن كثير - ط (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام: محمد بن إسماعيل الصنعاني - مركز فجر للطباعة - ط (٢٠٠٣م).
- السلسيل في معرفة الدليل حاشية على زاد المستقنع: صالح البليهي - مكتبة جدة - ط ٤.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٤ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- سلسلة الأحاديث الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٤ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن حسين أبو بكر البيهقي - تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ط (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي - بإشراف شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٣ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

- السيرة النبوية: ابن هشام - تحقيق: مصطفى السقا - مؤسسة علوم القرآن (دمشق بيروت) - دار القبلتين للثقافة الإسلامية - جدة.
- السيرة النبوية الصحيحة: د/ أكرم ضياء العمري - مكتبة العبيكان - الرياض - ط ٣ (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
- شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ: محمد بن علي الصابوني - ط (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- شرح الأربعين النووية: محمد بن صالح العثيمين - دار الثريا للنشر - الرياض - ط ١ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي تحقيق أحمد محمد شاكر - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية - ط ١ (١٤١٨هـ).
- الصارم المسلول على أهل التبرج والسفور: حمود بن عبد الله التوجري - دار السلام - بيروت.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول: شيخ الإسلام ابن تيمية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- صحيح ابن حبان: محمد ابن حبان التميمي البستي - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري - تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء: أبو صهيب الكرمي.
- صحيح سنن ابن ماجة: محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- صحيح سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء: أبو صهيب الكرمي.
- صحيح مسلم بشرح النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت.
- صفة صلاة النبي ﷺ: محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض - ط١ (١٤١١هـ).
- الصوم مدرسة تربي الروح وتقوي الإرادة: عبد الرحمن الدوسري - مكتبة الرشد - ط١ (١٤٠٤هـ).
- ضعيف الجامع الصغير وزياداته: محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٣ (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

- ضعيف سنن ابن ماجة: محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- ضعيف سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري - دار صادر - بيروت.
- عودة الحجاب: محمد بن إسماعيل المقدم - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط ٣.
- غاية السؤل في خصائص الرسول: ابن الملقن - دار البشائر - بيروت - ط ١ (١٤١٤هـ).
- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: جمع وترتيب: أحمد بن عبدالرزاق الدويش - طبع وتوزيع مؤسسة الأميرة (العنود بنت عبدالعزيز بن مساعد) الخيرية - ط. الرابعة ١٤٢٣هـ.
- فتاوى معاصرة: موقع وزارة الاوقاف المصرية.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي - دار الريان للتراث - القاهرة - ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد ابن علي الشوكاني - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ط ١ (١٤١٥هـ).
- فصل الخطاب في مسألة الحجاب والنقاب: درويش مصطفى حسن - دار الاعتصام - ط ٢.

- فقه السنة: السيد سابق - شركة منار الدولية - القاهرة - (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).
- فقه السيرة: الغزالي - تعليق الشيخ الألباني - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- فقه السيرة النبوية: محمد سعيد البوطي - دار الفكر المعاصر - بيروت - ط ١٠ (١٤١١هـ).
- في ظلال القرآن: سيد قطب - دار العلم للطباعة والنشر - جدة - ط ١٢ (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- القاموس المحيط: الفيروزآبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ (١٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- القواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من الأحكام الفرعية: أبي الحسن علاء الدين بن محمد بن عباس البعلي الحنبلي المعروف بابن اللحام - تحقيق عبد الكريم الفضيلي - المكتبة العصرية - بيروت - ط ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
- كتاب الآداب: فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب - دار القاسم - الرياض - ط ١ (١٤٢٣هـ).
- لسان العرب: ابن منظور - دار صادر - بيروت.
- مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الريان للتراث و دار الكتب العلمية - القاهرة، بيروت.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام: أحمد بن تيمية - طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين.

- مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية: محمد جميل زينوا - هدية رابطة العالم الإسلامي.
- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز: عبد الحق بن عطية الأندلسي - مؤسسة دار العلوم - الدوحة - ط ١ (١٣٩٨هـ - ١٩٧٧م).
- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي - تحقيق: محمود خاطر - مكتبة لبنان - بيروت - ١٤١٥هـ.
- مختصر معارج القبول بشرح سلم الوصول: اختصره هشام بن عبد القادر آل عقدة - دار الصفوة - القاهرة - ط ٣ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- مدارج السالكين: ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- مرويات غزوة الخندق: د/ إبراهيم بن محمد المدخلي - الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - ط ١ (١٤٢٤هـ).
- المستدرک علی الصحیحین: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- مسند أبي عوانة: أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائيني - تحقيق: أيمن الدمشقي - دار المعرفة - بيروت - ط ١ (١٩٩٨).
- مسند الإمام أحمد: الموسوعة الحديثية - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) - بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرناؤوط.
- مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٥هـ.

- معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي - دار طيبة - الرياض - ط (١٤١١هـ).
- المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق: طارق بن عوض الله الحسيني - دار الحرمين - القاهرة - ط ١٤١٥هـ.
- معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي - دار الفكر - بيروت.
- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ط ٢ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
- المعجم الوسيط: د/ إبراهيم أنيس ورفاقه - ط ٢.
- معجم لغة الفقهاء عربي إنجليزي فرنسي: محمد رواس - دار النفائس - ط (١٤١٦هـ).
- المغني: ابن قدامة - تحقيق: د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي ود/ عبدالفتاح محمد الحلو - هجر للنشر والتوزيع - القاهرة - ط ٢ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- المنع: لأحمد بن محمد بن قدامة/ الشرح الكبير: عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة/ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف: علي بن سليمان المرادوي - تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي - دار عالم الكتب - ط ١ (١٤٢٦هـ).
- الملخص الفقهي: صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - الدمام - ط ١٠ (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

- من لطائف التفسير: أحمد فرح عقيلان - دار اليقين للنشر والتوزيع - المنصورة - ط ١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- من موضوعات سور القرآن: سورة الأحزاب - عبد الحميد محمود طهماز - دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت - ط ١ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- من وحي القرآن: جمع وترتيب: د/ جمعة أمين - دار الدعوة - إسكندرية - ط ١ (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
- موسوعة الآداب الإسلامية المرتبة على الحروف الهجائية: عبد العزيز فتحى السيد ندا - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - ط ١ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- الموسوعة الحديثية: مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) - بإشراف المحقق: الشيخ شعيب الأرنؤوط.
- موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي - دار إحياء التراث العربي - مصر - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله ﷻ واختلاف العلماء في ذلك: أحمد بن محمد النحاس - تحقيق ودراسة: د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم - مؤسسة الرسالة - ط ١ (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين: محمود مهدي الاستانبولي - مكتبة السوادى للتوزيع - جدة - ط ٧ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- نظرات في كتاب حجاب المرأة المسلمة للألباني: عبد العزيز بن خلف العبدالله، مطبعة البرلمان - القاهرة - ط ٣ (١٤٠٣هـ).

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: بهاء الدين إبراهيم بن عمر البقاعي - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ط ٢ (١٤١٣ هـ).
- النكت والعيون: علي بن محمد الماوردي - دار الكتب العلمية - ط ١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).
- النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير - تحقيق: طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطانحي - المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩ هـ.
- نيل الأوطار من أسرار منقى الأخبار: محمد بن علي الشوكاني - تحقيق: أحمد السيد ورفاقه - دار الكلم الطيب - بيروت - ط ١ (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م).

فهرس الموضوعات

الصفحة	العنوان
٥	المقدمة
٨	منهجية البحث
١٠	خطة البحث العامة
١٢	الوحدة الموضوعية للسورة
٢١	الباب الأول: تصحيح أسس بناء الأسرة المسلمة
٢٣	الفصل الأول: وصايا تأسيسية
٢٥	المبحث الأول: الأمر بتقوى الله ﷻ
٢٨	المبحث الثاني: التحذير من إتباع الأعداء
٣٠	المبحث الثالث: الأمر بإتباع دين الله تعالى
٣٢	المبحث الرابع: الأمر بالتوكل على الله تعالى
٣٢	المطلب الأول: ما هو التوكل على الله وكيف يكون؟
٣٣	المطلب الثاني: فضل التوكل على الله والأمر به
٣٦	الفصل الثاني: أحكام الظهر والتبني في الإسلام
٣٧	المبحث الأول: أحكام الظهر
٣٧	المطلب الأول: ما هو الظهر؟

الصفحة	العنوان
٣٨	المطلب الثاني: قصة المجادلة في الظهر
٤٠	المطلب الثالث: حكم الظهر
٤١	المطلب الرابع: أحكام كفارة الظهر
٤٢	المطلب الخامس: الحكمة من تحرم الظهر والتشديد في الكفارة فيه
٤٣	المبحث الثاني: أحكام التبني في الإسلام
٤٤	المطلب الأول: ما هو التبني؟
٤٥	المطلب الثاني: قصة تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة
٤٦	المطلب الثالث: موقف الإسلام من التبني
٥٠	المطلب الرابع: نموذج تطبيقي لإبطال التبني
٥٣	المطلب الخامس: التعقيبات على قصة إبطال التبني
٥٦	الفصل الثالث: أحكام الطلاق والمطلقات
٥٧	المبحث الأول: أحكام الزوجة التي تطلق قبل البناء
٦٠	المبحث الثاني: أحكام أخري للطلاق
٦٥	الباب الثاني: غزوة الأحزاب وقوة الامتحان
٦٧	الفصل الأول: أحداث الغزوة
٦٩	المبحث الأول: تأملات في آيات غزوة الأحزاب

الصفحة	العنوان
٧٢	المبحث الثاني: سرد أحداث الغزوة
٧٩	الفصل الثاني: قوة الامتحان
٨٠	المبحث الأول: يصف الله تعالى شدة المعركة بعدة صور
٨٣	المبحث الثاني: الابتلاء كان بعدة أمور
٨٦	المبحث الثالث: دور المنافقين في الإرجاف بين المؤمنين في المعركة
٨٨	المبحث الرابع: ذكر صفات المنافقين في الآيات
٩٤	الفصل الثالث: غزوة الأحزاب ونتيجة الامتحان
٩٥	المبحث الأول: الاقتداء بالنبي ﷺ
٩٧	المطلب الأول: بماذا نفتدي برسول الله عليه السلام من خلال الغزوة
١٠٠	المطلب الثاني: الرسول ﷺ القائد
١٠٢	المطلب الثالث: صفات الذين يقتدون برسول الله
١٠٤	المبحث الثاني: تَمَيُّزُ الصَّفِّ
١٠٧	المبحث الثالث: نتيجة الصبر والبلاء
١٠٩	المبحث الرابع: نتيجة الغدر
١١٧	الباب الثالث: وصايا للمؤمنين والمؤمنات
١١٨	الفصل الأول: وصايا لأمهات المؤمنين

الصفحة	العنوان
١٢٠	المبحث الأول: التحذير من ارتكاب الفواحش والتشديد في ذلك
١٢٥	المبحث الثاني: الوصية بالخشوع والعمل الصالح وزيادة الأجر لهن في ذلك
١٢٧	المبحث الثالث: النهي عن الخضوع بالقول
١٣١	المبحث الرابع: الأمر بالقرار في البيت
١٣٤	المبحث الخامس: النهي عن التبرج
١٣٧	المبحث السادس: الوصية بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة
١٣٩	المبحث السابع: الوصية بطاعة الله ورسوله ﷺ
١٤١	المبحث الثامن: الهدف الذي جاءت الأوامر السابقة من أجله
١٤٢	المبحث التاسع: الأمر بالدعوة إلى الله والتعليم
١٤٥	الفصل الثاني: الصفات التي يجب على كل مسلم ومسلمة المحافظة عليه
١٤٥	المطلب الأول: الإسلام
١٤٦	المطلب الثاني: الإيمان
١٤٧	المطلب الثالث: القنوت
١٤٧	المطلب الرابع: الصدق
١٤٩	المطلب الخامس: الصبر

الصفحة	العنوان
١٤٩	المطلب السادس: الخشوع
١٥١	المطلب السابع: الصدقة
١٥١	المطلب الثامن: الصيام
١٥٣	المطلب التاسع: حفظ الفروج
١٥٣	المطلب العاشر: ذكر الله
١٥٥	المطلب الحادي عشر: الالتزام بأمر الله على الفور
١٥٩	الباب الرابع: علاقة النبي ﷺ بأمتة
١٦١	الفصل الأول: الولاية وأحكامها
١٦٢	المبحث الأول: ولاية النبي ﷺ للمؤمنين
١٦٥	المبحث الثاني: ولاية المؤمنين لبعضهم وأنواعها
١٦٨	المبحث الثالث: ولاية المؤمنين للأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام
١٧٠	الفصل الثاني: علاقة النبي ﷺ بأمتة وأصناف المدعوين
١٧١	المبحث الأول: علاقة النبي ﷺ بأمتة
١٧٣	المبحث الثاني: وجوب شكر الله تعالى على تمام نعمته ومنته
١٧٨	المبحث الثالث: مهام ووظائف النبي ﷺ
١٨٢	المبحث الرابع: علاقة النبي ﷺ بالأصناف الثلاثة

الصفحة	العنوان
١٨٥	الفصل الثالث: الحياة الزوجية في بيت النبوة
١٨٦	المبحث الأول: إباحة الله لنبية ﷺ الزيادة على أربع
١٨٨	المبحث الثاني: النساء اللاتي أحلهن الله تعالى لنبية
١٩٢	المبحث الثالث: قسَم النبي ﷺ بين زوجاته
١٩٤	المبحث الرابع: جزاء زوجات النبي ﷺ في اختيارهن الصبر والدار الآخرة
١٩٩	الباب الخامس: حقوق النبي ﷺ وأهل بيته
٢٠١	حقوق النبي ﷺ وأهل بيته
٢٠٢	الفصل الأول: الاستئذان والطعام في البيوت
٢٠٣	المبحث الأول: آداب الاستئذان
٢٠٥	المبحث الثاني: آداب الطعام والجلوس له المذكورة في الآية
٢٠٧	المبحث الثالث: بقية آداب الطعام
٢١٠	الفصل الثاني: حال أزواج النبي ﷺ معه واختيارهن الصبر
٢١٢	المبحث الأول: حادثة التخيير
٢١٥	المبحث الثاني: وقفات مع قصة التخيير
٢١٧	المبحث الثالث: زوجات النبي ﷺ

الصفحة	العنوان
٢٢٤	الفصل الثالث: آداب خاصة مع زوجات رسول الله ﷺ
٢٢٤	المبحث الأول: أدب سؤال زوجات النبي ﷺ
٢٢٦	المبحث الثاني: النهي عن أذية النبي ﷺ في زوجاته
٢٢٩	المبحث الثالث: استثناء المحارم التي يجوز لنساء النبي والمؤمنات الظهور أمامهم
٢٣١	الفصل الرابع: تمجيد المسلم لرسول الله ﷺ
٢٣٢	المبحث الأول: فضل الصلاة على النبي ﷺ
٢٣٤	المبحث الثاني: قيمة الصلاة على النبي ﷺ
٢٣٦	المبحث الثالث: كيفية الصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ
٢٣٨	المبحث الرابع: آداب الصلاة على النبي ﷺ
٢٤٠	المبحث الخامس: أهم المواضع التي يستحب فيها الصلاة على رسول الله ﷺ
٢٤٣	الفصل الخامس: توعد الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين
٢٤٣	المبحث الأول: معنى أذية الله ﷻ
٢٤٥	المبحث الثاني: معنى أذية رسول الله ﷺ
٢٤٧	المبحث الثالث: الوعيد على أذية الله ورسوله
٢٥٠	المبحث الرابع: التوعد للذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات

الصفحة	العنوان
٢٥٢	المبحث الخامس: الأمور التي اختص بها النبي ﷺ عن سائر الناس
٢٥٧	الباب السادس: أسباب النجاة والوقاية للمجتمع
٢٥٩	الفصل الأول: أحكام الحجاب
٢٦٠	المبحث الأول: حجاب المرأة الشرعي
٢٦١	المبحث الثاني: أدلة وجوب الحجاب من القرآن ودلالاتها
٢٦١	المطلب الأول: الدليل الأول
٢٦٤	المطلب الثاني: الدليل الثاني
٢٦٥	المطلب الثالث: الدليل الثالث
٢٦٧	المطلب الرابع: الدليل الرابع
٢٧٠	المبحث الثالث: الأدلة من السنة
٢٧٢	المبحث الرابع: فوائد الحجاب
٢٧٥	الفصل الثاني: أسباب الهلاك وطرق النجاة
٢٧٥	المبحث الأول: أسباب الهلاك
٢٧٥	المطلب الأول: النفاق والإرجاف ومرض القلوب
٢٧٨	المطلب الثاني: تهديد الله لأصحاب تلك الصفات
٢٨١	المبحث الثاني: علاج أسباب الهلاك

الصفحة	العنوان
٢٨٢	المطلب الأول: التذكير والإنذار بالساعة وحال الناس فيها
٢٨٤	المطلب الثاني: حال الناس عند قيام الساعة
٢٨٧	المطلب الثالث: تحذير الله عباده من مسلك الهالكين قبلهم
٢٨٩	المطلب الرابع: ذكر أسباب النجاة وصفات الناجين
٢٩٢	المبحث الثالث: مدار النجاة والهلاك على الأمانة والمسؤولية
٢٩٢	المطلب الأول: أهمية الأمانة من خلال الآيات
٢٩٤	المطلب الثاني: الأدلة الدالة على أهمية الأمانة والحائنة عليها
٢٩٦	المطلب الثالث: نماذج من الأمانات الواجبة
٢٩٩	خاتمة البحث
٣٢٠	فهرس الموضوعات